يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

روبرت هتشنز

بيلّا دونّا

BELLA DONNA

أشهر قصة عالمية تجري وقائعها في مصر!

لمؤلف: "حديقة الله"

روبرت هيتشنز

بيلاّ دونّا

BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٠٠ صــفحة
الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الرابع والعشرون

بيلادونا

تأليف : روبرت هيتشنز
ترجمة : شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن واحد وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية . وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر والثانى والعشرون ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

قصة عن مصر

قرأها العالم كله ٠٠ ما عدا مصر !

عزيزى القارىء ٠٠

◆ فى العدد العاشر من « كتابى » قدمت لك تلخيصا لقصة « حديقة الله » ، التى كتبها « روبرت هيتشنز » عام ١٩٠٥ فى اطار من جو بلاد (الجزائر) ذات السحر الشرقى الرائع ٠٠ وذكرت لك فى مقدمة ذلك التلخيص ان قصص « هيتشنز » تتميز على وجه العموم بطابع الجو « الشرقى » الغامض الذى يخلب لب الغربيين منذ أقدم العصور حتى اليوم ! ٠٠ وقد أشرت فى تلك المقدمة اشارة « خاطفة » الى ان للمؤلف قصة أخرى لا تقل فى روعتها – ان لم تزد – عن « حديقة الله » ، هى قصة « بيللا دونا » ، التى تجرى وقائعها فى مصر !

واذا كنت قد قرأت قصة محاكمة السيدة « مرجريت فهمى » ، قاتلة المرحوم على فهمى كامل ، التى نشرتها لك فى ذلك العدد ذاته من « كتابى » ، فلعلك تذكر عبارة وردت خلالها على لسان محامى المتهمة « سير مارشال هول » فى مرافعته البليغة ، وقد جاء فيها قوله يخاطب المحلفين : « انكم تذكرون جميعا ولا شك تلك القصة الخلابة التى كتبها « روبرت هيتشنز » وأطلق عليها « بيللا دونا » ، وتذكرون المنظر الختامى فيها ، الذى تخرج فيه المرأة من أبواب الحديقة الى الليل الحالك فى صحراء مصر ٠٠ » ٠٠ ثم قارن المحامى البارع بين ذلك المنظر من القصة ، وموقف بطلتها ، وبين موقف موكلته المتهمة فى الجناية الكبرى ٠٠

ولا شك ان اشارة المحامى ذائع الصيت فى مرافعته التى تحدث عنها العالم وقتئذ ، الى قصة « بيللا دونا » ، بهذه اللهجة وهذه العبارات – بعد صدور القصة بأربعة عشر عاما ! – لتدل على مبلغ الرواج والشهرة اللذين أحرزتهما القصة ، والمكانة التى بلغتها فى المحافل الأدبية وعند الرأى العام ، بحيث توسم المحامى فى المحلفين جميعا أن يكونوا قد قرأوها ، وعلق بأذهانهم ذلك المشهد الأخير منها الذى تحدث عنه !

القصة التى جلبت لمصر طوفانا من السائحات الحالمات بالحب !

◆ وقد ولد المؤلف « روبرت سمايث هيتشنز » فى بلدة (سبلد هرست) بانجلترا فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٤ ٠٠ وبعد ان أنفق سنوات فى دراسة الموسيقى – استعدادا لاحترافها – ألفى نفسه ميالا الى الانسياق فى اتجاه آخر ، هو الصحافة ! ٠٠ وقد كتب أولى قصصه الطويلة فى سن السابعة عشرة • وفى سن التاسعة والعشرين كتب قصته الثانية ، الساخرة ، « القرنفلة

الخضراء » ٠٠ ثم أعقبتها قصته الثالثة « نداء الدم » ٠٠ وفى سن الحادية والأربعين أصدر « حديقة الله » ، (التى أخرجت بعد ذلك فى شريط سينمائى ملون مثلته « جريتا جاربو » مع « شارل بواييه ») ٠٠ وفى سن الخامسة والأربعين أصدر « هيتشنز » قصته هذه « بيللا دونا » ، التى أقدم لك ترجمتها « الكاملة » فيما يلى ٠

وقد أحدث صدور هذه القصة ـ فى عام ١٩٠٩ ـ ضجة كبرى جعلت اسم مصر يتردد خلال السنوات التالية على كل لسان ٠٠ فتقاطر السائحون لزيارتها ، من كافة أقطار العالم ، بحيث صارت هذه الزيارة « موضة » العصر التى يتنافس عليها القادرون ، ونساء الطبقة المترفة اللواتى يحلمن بعاشق أسمر من طراز « البارودى » ـ بطل القصة ـ يتداعين بين ذراعيه القويتين ، تحت سماء مصر المرصعة بالنجوم !

٠٠ ولعل من العجيب أن ينقضى على صدور هذه القصة العالمية ـ الوحيدة من نوعها ، التى تصور مصر ومعالمها فى مئات الصفحات ! ـ ينقضى عليها نحو نصف قرن ، تترجم خلاله الى كثير من اللغات ، ويقرأها الناس فى كثير من أقطار العالم ٠٠ ولا تحرم منها غير لغة وأهل البلد الذى كرست لوصفه ، والذى تجرى وقائعها على أرضه ٠٠ وأعنى بهذا البلد : مصر ! ٠٠ لذلك تعتز « مطبوعات كتابى » بأن أتيحت لها اليوم فرصة نفض أكفان النسيان عن القصة ، وتقديمها لقراء العربية ، فى مصر وجاراتها الشقيقة ، لأول مرة فيما أعلم ٠٠

لا ينبغى أن نسلك مسلك النعامة !

◆ بقيت كلمة لابد منها : فانك ستلحظ فى سياق القصة بعض «وخزات» تمس الشعور القومى فينا ـ نحن المصريين ، والشرقيين عامة ـ على ان هذه الوخزات فى رأيى أدعى الى أن تترجم وتنشر فى بلادنا كما هى ، اذ لن يجدينا ان نخفيها عن أنفسنا ، فى الوقت الذى يقرأها فيه الناس فى شتى أركان الأرض ، والا كنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال كى لا يراها الغير !٠٠ بل ان هذه الوخزات تفتح أعيننا على حقائق هامة : فهى توضح لنا كيف يرانا أهل الغرب ، وبأى أسلوب يكتبون عنا ، وبأى منطق يفكرون فينا ، وبأى منظار من التحامل الواضح ينظرون الينا ٠٠ وهى كلها حقائق ينبغى أن نتدبرها جيدا ، ونعد لكل سلاح منها ، السلاح الذى يفله !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

بيلادونا

للروائي الكبير "روبرت هيتشنز" مؤلف "حديقة الله"

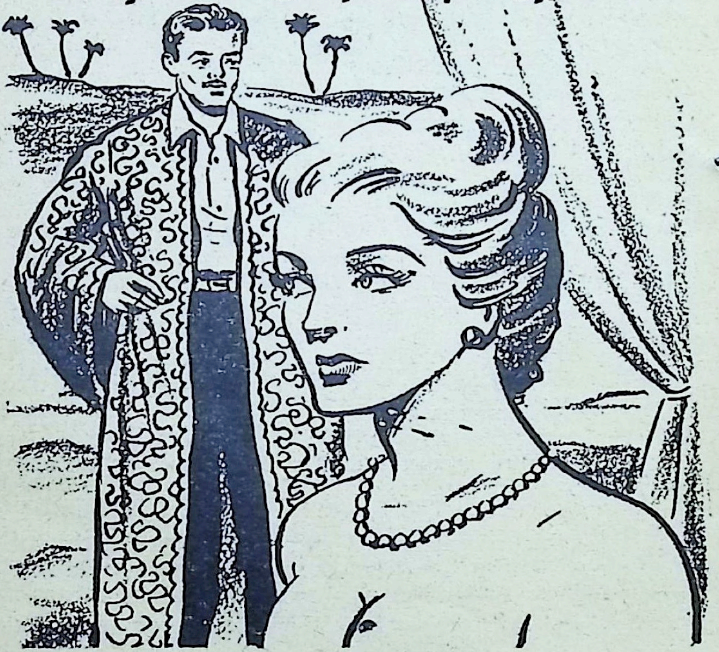

تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون أى تصرف أو اختصار لأى سطر أو لفظ فيها !

المترجم

الفصل الاول

• شق الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن ، وبسرعة تثير العجب والحيرة . فقد لاح أنه اندفع الى قمة النجاح اندفاع الرصاصة الى الهدف .. وبعد أن كان خامل الصيت ، اذا به بغتة فى ذروة المجد والشهرة . وما قدر لأحد أن يشهد خطواته نحو هذه الغاية ، وانما أصبح اسمه فجأة على كل لسان .. واذا كل انسان يتحدث عنه ، ويفيض فى الكلام عن حالات الشفاء التى تمت على يديه ، وينصح كل انسان غيره أن يذهب لزيارته !.. **ولسبب خفى أخذ اسمه – وهو اسم لا ينساه المرء اذا ما سمعه مرة – ينفذ الى الأحاديث التى تدور فى «الصالونات» الراقية بلندن ، فاذا بالنساء السليمات الصحة – ممن لم يزرنه من قبل – يتوعكن فجأة ، ويشعرن بالحاجة الى مشورة طبية عاجلة !..** وأصبح السؤال الدائم على الأفواه : « أين يقيم ؟.. فى هارلى ستريت طبعا؟ » . ولكنه لم يكن يقيم فى شارع (هارلى) ، فما هو بالذى يغمر اسمه فى ذلك الخضم من اللافتات النحاسية لزملائه الأطباء..

ومن ثم كان السائلون يدهشون ويصابون بما يشبه خيبة الأمل عندما كانوا يسمعون انه يقيم فى ميدان (كليفلاند) بحى (سان جيمس) ، حيث تقع داره المنعزلة ، المؤثثة بأفخر الرياش

وحلقت الشائعات بجناحيها تذيع انه موفور الثراء ، لا يمارس الطب الا لأن ملكاته الذهنية كانت تحبب اليه هواية دراسة الأمراض ، وانه أوتى موهبة خارقة فى تشخيص العلل ، لا يملك أن يغفل استخدامها ، كما ان به شغفا ونهما الى الدراسة الانسانية ٠٠ ومن ذا الذى تواتيه الفرص لدراسة الانسان مثل ما تواتى الطبيب والقس ؟!٠٠ وكان المرضى الذين استشاروه يتحدثون ـ فى حرارة ! ـ عن عينيه النفاذتين ، وعن قوة ملاحظته ، وعن الأثر البالغ الذى تتركه فى النفس شخصيته الجارفة ٠٠ وأصبح التعليق الشائع عن الدكتور ماير ايزاكسون أنه « **فريد لا يماثله أحد قط !** » ، فكانت هذه العبارة أعظم اطراء تداولته الأفواه فى لندن ٠٠ مدينة الببغاوات والقرود !

وكانت سنه موضع جدل ، وكذلك كان أصله ! ولقد قدر الناس أنه فى « نحو الأربعين » ، وهى سن مأمونة رزينة ، تتيح له من الشباب ما يبشر بآمال غير محدودة ، وما يوحى برجاء كبير فيما ينتظر أن يأتيه من جلائل الأعمال ٠٠ كما أنها تتيح له من النضوج ما يجعل النتائج التى أحرزها رائعة مدهشة ، ان لم تكن فذة خارقة ٠٠ أجل ، لا بد أنه فى « نحو الأربعين » ! ٠٠ **وأصله ؟!٠٠ ان اسم «ماير» يذكر السامع بألمانيا ، أما «ايزاكسون» فيذكر المغرقين فى الخيال باسرائيل الضائعة !٠٠ وقد قال بعض الناس عنه انه « يبدو كما لو كان قادما من الشرق » ، فعقب أحد السفهاء على ذلك بقوله « شرق لندن » ! (وهو الحى الذى يقطنه الفقراء وحثالة القوم فى العاصمة الانجليزية)**

ولعله كان فى طبيب ميدان (كليفلاند) مايوحى بهذا أو ذاك ·· فمن المحقق انك لو سرت موغلا فى (بريك لين) ـأو الدروب الضيقة المؤدية اليه ـ فى شرق لندن (ايست اند) ، لالتقيت برجال من طرازه : متوسطى الطول ، نحاف الأبدان، ذوى شعر كثيف مجعد ، وشفاه مقوسة ، وأنوف واسعة ، ووجنات بارزة العظام ، وعيون سوداء يروعك منها بريقها الوحشى ·· رجال تدرك لأول وهلة أنهم ليسوا من الانجليز فى شىء !·· ولقد كان الدكتور ماير ايزاكسون شبيها بهؤلاء الرجال ، ومع ذلك فقد كان فيه شىء يبعده عنهم كل البعد ·· كان ذا حيوية غزيرة دافقة ـ تكاد تزيد على المألوف اذا ما اختلط بالانجليز ـ ولكنه لم يكن يبدو قط جشعا ،أونهماينشد فريسة !·· وقد يتصور المرء أن هذا الرجل خليق بأن يأتى أمرا غير عادى أو شاذا ، ولكن المرء لا يتصور البتة أنه يقوى على ارتكاب أية خسة أو دناءة · بل لقد كان ينبعث من عينيه أحيانا بريق ينم عن سمو خلقى من النادر أن تجده فيمن يقيمون فى (بريك لين) أو حواليه ·· وكانتيداه النحيلتان العصبيتان ، سمراوين ، تذكرانك بأيدى علاة القوم من المصريين ! ·· وكان ـ مثل الكثيرين من بنى جنسه ـ فنانا بطبعه ، يجرى مع الدماء فى عروقه حب غريزى لأسمى ما وصل اليه الانسان من الابداع فى الخلق ، فكان شديد الاهتمام بالجميل من الأشياء ، قادرا على التمييز بين الغث والسمين ، لا يروقه ما يأتى فى المرتبة الثانية وانما يشتد حماسه وتقديره لما يكون فى المرتبة الأولى منالتحف··وماكان يمل قط من ادمان النظر الى الصور الجميلة والتماثيل العظيمة والزجاج النفيس القديم والنقوش الدقيقة والجواهر الثمينة ، كما كان بطبعه شديد التأثر ببدائع فن البناء والعمارة · أما الموسيقى فقد كان شغوفا بها الى حد التطرف شأن الكثيرين من اليهود

ويقال عن رجال اليهود ان بهم دائما بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لا التأنث أو التشبه بالنساء ٠٠ وقد كان لدى الدكتور ماير ايزاكسون شيء من ذلك ، اذ كان كالنساء فى سرعة البديهة وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشيء أو النفور منه !٠٠ وكان يفهم النساء بغريزته كما يفهمن بعضهن بعضا ، وكثيرا ماكان يعرف الشيء عنهن دون أن يدرى كيف عرفه ٠٠ ومن حسن الحظ أن مثل هذه المقدرة على فهم النساء كانت نادرة بين الرجال ، ومن ثم كان الدكتور «ماير ايزاكسون» يسير فى الضياء ، حيث كان معظم الرجال يتخبطون فى الظلمات ! ولكنه لم يكن متزوجا ٠٠ وقد يرى الكثيرون ان العزوبة تنقص من قدر الطبيب ، وتقف فى سبيل مستقبله ٠٠ الا أن الدكتور «ماير ايزاكسون» لم يجد الأمر كذلك بالنسبة اليه ، فمع أنه لم يكن اخصائيا فى الأمراض العصبية ، الا ان حجرة الانتظار بعيادته كانت ملأى دواما بالمرضى الى درجة ما كانت لتدع مجالا لمزيد ، لو انه كان متزوجا ٠٠ بل لعلها كانت اذ ذاك تغدو أقل ازدحاما !٠٠ وماكان الطبيب ليحفل بالتفكير فى عزوبته أو زواجه ٠٠ كل الذى كان يدريه هو أنه أصبح – على حين غرة – « موضة » اليوم فى لندن ، وظل محتفظا بهذه المكانة ! ٠٠ كذلك لم يكن فى طباعه غرابة أو شذوذ يستهوى النساء ٠٠ فهو لم يبهر مجتمعهن بغلظة مفتعلة ، ولا فتن هذا المجتمع برقة سخيفة مصطنعة ، وانما كان يظهر دائما بمظهر طبيعى ، ويبدو ذكيا ، يقظا ، بالغ الاهتمام بالشخص الذى يجالسه ٠ ومن المحقق انه كان رجلا اجتماعيا ٠٠ فكثيرا ما كان يرى فى صالات الموسيقى ، ودار الأوبرا ، ومآدب العشاء ، وحفلات الاستقبال ، بل انه كان يغشى أحيانا حفلات الرقص الكبيرة ٠٠ كما كان يمتطى جواده – فى الصباح المبكر – فى جولة بالمتنزه ، ويقيم مأدبة عشاء كل أسبوع فى ميدان (كليفلاند)

.. وكان الناس يحبون الذهاب الى منزله ، وتلبية دعواته ، ليقينهم من أنهم لن يسأموا ولن يضجروا ، ولن يتناولواطعاما مسموما !.. ولم يكن الرجال أقل تقديرا له من النساء ، على الرغم مما كانوا يجدونه فيه من آثار (بريكلين)وشرقلندن!.. **فان استقامته ، ومهارته ، وطيبته البادية للعيان ، كانت لا تلبث ان تقضى على ماكان يثيره مظهره لدى الانجليز ، المفطورين على النفور من الأجانب !.. ولم يكن يبغضه أحد الا أن يكون من أعداء اليهود الألداء !**

وعلى هذا النحو استقرت حياة الدكتور ماير ايزاكسون ، كأطيب ما تستقر حياة انسان ، حتى حسبه الكثيرون واحدا من السعداء فى هذا العالم !

* * *

◆ **وفى** صباح يوم من شهريونيو، يمم الطبيب شطر ميدان كليفلاند عائدا من نزهته الصباحية ، وحيدا لا يرافقه أحد .. وكان الجواد الأدهم النشيط الذى امتطاه ، والذى لم يكن يقل فى حيويته الدافقة عن صاحبه ، قد دار دورته ركضا فى متعرجات المتنزه ، ثم مضى يسير خببا نحو قصر (باكنجهام) وهو يتنشم الهواء الراكد بخياشيمه الحساسة ..وكانت النذر توحى بأن اليوم سيكون حارا ، مما بعث فى نفس الطبيب ميلا الى التلبد والكسل . وأحس فجأة بوطأة العمل عليه واسترقاقه اياه ، اذ انه لن يلبث ان يصل الى ميدان كليفلاند - بعد دقائق - فلا يكاد يستحم ويتناول قدحا من القهوة ويلقى نظرة سريعة على صحيفتى «التايمس» و «الديلى ميل» ، حتى يبدأ زحف الموكب الذى يظل حتى المساء متلاحقا على عيادته ! .. وتنهد الطبيب ثم جذب عنان جواده ليبطىء فى سيره ، اذ كان فى ذلك اليوم نافرا كل النفور من الالتقاء بهذا الموكب من المرضى ، رغم انه كان يجلب اليه نفعا جديدا

فى كل يوم !

وكان الطبيب ـ بوجه عام ـ رجلا حاد الذكاء . ولم تكن به حاجة الى التظاهر بالحرارة والاهتمام ، فهما صفتان أصيلتان فيه . وكان يهوى البحث والاستقصاء ، فوجد فى مهنتـه ما يمكنه من اشباع هوايته . وكان قاصدوه ـ بصفة عامة ـ من علية القوم ، فكان خادمه اليهودى يدخلهم عليه واحدا بعد الآخر ، كلا بدوره ، خليطا من الناس أحاطت بهم شباك الحياة المدنية الحديثة .. فكان الطبيب يحب أن ينفرد بهم فى حجرته الهادئة ، فينقب فى كل منهم عن الروابط الخفية التى تجمع بين الجسد والعقل فى الانسان ، ويرقب قوة جذب الروح للجسد أو الجسد للروح .. ولكنه كان فى ذلك اليوم راغبا عن العمل .. وكان فى أعماق نفسه شىء ما ، يخفيه عادة نشاطه المتدفق .. شىء يجعله يتـوق الى الجلوس فى الشمس المشرقة ليسبح فى الخيال سـاعات متتابعة ، تاركا الأقدار جميعا تمضى فى هدوء ، أو بغير اكتراث ، بين يدى الله !.. وكان يقول لنفسه : « **سوف أحصل على أجازة يوما ما .. أجازة طويلة ! وسأمضى بعيدا عن هنا .. الى الأرض التى أحس حقا انها وطنى .. الى حيث أشعر اننى فى مـكانى الطبيعى !** » .. وفيما كان يفكر فى ذلك ، رفع عينيـه ، فاستقرت أنظاره على جدران القصر الملكى الداكنة ، وعلى الأسوار المذهبة التى تفصل القصر عن الطريق العام،والحراس الذين كانوا يقومون بنوبتهم ، نضرى الوجوه ، مرهفى الحس واليقظة ، وهم يتطلعون الى لندن بتلك العيون الهادئة .. البريطانية !.. وعاد يردد فى نفسه : «فى مكانى الطبيعى!». وعندئذ انبعثت الابتسامة الى عينيه وشفتيه معا ، وبدا له انه يرى لندن كما لو كانت مسرحية هائلة .. أو مشهدا يستطيع أى طالب صغير أن يستوعبه فى لمحة واحدة !

ترى هل كان الكسل هو مايتوق اليه حقا ؟.. لقد تبدلت

رغبته فجأة ، دون أن يدرى لهذا التبدل سببا ، فاذا به يجد فى نفسه رغبة فى ان يخوض أحداثا جساما ، رهيبة ، مروعة ·· أحداثا غير مألوفة ، تحوى من العنف ما يرفع الرجل المنغمس فيها فوق مستوى سائر الرجال !·· لقد استيقظ العنصر الأجنبى فى نفسه ، وربما أيقظه من غفوته هذا الهواء الساكن الى حد لم يعهده من قبل ، فاذا لندن تبدو له مدينة تافهة ·· مدينة لا يمكن فيها لرجل من طرازه أن يسبح فى الخيال أو يركن الى العمل بكل ما فيه من تخاذل ، أو بكل ما فيه من قوة ونشاط !·· **وراح يتخيل ـ كما يفعل الأطفال الأذكياء أحيانا ـ بلدا بعيدا نائيا من تلك البلدان التى تنشر فيها أساطير الحب طياتها اللامعة ، حيث يمكن أن يجد الحافز الذى يحتاج اليه لبعث قواه الكامنة جميعا الى ممارسة أقصى نشاطها ·· تلك القوى التى يحس ان استخدامها كفيل بأن يكمل حياته !**

وضغط على جنبى جواده بركبتيه ، ففهم الحيوان رغبته ، وانطلق يركض حثيثا ·· ومر سريعا أمام حديقة قصر (ستافورد) ، ثم استدار الى اليسار أمام قصر (سان جيمس) ، ثم قصر (مارلبرو) ، وما لبث أن بلغ باب منزله ·· وفيما كان يمضى الى الداخل ، قال لخادمه : « أرجو أن تحضر لى المفكرة والقهوة بعد عشرين دقيقة يا هنرى ! »

* * *

◆ **وبعد** نصف ساعة ، كان يجلس فى مقعد مريح فى حجرة جلوس بالطابق العلوى ، يرشف قهوته ، وقد استقرت الصحف بالقرب منه ، لم تمس ·· وعلى ركبته كانت المفكرة مفتوحة ، تحوى أسماء المرضى الذين كان على موعد معهم فى ذلك اليوم ·· وأخذ يتطلع الى الأسماء ، عسى ان يجد بينها واحدا يثير اهتمامه !·· كان مريضه الأول رجلا يمر بعيادته

كلما كان فى طريقه الى حى المال والأعمال ·· وتلت ذلك أسماء ثلاث نساء ، ثم اسم غلام كان قادما مع أمه ، وهى سيدة ذات عقل قلق مضطرب ·· وكان الطبيب قد تلقى منها أكداسا من الخطابات !·· وبهذا ينتهى عمله فى فترة الصباح · وقلب صفحة أخرى من المفكرة ليرى مواعيده فى فترة بعد الظهر ·· ثم أخذ يتلوها مغمغما : « الساعة الثانية ، مسز ليزير · الثانية والنصف ، مس منديس · الثالثة ، أسقف جريستون · الثالثة والنصف ، ليدى كارل · الرابعة ، مدام دى ليس · الرابعة والنصف ، مسز هارنجباى · الخامسة ، سير هنرى جريب · الخامسة والنصف ، مسز تشبستو » ·· وكان هذا آخر اسماء المرضى بقائمة اليوم ، فقد كان عمل الدكتور ماير ايزاكسون ينتهى فى السادسة ، أو هكذا كان يفترض ، ولو انه غالبا ما كان يمنح بعض مرضاه أكثر من نصف الساعة المقرر ، فكان بذلك يطيل من ساعات عمله ·· ولكنه ماكان يقبل فى منزله أحدا يأتى لاستشارة طبية بعدالمريض الذى يحدد له الساعة الخامسة والنصف ·· ومن ثم فقد كانت مسز تشبستو آخر المرضى الذين كان عليه أن يفحصهم فى ذلك اليوم ··

وجلس ساكنا برهة ، والمفكرة مفتوحة فوق ركبته ، وهو ينظر الى اسمها ·· كان اسما معروفا له حق المعرفة ·· اسما ذائع الصيت فى دنيا الناطقين بالانجليزية عامة ·· فقد كانت مسز تشبستو احدى روائع الحسن والجمال ، ولكنها كانت توشك على الأفول · وبعد اذ طال يوم مجدها وأمعن فى الطول ، أصبح يبدو وقد جنحت شمسه للمغيب ، وخبا ضياؤه ·· كانت قد جاوزت الأربعين ، وان زعمت انها فى الثامنة والثلاثين ·· اجل ، كانت فوق الأربعين حقا !·· ويقول البعض ان الطيبة والصلاح يحفظان على النساء نضرتهن ·· وقد جربت مسز تشبستو قدرا عظيما من

وسائل الاحتفاظ بنضارتها ، الا أنها أغفلت هذه الوسيلة !٠٠ وكانت الخطوة بين البذخ والتقشف هي الخطوة الوحيدة التى لم تتخذها قط فى حياتها ، رغم انها اتخذت كثيرا من الخطوات التى كان بعضها ـ لسوء الحظ ـ غـير موفق ٠٠ وكانت فتاة طيبة المنبت ، تنحدر من والدين أرستقراطيين ، ولكنهما كانا مفلسين مبذرين ٠٠ فأما والدها « أفرارد بيج » ـ وهو أحد أبناء اللورد تشيام ـ فقد اتخذ لنفسه مقرا مختارا فى محكمة التفاليس ! ٠٠ وأما والدتها ، فكانت بالمثل شديدة الاسراف فى المال ، تقول كلما جاء ذكره : « اننا نرزق المال لننفقه ، لا لندخره ونكتنزه ! » ٠٠ لذلك كان اكتنازها المال من القلة بحيث اضطر زوجها الى نشر اعلان فى الصحف الكبرى يقرر فيه انه لن يكون مسئولا عن ديونها !٠٠ وكان قد انقضى عهد طويل مذ كان مسئولا عن ديونه هو ، ومع ذلك فقد نم هذا الاعلان عن شىء من الكرامة والاعتزاز ، شـأن الرجل الأمين الذى يعلن فى صراحة عن حقيقة مركزه !

والأرجح أن حياة مسز تشبستو تأثرت بمتاعب والديها المالية ٠٠ فقد تعلمت منذ الصغر ان تفزع من الفقر ، وعرفت كيف يباع أثاث المرء وفاء لديونه ، مرتين ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ٠ ولعل ذلك هو الذى أدى بها الى أن تختار ان تبيع نفسها فيما بعد !٠٠ ومهما يكن من أمر فانها لم تكد تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ، حتى «بيعت» الى مستر « وود هاوس تشبستو » ، وهو تاجر خمور ثرى ، لم تكن تشعر نحوه بأى ميل أو هوى ٠٠ ونالت بوصفها مسز تشبستو شهرة ذائعة فى المجتمع اللندنى ، كاحدى ربات الجمال البارع ، وأطلق الناس عليها اسم « بيلا دونا » ٠٠ أى « ست الحسن»! ٠٠ ونشرت صورها ، وكثرت الكتابة عنها ، ولهج بذكرها علية القوم ، حتى ذاع صيتها فى أنحاء العالم كما يمكن أن تذيع شهرة امرأة لا فضل لها ولا ميزة سوى الجمال والحسن،

دون عمل مجيد تأتيه !

وما لبثت ان غدت بطلة قضـية طلاق كبرى ·· **فقد نسي مستر تشبستو ان من الواجبات المحتومة للزوج العصرى ان يغمض عينه عن النزوات العارضة لزوجة محبوبة تنال اعجاب الناس عامة ، فأذاع فجأة بعض الحقائق البشعة ، وبذلك دمر سمعة مسز تشبستو تدميرا ، وربح قضية الطلاق ، كما قضى له بتعويض جسيم من رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين ·· واضطرت زوجة الرجل الى طلب الطلاق منـه بدورها · وهكذا قضى على مسز تشبستو اجتماعيا ، قضـاء مبرما !**
وعندئذ بدأت المرحلة الجديدة فى حياتها ·· مرحلة تختلف كل الاختلاف عما سبقها · ولم تكن اذ ذاك قد جاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، كما انها كانت فى ذروة جمالها وبهائها ·· واعتقد الناس جميعا ان الرجل الذى كان سببا فى دمارها لن يلبث ان يتزوج منهـا بأسرع وقت ممكن · ولـكنه لسوء الحظ قضى نحبه قبل أن يصبح الحكم نهائيا ·· وهكذا أودعت مسز تشبستو مستقبلها بين يدى الأقـدار ، التى قلبت لها ظهر المجن ، فاذا بها - وهى فى أوج شهرتها وذروة جمالهاوميعة صباها وشبابها - قد دمرت حياتها وتركت وحيدة ، مضطرة الى ان تدبر لنفسها وسائل العيش فى هذا العـالم · واذ ذاك برزت بين صفاتها وأخلاقهـا خلة غير حميدة. ·· فقد راحت تذكى حبها للمال ، ورغبتها الجياشة فى المادى من الأشياء ! ·· ولم يظهر هذا الجشع الا بعد ان غدت فقيرة وحيدة ·· ولعـله كان كامنا فى نفسها دوآما ، ولكنها كانت تخفيه ·· أما وقد أصبحت فى غير حاجة الى اخفاء نهمها وجشعها ، فانها أظهرتهما وراحت ترتب حياتها لاشباعهما وارضائهما !

ولقد اسـتطاعت اشباعهما حقا ! أو انهـا - على الأقل - قضت سنين عدة تهدىء من سورتهما · واحتفظت بشهرتهـا الذائعة ، مع فارق واحد : هو أنها غدت مسز تشبستو ذات

السمعة المريبة ! ولم يكن لها ولد تصون سمعتها من أجله ، كما ان أباها كان قد قضى نحبه ، وذهبت أمها لتعيش فى بروكسل مع بعض أقربائها الأجانب ٠٠ ولم تعد مسز تشبستو تبالى بأقربائها الانجليز ، بعد اذ انقلبوا جميعا ضدها منذ فضيحة الطلاق ٠ وارتدت دروعها الفولاذية كاملة ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة تحدق بها المتاعب ، ومضت تتحدى أولئك الذين ناصبوها العداء ٠٠ لقد فشلت فى حياتها الأولى، ولكنها أشد ما تكون عزما على النجاح فى حياتها الجديدة !٠٠
والحق انها لقيت نجاحا عظيما لفترة غير قصيرة ، كان الرجال خلالها يتهاوون عند قدميها ويتفانون فى اشباع رغباتها ٠٠ وانطلقت تعيش كما خيل اليها أنها تهوى أن تعيش : فى بذخ ورفاهية ! وكانت تنال أكثر مما تناله معظم النساء الصالحات، فكانت تجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة !٠٠ وعلى الرغم من حبها الشره للمال ، فان صفات والديها كانت تتغلب عليها ، فاذا بها مسرفة غاية الاسراف ، كما كان والداها من قبل ٠٠ بل ان حبها للمال كان مرده الى حبها للانفاق ، لا الاكتناز ٠ وقد ظلت سنين عدة تبعثره يمنة ويسرة بكلتا يديها ، حتى اذا شارفت الأربعين ، بدأت نضرة جمالها تميل نحو الذبول ٠٠ ولما كانت امرأة ذائعة الصيت ، فقد كان عليها ان تحتمل مصير أولئك الذين يظلون طويلا حديث المجتمع ٠٠ أما الرجال فكانوا يقولون عنها : « مسز تشبستو ؟٠٠ أوه ! لقد طال العهد بها كثيرا ، ولا بد انها الآن فوق الخمسين ! »٠٠ وأما النساء وعلى الأخص الصالحات منهن ـ فكن يؤكدن انها أقرب الى الستين !

وكما يحدث فى مثل حالها عادة ، جنح الطيف الوردى فجأة الى الانحسار عن حياتها ، وأخذت الظلال القاتمة تزحف عليها رويدا ! وصارت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان على الأغلب !٠٠ وبدأ الناس يسخرون منها كلما تحدثوا عنها ، فكان يقال انها لم تعد فى حالة طيبة

كما كانت من قبل ، وان أحد أصحاب الملايين المزعومين قد زج بها فى بعض المضاربات الفاشلة ، ثم لم ير من الضرورى ان يسدد لها خسائرها • وانتقلت من منزلها فى (بارك لين) الى مسكن فى (فيكتوريا ستريت) ، ثم الى مسكن صغير فى (كنسنجتون) •• وما لبثت ان تخلت عن هذا واتخذت لها مسكنا بسيطا فى الريف ، كانت تذهب اليـه وتعود منه الى المدينة بسيارتها •• وسرعان ماسئمت هذه الطريقـة فعادت لتعيش فى أحد فنـــادق لندن •• وباعت يختها ، كما باعت قدرا من الماس كانت تقتنيه • ومضى الناس يقولون : « مسز تشبستو ؟ اوه ! لا بد انها الآن فوق الخمسين ! » •• وما من شك فى انها كانت تواجه وقتا عصيبا •• ومع كل شهر يمر عليها ، كانت الوحدة تحملق فى وجهها ، وتمضى تتفرس فى عينيها بنظرات باردة جامدة حتى تحس كأن دوارا قد أوشك أن يحل بها ، وأن قوة خفية تنومها تنويما مغناطيسيا •• وبدأ الكلل يزحف على نفسها ، والتبلد يسرى فى كيانها !

وحلت الأربعون، فالحادية والأربعون، ثم الثانية والأربعون •• واذ ذاك ، وفى ذات صباح من أيام شـــهر يونيو ، جلس الدكتور ماير ايزاكسون يرشف قهوته ، وهو ينظر الى اسمها وقد كتب أمام الساعة الخامسة والنصف فى المفكرة الخاصة بمرضاه !

الفصل الثـانى

◆ لم يكن الدكتور ماير ايزاكسون يعرف مسز تشبستو شخصيا ، ولكنه كان يراها اتفاقا فى ساعة العشـــاء فى بعض المطاعم الفاخرة ، أو فى بعض الأمسيات وهى تمتطى صهوة جوادها فى المتنزه • فلما اخذ يتأمل اسمها فى مفكرته ، تبين انه لم يرها فى الواقع منذ مدة طويلة ، لعلها تناهز العامين •• وكان قد سمع بالشائعات التى ذاعت عن تدهور حالتها ، ولكنه لم يعرها اذنا

واعية ، اذ لم تكن مسز تشبستو تثير فى نفسه اهتماما خاصا . ومع ذلك فانه ـ عند ما طوى مفكرته فى ذلك الصباح ، ونهض من مجلسه ليمضى الى عمله ـ أحس فى نفسه برغبة قوية فى ان يسمع الساعة تدق النصف بعد الخامسة ، وان يرى هنرى وهو يفتح الباب ليقود مسز تشبستو الى حجرة الاستشارة .. فان امرأة عاشت عيشتها واكتسبت شهرتها ـ أو سوء سمعتها ! ـ خليقة بان تثير الاهتمام !.. واخـذت تراوده الرغبة فى تعجل سير الزمن ، كلما مضى النهار متثاقلا .. حتى اذا ما فحص السير هنرى جريب ـ المريض قبل الاخير ـ أثبت فى قائمة اليـوم انه كهل مريض بالوهم ، يعتبر صـورة جديدة لبطل قصة موليير المعروفة (المريض بالوهم) ، بطىء الحركة مضطرب الحديث دائب الشكوى .. وقاوم الطبيب نفسه ليكبح الرغبة التى استبدت به فى ان يكتب له وصفة (روشتة) سريعة ببعض الحبوب المقوية ، ثم يقوده الى الباب المفضى الى طريق قصر مارلبرو ! ودقت السـاعة معلنة النصف بعد الخامسة ، وما زال السير هنرى يشرح الأعراض العجيبة التى كانت تقض مضجعه : الطنين الذى يملأ رأسه ، والتقلصات التى تصيب أطرافه بغتة ، والدبيب الذى يحسه عند جذور شعره كأنه حشرات ذات سيقان مثلجة تمرح وترتع هناك !.. وكانت عيناه تتألقان فى حرارة وحمية ـ شـأن العليل القلق ـ وهو يجالس الرجل الذى يدفع له أجرا ليصغى الى شكواه ويعنى بعلاج اسبابها !

ولكن مسز تشبستو ؟ ترى هل حضرت ؟ اتراها تجلس الآن فى الحجرة المجاورة ، تقلب أنظارها بغير اهتمام فى احدث الكتب الموجودة امامها ؟

واستطرد السـير هنرى قائلا ، وهو يرفع اصـبعه الى اعلى : « وان اعجب ظاهرة فى حالتى ، هى ذلك العرق البارد الذى ... » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « ان نصيحتى لك هى ان ... »

ـ ولكنى لم اشرح لك بعد شيئا عن العرق البارد الذى ...

ـ هذه نصيحتى لك يا سير هنرى : لا تفـكر فى نفسك البتة ! وعليك بالمشى ساعة قبل الافطار يوميا ، واقصر طعامك على وجبتين فى اليـوم ، فى الصباح والمساء ... وينبغى ان تنام ثمانى ساعات كل ليلة على الأقل ، وان تترك التسكع فى النادى ، وتشغل نفسك بالعمل من أجل الآخرين ما امكنك ذلك ! ففى اعتقادى ان هذا خير دواء مقو لك . ولست أرى بعد ذلك سببا لكى لا تعيش حتى المائة !

ـ أنا ؟.. اعيش حتى المائة ؟!

ـ ولم لا ؟ ليس بك من شىء سوى ما يصوره لك الوهم

ـ لا شىء ؟.. اتقول انه ليس بى من شىء ؟

ـ لقد فحصتك ، وهذا رايى

فتورد وجه المريض من فرط الحنق لهذه « الاهانة » الصارخة ، وقال :

« لقد جئتك لتخبرنى عما بى ... »
- ويسرنى أن أخبرك بأنه ليس بك من شىء .. فى جسمك !
- هل تعنى بهذا التلميح ان عقلى هو المريض ؟!
- كلا ، ولكنك لا تفسح له مجال التفكير .. فانت لا تفكر الا فى نفسك فحسب ، وهذا لا يكفى البتة !
فانبعث السير هنرى قائما ، ودس اصبعا مرتعدة فى جيب صديريته وهو يقول : « احسبنى مدينا لك ب ... »
- لا شىء .. ولكنك اذا عنيت بوضع شىء فى الصندوق الموجود على المنضدة فى الردهة ، فانك بهذا تعين رجلا فقيرا على الذهاب الى شاطىء البحر لتبديل الهواء بعد الجراحة التى اجريت له ، وستجد فى ذلك خير دواء فى العالم !
وفيما كان الباب يغلق وراء ظهر رجل جرحت كرامته فانقلب عدوا مبينا ، كان الطبيب يغمغم قائلا لنفسه : « والآن ، الى مسز تشبستو » .. وجلس ساكنا دقيقة أو اثنتين ، وهو يتوقع ان يرى الباب يفتح من جديد ويبدو فى فراغه شبح امرأة ، كما تبدو الصورة فى اطار . ولكن احدا لم يدخل ، فبدا يتململ فى مجلسه ، اذ انه لم يعتد من قبل ان يبقى فى انتظار مرضاه ، على الرغم من انه كان كثيرا ما يبقيهم فى انتظاره .. وكان زر الجرس قريبا من يده فمسه بأصبعه ، وسرعان ما ظهر خادمه للتو ، فقال وهو يخرج ساعته من جيبه : « ان مسز تشبستو على موعد فى الخامسة والنصف ، والساعة الآن السادسة الا عشر دقائق تقريبا .. الم تأت بعد ؟ »
- كلا يا سيدى .. وقد حضر شخصان او ثلاثة على غير موعد ...
- ولكنك رددتهم على اعقابهم طبعا ؟.. خيرا فعلت . حسنا .. اننى لن ابقى اكثر من ذلك !
ونهض عن مقعده ، فقال الخادم : « واذا حضرت مسز تشبستو يا سيدى ؟ »
- افهمها اننى انتظرتها حتى السادسة الا عشر دقائق ، وعندئذ ...
ولم يتم عبارته ، اذ انبعث جرس الباب يدوى فى حدة .. فسأله الخادم : « اذا كانت مسز تشبستو هى القادمة ، فهل اسمح لها بالدخول يا سيدى ؟» . وتردد الطبيب ، ولكن تردده لم يتجاوز ثانية واحدة ، قال بعدها : « نعم » . ثم جلس ثانية الى مكتبه .. لقد ظل فى ذلك اليوم يتلهف على وصول آخر مرضاه ، ولكن احتجازه على هذا النحو أثار غيظه ، لا سيما وان المريضة وصلت فى اللحظة التى فارقه فيها اقباله على العمل ، بعد اذ حسب ان متاعب يومه قد انتهت .. فلماذا لم تحضر فى الميعاد ؟.. وراح يدق بأصابعه الرفيعة على المكتب فى صبر نافد ، وقد قطب حاجبيه الكثيفين فوق عينيه البراقتين .. ولكنه ما ان احس بحركة الباب حتى استعادت أساريره هدوءها . وعندما

دلفت الى الحجرة امرأة مديدة القامة ، وقف أمام مقعده وهو يبتسم فى رصانة .. وبادرت المرأة قائلة : « أخشى أن أكون قد تأخرت ! » . وبينما كان هنرى يغلق الباب ، قال الطبيب : « لقد تأخرت عشرين دقيقة »

– انى لجد آسفة !

بيد ان نبرات صوتها المتراخية كانت تنفى صدق كلماتها ، فشعر الطبيب – فى غمرة انشغاله – باحساس طفيف من العداء !.. وقال : « ارجو أن تجلسى هنا وتخبرينى عما جئت لاستشارتى من أجله » .. فجلست مسز تشبستو فى المقعد الذى أشار اليه .. وكانت حركاتها بطيئة متكاسلة ، تاتيها فى استرخاء شأن الشخص المعتد بنفسه ، الذى لا يجد ما يشغله .. مما أوحى الى الرجل الذى كان يرقبها بامعان ، بما كان يملأ حياتها من ساعات الفراغ .. لكم تختلف هذه الساعات عن ساعاته هو .. الحافلة بالعمل !

★ ★ ★

◆ واستقرت فى مقعدها ، وأسندت ظهرها ، وقد وضعت احدى يديها على مقبض مظلة كانت تحملها ، بينما اراحت الاخرى على مسند المقعد . وكان

طولها ملفتا للنظر ، وقد زاد من ابرازه دقة خصرها وصغر رأسها البديع التكوين ، الذى استقر فوق جيد طويل رائع الجمال .. كان تكوينها كله يوحى بطيب منبتها وعلو اصلها .. فان أشد النساء حسنا من بنات الشعب ما كانت لتصاغ على هذا النحو !.. واذ تبين الدكتور ايزاكسون هذه الحقيقة ، شعر فجأة بأن من العسير أن يجمع بين المرأة الجالسة امامه وبين ما اشتهر عنها من مسلك شائن .. ولا ريب أن جسما كهذا ، ينطق برفعة أصله ، خليق بأن يأوى قدرا كبيرا من الكبرياء والترفع !.. ولكن خاطره اتجه الى الشبان الصغار

الذين كانت مسز تشبستو ترى معهم ٠٠ أكان ذلك ممكنا حقا ؟

والتقت عيناها بعينيه ، فرأى في وجهها تناقضا غامضا مع المعنى الذى يوحى به شكلها الخارجي ٠٠ أجل ، كان ذلك ممكنا حقا !٠٠ ومن عجب انه قبل ان يجد وقتا ليحدث نفسه بذلك ، الفى اسارير مسز تشبستو قد تبدلت بغتة وأضحت أكثر انطباقا على المعاني السامية التي كان جسمها يوحى بها ! فقال في نفسه : « يا لها من امراة بارعة ! »

وفي حركة سريعة جلس في مقعده ، منتصب الظهر ، يقظا ، دافق الحيوية ٠٠ وكان ضيقه قد تلاشى مع التعب الذى كابده في عمله اليومى ، وبدأ الاهتمام يسرى في عروقه ، اذ أدرك ان يومه لن ينتهى بسخف ممل ٠٠ ولم يكن الحدس الذى داخله - عندما جلس يتصفح مفكرة مواعيده في الصباح - مجانبا للصواب في التفكير ٠٠ وقال : « لقد جئت تستشيريننى في ٠٠ ؟ » ٠ فقالت مسز تشبستو ، في هدوء عجيب : « لست موقنة ان بى مرضا ! »

- نرجو أن يكون الأمر كذلك !

- أترانى أبدو مريضة ؟

- هل لك أن تستديرى قليلا نحو الضوء ؟

فلبثت ساكنة بلا حراك برهة ، ثم ضحكت وهى تقول : « لقد اعتدت ان أقول دائما ان المرء اذا جلس الى طبيب - بوصفه طبيبا - فلا ينبغى له قط ان ينظر اليه كرجل ! ولكن ٠٠٠ »

- ارجو الا تفكرى في شخصى كرجل !

- من سوء الحظ ان فيك شيئا يمنعنى البتة من ان اعتبرك مجرد آلة !٠٠ ولكن لا بأس !

وتحولت نحو الضوء ، وهى ترفع خمارها الشفاف وتميل نحوه ، ثم استطردت : « أترانى أبدو مريضة ؟ » ٠٠ فراح يحدق النظر اليها متفحصا في امعان شديد لا يخلو من القسوة ٠٠ وبدا له وجهها - في الضوء الساطع الذى كان يتدفق عليهما من النافذة الكبيرة التي جلسا الى جوارها - محتفظا بعناصر الجمال التي طالما تحدث الناس عنها وسمع العالم بها : كان وجه مسز تشبستو - كرأسها - صغيرا فاتنا ٠٠ ولم تكن ملامحها اغريقية خالصة ، ولكنها كانت تذكر المرء بكل ما هو اغريقى ، وبالمنظر الجانبي للتماثيل المرمرية التي ترى في المتاحف الهادئة !٠٠ وان من الأشياء ما يثير مرآها في القلوب - ذات الحساسية المرهفة - ذلك الحنين الغريب ، الذى يكاد يكون مؤلما ، نحو حياة سامية بكل ما فيها من جمال ومثالية في العيش والحب وبلوغ الآمال٠٠ وما يثير ، في أعماق النفس الخفية ، ذلك الخيال الذى يغفو أحيانا ولكنه يظل - في الواقع - زاخرا بالحياة ٠٠ هكذا كانت مسز تشبستو !٠٠ فان استدارة وجهها ، والجبين المنخفض الذى لاح كأنما صنعته يد مثال بارع ، وذلك الشعر

المتماوج الذى كان يحيط به ـ ولو انه ، وا أسفاه ، شعر مصبوغ فى براعة واتقان ـ كل هذه المعالم كانت تنطوى على فتنة جارفة ، وترسل فى صمت دعواتها المثيرة وكأنها تهتف : « هل من مجيب ؟! »

كانت خطوط وجهها أشبه بقسمات ربة الغابة عند الاغريق ، عندما تنظر الى وجهها وقد ظللته غشاوة رقيقة من الخضرة فى غابة سحرية ٠٠ أو قسمات وجه حورية البحر وهى تسبح فى بحيرة خفية فى ضوء القمر الساطع ٠٠ مع فارق واحد ، فان ربة الاغريق لم تكن تصبغ شفتيها بهذا الطلاء القرمزى القانى !٠٠ وما كانت حورية البحر لترسم تحت عينيها الضاحكتين هذه الظلال الداكنـة ، أو تخط فوقهما الخطين الفنيين الرفيعين !٠٠ كما ان ذلك الـكلال الذى بدا حول هاتين الوجنتين وعند ركنى هذا الفم ، ما كان ليوحى بدنيـا مبكرة ، ولا بالحوريات والآلهة فى ربيع الخليقة ، وانما كان يوحى بحيـاة تثير الألم فى نفس رجل الأخـلاق ، وتبعث اليأس فى نفس عابد الأصنام التقى !٠٠ كان يناقض المثالية فى وجه مسز تشبستو ـ بما يشبه التحدى ـ شىء ما فى كيانها ٠٠ شىء من العسير ان نعينه على وجه التحديد !٠٠ لعله كان فى تلك الغضون الخفيفة على جانبى عينيها الواسعتين ، الزرقاوين ، اللتين ما زال بريقهما يخطف الأبصار ٠٠ أو فى ذلك البروز الواضح فى عظام وجنتيها ٠٠ أو فى هذا الارتخاء الطفيف لشفتيها ، الذى ينم عن مزيج من العاطفة الجياشة والشراسة الكامنة ٠٠ كذلك كان فيها شىء ما ينم عن الصلابة !

وكانت النضرة قد فارقت وجهها ، ولكن ذلك لم يكن بسبب السن ٠٠ فكم من نسوة تقدمت بهن السن نحو الشيخوخة ، ولكن وجوههن ظلت ـ مع ذلك ـ تحتفظ بنضرة وجوه الفتيات ، يزينها ذلك السحر العطرى المنبعث من الحياة الطاهرة ٠٠ وما من شك فى ان مسز تشبستو لم تكن تبدو متقدمة فى السن ، ومع ذلك فانها كانت تبدو خلوا من الشباب ومن تلك الطلاوة التى زانتهـا يوما وهى عذراء !٠٠ لم تكن مسز تشبستو تبدو شابة ، أو عجـوزا ، أو نصفا ، على وجه التحديد ٠٠ ولكنها كانت امرأة سلكت الكثير من التجارب فى سلسلة حياتها ٠ ومع ذلك فقد كانت ـ فى بعض صورها ـ تثير التفكير ، بل الرغبة فى أشياء مثالية ٠٠ أشياء بعيدة غاية البعد عن كل ما هو خسيس ، أو قبيح ، أو حيوانى ، أو بشع !٠٠ وكانت لمحة الكبرياء أو الاعتزاز بالنفس ـ التى رآها الدكتـور ايزاكسون تولد على محياها كأنها الجواب على فـكرته السيئة عنها ! ـ ما برحت مرتسمة على ذلك الوجه الذى كان يستقبل الضوء ٠٠ وأدرك الطبيب ان فى تلك المرأة كثيرا من قوة الارادة ، وربما الكثير من الدهاء والمكر ٠٠ وانها فوق هذا وذاك ، أستاذة بارعة فى قراءة أفكار الرجال !

وبعد دقيقـة من الصمت ، انبعثت تقول : « حسـنا ٠٠ ما الذى انتهيت اليه ؟ » ٠٠ وكان صوتها على قدر عظيم من الجاذبية ٠٠ لم يكن ناعما رخيما ،

ولكنه كان ينطوى على رخاوة ملؤها الاغراء ٠٠ كان صـوتا ينبىء عن مخلوقة تجمع بين الحرارة والتراخى ٠٠ مخلوقة قد تترك أشياء كثيرة للحظوالمصادفة ، ولكنها لا تلبث أن تنقض فى لحظة واحدة على ما تلقيه المصادفة فى طريقها ، فتمسك به فى قبضتها القوية وتظل متشبثة به طالما شاءت !

وأجاب الطبيب : « أرجو أن تحـدثينى عن الأعراض التى تحسينها » ٠ فقالت : « ولكن خبرنى أولا ٠٠ هل ترانى أبدو مريضة ؟ » ٠٠ وحدجته ـ اذ قالت ذلك ـ بنظرات ثابتة غريبة ٠٠ وما ان التقت عينا الطبيب بعينيها حتى ومضت فى ذهنه فكرة خاطفة كومضة البرق ، جعلته يتساءل فى أعماق نفسه : « ترى ماهو السبب الحقيقى الذى دفع هذه المراة الى الحضور الى ؟ » ٠٠ فقد خيل اليه ان بوسعه ان يستشف دافعا خفيا كان يتوارى فى أغوار عقلها الذكى ، وان يلمح من هذا الدافع بارقا سريعا قبل أن يغوص ثانية فى اطواء الغموض الشامل ٠٠ ومن ثم راح يقول فى بطء : « ان بعضا من الامراض تترك طابعا لا يخطئه الفهم فى وجوه أولئك الذين يقاسونها »

ـ وهل تبينت واحدا منها فى وجهى ؟

ـ كلا ٠٠

وتحركت قليلا ، كأنما تسوى نفسها فى وضع أكثر راحة لها فى مقعدها ، فسألها وهو يمد يده نحوها : « أتحبين ان اريحك من هذه المظلة ؟ »

ـ لا ، شكرا ٠٠ فانى أحب أن أظل ممسكة بها ٠٠

ـ أخشى انك ينبغى أن تخبرينى بالأعراض التى تحسين بها !

ـ اننى أشعر بتوعك عام ٠٠

ـ أهو توعك جسمانى ؟

فأجابت فيما يشبه الحدة : « ولم لا ؟ » ٠٠ ولكنها ما لبثت ان ابتسمت ، وكأنها ترثى لما بدر منها من حـدة ، وأردفت تقول : « ليس بوسعى القـول بأنى أعانى ألما جسمانيا محددا ٠٠ ولكن المرء مع ذلك يمكنه أن يحس بأنه ليس على ما يرام ! »

ـ لعل جهازك العصبى غير منتظم ؟

ـ أحسبك تستقبل كل يوم كثيرا من النساء الحمقاوات اللواتى يجـأرن بالشكوى ، دون أن يكون بهن ظل من المرض ؟

ـ ما ينبغى ان تسألينى ان انتقد مرضاى ٠٠ ثم ان النسـاء لسن وحدهن اللواتى يبلغن من الحمق هذا المبلغ !

وكان يفكر فى السير هنرى جريب بالوصفة التى اشار عليه بها ٠٠ واستطرد قائلا : « يحسن ان افحصك أولا ، وبعدئذ يمكننى ان أخـبرك بالمزيد عن حالتك » ٠٠ وفيما كان يتكلم ، أحس كما لو كانت هى التى تفحصه ! وما حدث له قط من قبل ان أحس بهذا الشعور العجيب مع أحد مرضاه ٠ وقالت المرأة:

« آه ، كلا .. لست أود ان تفحصنى ، فانى أعلم أن قلبى ورئتى وما الى ذلك كلها سليمة بما فيه الكفاية ! »

– مهما يكن من أمر فدعينى أتحسس نبضك ..

– و ترى لسانى ؟.. أليس كذلك ؟

واستضحكت .. ولكنها نزعت قفازها ومدت اليه يدها ، فوضع اصابعه فوق رسغها ، وراح ينظر الى ساعته .. كانت بشرتها رطبة ناعمة ، ونبضها يخفق فى قوة وانتظام .. وانبعثت منها خلال أصابعه – فى تلك اللمسة الرفيقة – رسالة تنبىء عن قوة العزيمة ، وضبط النفس ، والصلابة ، بل والميل الى القتال !.. وكان وهو يتحسس نبضها قد ادرك ما فى طبيعتها من تحد للحياة .. وما لبث ان ترك يدها وهو يقول : « ان نبضك سليم تماما » . وخيل اليه انه فى خلال تلك الفترة القصيرة ، التى لمس فيها جسمها ، قد علم الكثير عنها !

وهى ؟.. ترى ماذا يكون مدى ما عرفته عنه ؟.. والفى نفسه يتساءل بطريقة لا تليق بطبيب ، اذ اندفع يقول : « مسز تشيستو .. شد ما اود ان تتفضلى فتخبرينى عما دفعك الى الحضور الى هنا اليوم . اذا كنت لا تحسين بمرض ، فما حاجتك الى طبيب تضيعين وقتك معه ؟ اننى على يقين من انك لست بالمرأة التى تجرى بحثا وراء ما تملكه حقا ! »

– هل تعنى الصحة ؟ ولكننى فى الواقع لا احس بنفسى كما اعتدت ان أكون من قبل .. لقد كنت فيما مضى امرأة شديدة القوة ، بل كنت من القوة بحيث كنت أشعر أننى بمنجاة من التعاسة .. التعاسة الحقة !.. واحسب ان شوبنهاور كان على حق ، فان المرء فى عنفوان صحته يسمو فوق ما يدعونه بالخطوب .. ولقد لقيت كما تعلم الكثير منها !

فتساءل : « أحقا ؟ » .. وأجابت : «انك لتعلم ذلك ولابد!» . فقال :«أجل»

– وما كنت فى الواقع أهتم لها أو اكترث بها كثيرا .. وحتى عندما اصبت بما أحسب ان بعض كرام الناس كانوا يدعونه « دمارى » ، أى ما جرى بعد طلاقى ، فاننى ظللت قادرة على الاستمتاع بالحياة وما فيها من مباهج .. من طعام وشراب ، وسياحة ، ورحلات على اليخوت ، وركوب الخيل ، وقيادة السيارات ، وغشيان المسارح ، والمقامرة ... كل هذه الأشياء وما اليها . فالناس الذين يسىء المجتمع الحكم عليهم ، أو يرثى لحالهم ، غالبا ما يقضون اوقاتا سعيدة هانئة ، كما تعلم !

– أجل .. وبالمثل فان أولئك الذين يحسدهم المجتمع غالبا ما يكونون تعساء أشقياء !

– تماما . ولكنى فى الآونة الأخيرة بدأت أحس باننى ... حسنا .. بان حالتى قد تغيرت

ـ من اية ناحية بالضبط ؟
ـ لقد انتابنى الشعور بأن صحتى لم تعد من القوة بحيث تقينى ما يمكن ان أدعوه بالسأم ٠٠
فقال وقد بدأ يهتم : « نعم ؟! » ٠ فأجابت مستطردة : « أو على الأصح الهبوط ٠٠ بل هى الكآبة فى الواقع ! ٠٠ والآن ، فانى لا أريد ، بل اننى ـ بكل بساطة ـ لن أكون ضحية لهذا الهبوط ، كما يحدث للكثير من النساء ! ٠٠ أليس فى وسعك أن تدرك كيف تعانى النساء ـ أى الكثيرات منهن ـ شر هذا الهبوط فى أعماق نفوسهن عندما يبدأن يدركن أنهن لن يبقين الى الأبد فى عنفوان الشباب ؟ »
ـ اننى أدرك ذلك تماما
ـ اننى لن أكون ضحية هذا الهبوط ، فانه يقضى على هيئة الانسان ويدمر قواه ٠٠ وأنا الآن فى الثامنة والثلاثين !
والتقت عيناها الزرقاوان الواسعتان بعينى الطبيب فى ثبات ، فتساءل : « نعم ؟ » ٠ ولكنها لم تحفل بتساؤله ، بل استطردت : « وذلك لا يعد شيئا مذكورا فى انجلترا الآن ٠٠ ففى انجلترا ، اذا كانت المرأة فى صحة كاملة ، فانها تظل تبدو ساحرة جذابة حتى تبلغ الخمسين على الاقل ، وربما بعد ذلك ٠٠ ولكن ، لكى يبدو المرء شابا ، بينما العمر يتقدم به ، لا بد له من ان يحس بالشباب ٠٠ وأنا الآن لم أعد أشعر بالشباب ، كما انى على يقين من ان الشعور بالشباب يتوقف على صحة البدن ٠٠ ولا بد ان المتصوفين، وأولئك الذين يؤمنون بالتناسخ ، أو الارتفاع الى السماء ، أو خلود الروح، وكذلك أصحاب المثل العليا ٠٠٠ كل أولئك سوف يصيحون فى وجهى بأننى مخلوقة مادية وضيعة !٠٠ ولكنك طبيب ، وتدرك سلطان البدن ٠٠ ألست على حق فيما أقول ؟٠٠ أليس كل ما يشعر به المرء ينشأ عن خلايا جسمه ، أو كيفما شئت أن تسميها ؟٠٠ أليس ذلك كله ترجيعا للحن الذى تردده ذرات الانسان ؟ »
ـ لا ريب ان حالة البدن تؤثر فى حالة العقل !
فهتفت : « تالله ما اشد حذرك ! » ٠٠ وتلاعبت على شفتيها القانيتين ابتسامة لا تخلو من الازدراء ، ثم استطردت : « والواقع انك ينبغى أن تكون على خلاف دائم مع القساوسة ، وعلماء الدين المسيحى ، وكل أولئك الهوائيين والذين يخدعون أنفسهم فيضعون الروح فوق المادة ، أو يزعمون ان الروح مستقلة عن المادة !٠٠ ولقد كنت اقرأ اخيرا عن الأبحاث التى تجرى فى علم الطب النفسى بواسطة اجهزة التنفس وغيرها من الأجهزة الكهربائية الحديثة » ٠٠ وتوقفت بغتة كأنما تستدرك انسياقها فى الحديث ، ثم قالت : « ولكن هذا خارج عن الموضوع ٠٠ وقد بينت لك ما اعنيه ، وما اعتقده ،

وهو ان الصحة تتغلب على كل شيء تقريبا »
- يبدو انك شديدة الاقتناع ، بل شديدة التعلق ، بمذهب المادية !
- وأنت ؟
- اننى اعتقد انه لا يزال فى الانسان - رغم ما يكشف عنه العلم يوما بعد يوم - خفايا وأسرار بالغة العمق مستغلقة على الفهم ..
- وهل هذا يشمل النساء ايضا ؟
- يا الهى ! نعم بلا ريب . ولكن فلنعد الى حالتك ..
فنظرت الى ساعة يدها ، وهى تقول : « آه !.. ان عملك اليومى ينتهى فى ... »
- فى الساعة السادسة ، كقاعدة عامة
- لا ينبغى اذن أن أحجزك طويلا ، والحقيقة هى هـذه : اننى أفقد شيئا فشيئا الشعور بمتعة الحياة .. ولأننى أفقد استمتاعى بها ، فانى أفقد معها سيطرتى على الحياة .. لقد بدأت أشعر بالكلال ، والكآبة ، بل الخـوف والتوجس احيانا !
- من اى شيء ؟
- أحسبنى أخشى من الكهولة ، والنهاية المحتومة لكل الأشياء الجميلة !
- وتريدين أن أصف لك شيئا يشفى هذه الكآبة ؟
- ولم لا ؟.. ولأى شيء وجد الطبيب اذن ؟! اننى ما زلت اقول لك اننى على يقين من ان هذه الأحاسيس عندى منشؤها حالة جسمانية !
- وهل تظنين ان من المحال ان تكون ناشئة عن حالة روحية ؟
- تماما .. فأنا اعتقد ان كل شيء سوف ينتهى فى اليوم الذى يموت المرء فيه .. وأنا واثقة من ذلك ثقتى بأننى امرأة !.. ومتى كانت هـذه عقيدتى ، فانى أرى من الأهمية القصوى ان استمتع بأيامى طالما كنت فى هذه الدنيا !
قال : « هذا طبيعى » .. فأردفت : « والآن ، فان استمتاع المرأة بالحياة يتوقف على قوة نفوذها وسيطرتها على الآخرين ، كما ان هذه القوة تتوقف على استمرار ثقتها فى نفسها .. وطالمـا كانت تحس بصحتها كاملة ، فهى تشعر بأنها فى عنفوان الشباب .. وطالما كانت تحس بالشباب ، ففى وسعها ان توحى للآخرين بأنها ما زالت شـابة .. مع الاستعانة بقدر ضئيل من الفن ! وما دامت قادرة على الايحاء بهذا الشعور - وأنا أتكلم طبعا عن المرأة التى يمكن ان يقال عنها انها على درجة من الجاذبية - فهى بخير وعافية ، ومن ثم فسوف تزداد ثقتها بنفسها ، وتستمتع بأيامهـا !.. والآن يا دكتور ايزاكسون ، تذكر اننى أعتبر ان كل ما يقال عن الأمور الشخصية لطبيب فى مثل مكانتك .. كل ما أخبرتك به اليوم .. سر لا يفشى ! »

ـ لا ريب فى ذلك ..

ـ لقد شعرت أخيرا أن ثقتى بنفسى قد .. حسنا .. قد تزعزعت ! وانى اعزو ذلك الى بعض الخلل فى صحتى ، ولهـذا جئت اليك اليوم ، وعليك أن تكتشف ما قد يكون فى حالتى الجسمانية من نقص ..

ـ حسنا جدا .. ولكن يتبغى ان تدعينى أفحصك ، كما ينبغى ان ألقى عليك بعض الأسئلة الطبية البحتة ، التى يجب أن تجيبى عليها فى صـــدق وصراحة ..

قالت : « على رسلك يا سيدى ! » .. ثم وضعت مظلتها على الأرض بجانبها واستطردت تقول : « اننى لا أومن بالمداورة .. مع طبيب ! »

الفصل الثالث

◆ **غادرت** مسز تشبستو منزل ميدان (كليفلاند) والساعة تدق السابعة ، فاستقلت احدى سيارات الأجرة ، التى سرعان ما اختفت بها وسط الدوامة التى تجتاح شارع (سان جيمس)، بينما صعد الدكتور ماير ايزاكسون الى حجرة نومه ليرتاح قليلا ويرتدى ثياب العشاء !.. وكانت ثيــابه قد أعدت فى عناية ، فسمح لخادمه بالانصراف . وماكاد الرجل يمضى لشأنه حتى خلع الطبيب سترته وصديريه ، ونزع ياقته ورباط رقبته، ثم جلس فى مقعد ذى مسندين ـ بجانب النافذة المفتوحة ـ

وأسند رأسه الى وسادة صغيرة ، وأغمض عينيه ، ثم أطلق عضلاته كلها لتسترخى ٠٠ وكان يفعل ذلك زهاء عشر دقائق أو ربع ساعة ، فى مثل هذا الوقت أحيانا ـ وفى غيره أحيانا أخرى ـ من كل يوم ٠٠ وبينما تسترخى عضلاته على حريتها ، كان يترك عقله يسترخى هو الآخر ، فينبذ كل تفكير ، بجهد من قوة الارادة ٠ وكان كثيرا ما يفعل ذلك ، حتى أصبح يفعله عادة دون مشقة ٠٠ ومع أنه لم يكن ينام اثناء النهار قط ، الا انه كان يفيق من هذه الراحة منتعشا وكأنه قضى ساعتين نائما !٠٠ أما اليوم ، فمع أنه استطاع السيطرة على جسمه ، الا أن عقله كان عنيدا ، فلم يستطع أن يقصى عنه تلك الأفكار القلقة ٠٠ بل لقد خيل اليه ـ فى الواقع ـ ان جميع حواسه قد تركزت فى هذا العقل ، بينما كان يجلس بلا حراك ، وقد بدا كالجثة الهامدة ، وامتدت ساقاه أمامه ، وتخاذلت ذراعاه وتدلى فكه ٠٠ **فقد كانت مريضته الأخيرة تصارع رغبته فى الراحة الكاملة ، وتتحدى ارادته ٠٠ ثم تقهرها !**

فقد قال لها ، بعد أن فرغ من فحصها ، ومن الأسئلة التى ألقاها عليها : «ليس بك من شىء ! » ٠٠ وهى عبارة عادية ، ولكنه أحس ـ وهو ينطق بها ـ بشىء يهتف فى قرارة نفسه : « يالك من كاذب ! »٠٠صحيح ان المرأة لم تكن تعانى أى مرض جسمانى ، ولـــكن قوله لهـا « ليس بك من شىء ! » ، كان بمثابة الادلاء لها بأكذوبة صارخة ٠ ومن ثم فانه سرعان ما اردف مفسرا : « مما يمكن للطبيب أن يعالجه ! »

وخيل اليه ـ فى استرخاءته تلك ـ ان بوسعه ان يتمثل وجهها كما بدا له للحظة وجيزة بعد ان قال ذلك ٠٠ كان شعرها البديع مصبوغا بلون عجيب ٠٠ فقد كان بطبيعته ذا لون خفيف الدكنة ، ولكن الصبغة أحالته الى لون باهت ، لا هو بالفضى ولا هو بالذهبى ، مما اضفى على وجهها شحوبا عجيبا لم يكن من الجمال فى شىء وان ادى الى ابراز ما كان لعينيها من تألق

وهاج وسط الظلال التى رسمت حولهما ، وتحت الحاجبين المخضوبين ٠٠ وكان الفضل فى هذا المظهر للفنان الذى أحسن اداء مهمته ! وبدا واضحا ان مسز تشبستو كانت تعول كثيرا على سحر هذا الشحوب الغريب ، الذى كاد ينم عن فقر فى الدم ، والذى كان يبرز العينين والشفتين والحاجبين حتى تجتذب الأنظار وتثير الانتباه وتستأثر به ٠٠ **فقد كان فى هذا الشحوب ، وفى هذا البياض الهادىء ، ما يحرك العواطف ويثير الشجن ــ فى نفس المتأمل الذى ينقصه الذكاء المتقد ! ــ وما يساعد على استكمال الأثر الذى يكون وجه المرأة الجميل قد بدأ يحدثه فى نفس المتأمل !**

وما كان أشبه ذلك الوجه بعلامة استفهام بديعة ، عندما فرغ الدكتور ماير ايزاكسون من كلامه ٠٠ وسرعان ما انفلت السؤال خلال الشفتين القرمزيتين : « ألا يوجد مطلقا نوع من التوعك الجسدى يوحى بمثل هذه الكآبة ؟٠٠ لعلك ترى اننى أتكلم عن حالة طبية ! » ٠٠ فأجاب : « كلا ، البتة ٠٠ بل انك غير مصابة بداء النقرس ، مع ان ثلاثة ارباع مرضاى ــ على الأقل ــ يشكون من هذا الداء الى حد ما ! » ٠٠ فقطبت مسز تشبستو حاجبيها ، وقالت : « اذن ، فبماذا تنصحنى ؟ ٠٠ أأذهب الى أحد القساوسة ؟ أم ترى من واجبى أن أذهب الى أحد الفلاسفة ؟ أم تنصح لى بزيارة معبد من معابد العلوم المسيحية ؟٠٠ لعلك ترى ان جرعة من « علم اللاهوت الحديث» قد تفيدنى كل الفائدة ؟ »٠٠ وكانت تتكلم فى تهكم وسخرية، ومع ذلك فقد شعر الدكتور أيزاكسون بأنه يسمع صوتا بعيدا خافتا وراء هذا التهكم ، ينم عن يأس الشخص المادى الذى يرى ــ فى لحظات معينة ــ جميع مسارب الأمل مسدودة فى وجهه ، فى غير شفقة أو رحمة ٠٠ ومن ثم راح ينظر الى مسز تشبستو ، وفى عينيه بارق من الرثاء والاشفاق ، وهو يجيب: « وكيف لى ان أنصحك ؟ »

ـ نعم ٠٠ كيف يمكن لك ذلك حقا ؟٠٠ ومع هذا،وهناموضع العجب ، فانك تبدو كما لو كنت تستطيع ذلك !

ـ اذا كنت حقيقة تؤمنين بالمادية ، وتنكرين وجود الخالق ٠٠

ـ اننى كذلك تماما !

ـ حسنا ، فلن يجديك اذن ان أنصح لك بالذهاب الى أحد القساوسة أو زيارة أحد المعابد المسيحية !٠٠ كل ما أستطيع ان أقوله لك هو ان شكواك لا ترجع الى علة من علل البدن !

ـ أهى اذن من علل الروح ؟٠٠ هذا أمر مزعج ، فاننى فى الواقع لا أومن بالروح ، وانما أومن أشد الايمان بالجسد !

ـ شد ما أعجب مما تعنينه تماما عندما تقولين انك لا تؤمنين بالروح ؟

ـ أعنى أننى لا أومن بأنه يوجد فى البشر شىء يمكن أن يعيش مالم يكن الجسد على قيد الحياة ٠٠ شىء لا يموت فى الوقت الذى يموت فيه الجسد ٠٠ وما من شك فى وجود ذلك الشىء الذى نسميه «ملكة العقل» ، او الموهبة العقلية ٠٠ ذلك الشىء الذى يميل وينفر ، ويحب ويبغض ، وما الى ذلك ٠٠

ـ وهلا يمكن لهذا الشىء ان يحس بالانقباض من الكوارث؟!

ـ اننى لم أقل اننى لقيت شيئا من الكوارث !

ـ كذلك انا لم أقل شيئا من ذلك ٠٠ فلنضع الأمر بصيغة أخرى : ألا يمكن لهذا الشىء ان يحس بالانقباض ؟

ـ الى حد ما ، بلا شك !٠٠ ولكنك متى حفظت بدنك فى صحة كاملة ، فانك تغدو بلا ريب محصنا ضد الانقباض الشامل ٠٠ وأنا اعتقد انك محصن تماما !٠٠ ودعنى أقل لك فى صراحة يا دكتور ايزاكسون اننى لا أحسبك مصيبا ٠٠ فانى واثقة من أن شيئا فى جسمى ليس على ما يرام ٠٠ لا بد ان يكون هناك ضغط على جزء ما ، أو اضطراب خفى فى الأعصاب ٠٠ هناك بلا ريب خلل جوهرى فى جسمى !

ـ جربى طبيبا آخر !٠٠ جربى اخصائيا فى الأعصاب ،

أو منوما مغناطيسيا اذا شئت ·· اذهبى الى «هينتون موريس» او «سكالينجر» أو «باول برنهام» ·· أما أنا فأخشى ان أكون عاجزا عن معونتك !

فقالت : « هذا ما يبدو لى ! » ·· ثم نهضت فى بطء ، وما زالت حركاتها متكاسلة متراخية ، ولكنها دواما مليئة بالفتنة والسحر المنبعثين من شخصيتها الفذة · واستطردت تقول : « تذكر أننى حدثتك فى صراحة تامة بصفتك طبيبا »

ـ اننى أنسى كل ما أسمعه فى هذه الحجرة عندما أغادرها !

فتساءلت فى لهجة متراخية : « أحقا ؟! » · فأجاب فى اقتضاب : « مهما يكن من أمر فاننى أنسى ان أتحدث عنه »·· واذ ذاك قالت : « اذن ، فالى اللقاء ! »

★ ★ ★

◆ **وخلفته** وهو يحس احساسا مبهما بأنها تعانى ذلك القنوط الذى ينشأ عن الجشع ، والمادية الحادة التى لا يمكن أن تتصور ـ حتى فى العقل الباطن ـ وجود آمال أخرى غير الآمال المادية البحتة !·· ولكن ، ما الذى يمكن لامرأة مثلها ان تتطلع اليه فى تلك الحقبة من حياتها ؟

ذلك ما شغل فكر الدكتور أيزاكسون بعد انصرافها ·· وكان قد ظل مسترخيا فى مقعده بلا حراك ، بعد أن تخلى عن محاولة السيطرة على عقله ·· لقد أدرك ان عقله لن يسترخى اليوم مع أطرافه وعضلاته ، ومن ثم لم يعد يشتهى تلك الراحة التى اعتادها ، وفضل عليها أن يمعن فى التفكير فى ·· مسز تشبسنو !·· لقد كان لهذه المرأة تأثير بالغ القوة فيه !·· واخذ يستعيد ذكرى تلك النظرة التى لاحت فى عينيها عندما كانت تقول انها فى الثامنة والثلاثين من العمر ·· لقد خيل اليه انها بتلك النظرة انما كانت تأمره بأن يصدقها ! ولكنه لم يصدقها ، مع انه لم تكن لديه أقل فكرة عما يمكن ان يكون

عمرها الحقيقى ٠٠ كان يعلم فقط أنهـا ليست فى الثامنة والثلاثين !٠٠ **وكم كانت شديدة الاصرار على ان لا تتألم ولا تحزن ، وعلى أن تمضى فى حياتها ـ تلك الحياة الوحيدة فى اعتقادها ! ـ خلوا من الهموم والكروب ٠٠ ومع ذلك فانها كانت تقاسى هذا الألم !** وكان بوسعه ان يحدس السبب ، فما كان ذلك عسيرا عليه ٠٠ انها الآن فى مفترق الطرق ، وقد ولت عنها أيام العز والبهجة ، وغاضت عنها سيول العيش الهنىء ، دون ان يكون لديها ما تتعلق به او تحتمى فيه ، وهى المرأة البارعة الأريبة !

ولكن لماذا كان يحسبها بارعة ذكية ؟٠٠ لقد سأل نفسه هذا السؤال ، لأنه لم يكن بالرجل الذى يشهد لامرىء بالبراعة اعتباطا ، فضلا عن ان مسز تشبستو لم تقل شيئا ينم عن ذكاء وقاد !٠٠ ولقد كانت فى اعتناقها للمادية قصيرة النظر ، ان لم تكن عمياء ٠٠ كما أنها قد لوثت حياتها وجعلت منها خليطا من المهانة والضعة !٠٠ ومع ذلك كله فقد كان يعلم علم اليقين انها امرأة بارعة ٠٠ ثم انها كانت صريحة معه غاية الصراحة ، فلماذا كانت صريحة الى هذا الحد ؟

وسأل نفسه عن ذلك اكثر من مرة ، بل ان عقله كان مليئا بالأسئلة فى ذلك اليوم ٠٠ وهى اسئلة لم يكن فى وسعه ان يجد لها جوابا للتو !٠٠ ولكنه كان يحس بأن مسز تشبستو كانت ، فى كل ماقالته له ، منساقة نحو هدف معين واضح المعالم ٠ **ولقد تركت فى نفسه أثرا بأنها امرأة ذات أهداف ، وذات مكر ودهاء ، فلم يستطع التخلص من اقتناعه بأنها حين سعت الى التعرف به ، انما كان يحركها سبب خفى دفين ٠٠ سبب لا علاقة له البتة بصحتها !٠٠ ولقد آمن بأنهـا كانت صادقة الرغبة فى معونته كطبيب ، ولكن ما من ريب فى ان ذلك لم يكن غرضها الوحيد من القدوم الى ميدان (كليفلاند)٠٠**

ودقت الساعة الموضوعة على المدفأة مؤذنة بانتهاء الوقت

المحدد لراحته ، فأغلق فمه دفعة واحدة ، وشد عضلاته فى قوة ، واندفع قائما عن مقعده • وبعد عشر دقائق كان يحظى بحمام بارد •• وبعد نصف ساعة كان قد ارتدى ثياب العشاء، ومضى يهبط الدرج فى خطوات خفيفة سريعة شأن الرجل الذى يستمتع بصحة طيبة وروح مرحة وثابة ، وقد تلاشى عنه ذلك الانقباض العارض الذى ألم به اثر زيارة مريضته الأخيرة ، وغدا فى حال تتيح له الاستمتاع بسهرته ، بعد هذا العناء !

* * *

• **وكان** مدعوا الى العشاء فى (تشارلس ستريت) بميدان (بيركلى) ، على مائدة الليدى سومرسون ، وهى أرملة مضيافة على الدوام لأنها لم تكن تطيق الوحدة ! وكانت فى تلك الليلة قد أقامت مأدبة حافلة ، فلما دلف الدكتور أيزاكسون الى القاعة الكبيرة بالطابق الأرضى ، حيث كانت الليدى سومرسون تستقبل ضيوفها قبل العشاء ، وجدها ترتدى ثوبا أسود مشربا بالحمرة ، وقد رجلت شعرها الذى وخطه الشيب ، وراحت تدير الحديث بين جمع من الشخصيات المبرزة الهامة ، التى كان معظمها بعيد العهد ببواكير الشباب •• ولكنها كانت من المكانة والجاه بحيث لم تعد تبالى بالعمر الذى بلغته • وكانت الليلة ليلة الأربعاء ، وقد اتخذ الحديث طابعا سياسيا •• غير أنه كان بين الرجال اثنان من العسكريين ، وبين النساء حسناء معروفة ، قليلة الاكتراث بأحاديث السياسة ، شديدة الاهتمام بالحديث الطلى والثرثرة المسلية !•• وكانت تعد احدى ربات الجمال اللواتى يبسطن نفوذهن فى العاصمة ، بفضل ما جبلت عليه لندن من الوفاء الغريزى لحسانها — من ناحية — ولأنهن من ناحية أخرى يمتزن بسعة الأفق والميل الى المرح ، والبعد عن الغرور والادعاء •• وكان اسم هذه الحسناء مسز درنجهام ، وعمرها نحو الثامنة والأربعين •• ولم تكن تضع شيئا من الطلاء على وجهها ، ولا تحاول أن تبدو أصغر من حقيقتها ••

كما انها كانت ـ بنشاطها وحيويتها ، وخلوها من الغضون والتجاعيد ، وبعدها عن الزهو والغرور ـ لا تمنع أحدا أو تشجعه على التفكير فى حقيقة سنها ، وانما كانت تجذب الناس بجمال صورتها وخفة روحها وحبها للحياة واستعدادها للاستمتاع بالساعة الراهنة !

وكان الدكتور أيزاكسون يعرفها جيدا . واذ راح يهزيدها مصافحا ، سرح فكره الى مسز تشبستو ، ومذهب «المادية» الذى تعتنقه .. لقد كانت هذه المرأة ـ مسز درنجهام ـ تعرف على وجه التحقيق كيف تستمتع بأطيب مافى الحياة من أشياء ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحظى بما يصرفها عن الأنانية والأثرة .. كان لها زوجها وأطفالها ، وأتباعها ، وأعمال البر التى كانت تساهم فيها .. كانت قد غرست جذورا عميقة فى تربة الانسانية الخصبة التى تؤتى ثمارها !.. **أما مثيلات مسز تشبستو ـ من النساء ـ فلا يغرسن اية جذور فى أية تربة !.. أفيكون غريبا بعد ذلك أن يتعرضن للأيام ـ والليالى ـ التي يسرى فيها الكلال الى أرواحهن ؟ وهل يكون غريبا بعد ذلك أن يسم هذا الكلال جمالهن بميسمه المدمر ؟!**

وفتح الباب ليفسح الطريق أمام آخر المدعوين الى المأدبة .. وكان هذا المدعو رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، أبيض اللون ، ذا شعر أشقر قصير مفروق عند الوسط ، ورأس جميل التكوين ، وأنف مستقيم غير مدبب ، وذقن بارزة ولكنها لا تنم عن العناد ، وفم شديد الحساسية ، وعينين زرقاوين واسعتين تفيضان بالاخلاص والحماس ، يعلوهما حاجبان أشقران يبدوان دائما وكأنهما نسقا بالفرشاة لتوهما .. وكان يزين شفته العليا بشارب صغير كث .. كما كانت جبهته ووجنتاه تبدو وقد لوحتها الشمس بسمرة خفيفة . وكان فى السادسة والثلاثين ، ولكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير ، بسبب بياضه الناصع .. أما جسمه فكان قوى العضلات ، منتصب

القوام ، معتدل الظهر ، نحيل الخصر ٠٠ وكانت يداه قويتين ، سمراوين ، كبيرتى الأصابع فى غير غلظة ٠ أما وجهه فكانت تكسوه اشراقة خاصة من الاستقامة والبهاء ، تذكر المرء بالأقاليم الشمالية وكل ما يمت الى الشمال بصلة : بريق النجوم فوق الثلوج ، وقمم الجبال الباردة وقد مسحتها رياح نقية طاهرة ، وشذى غابات الصنوبر العذب !٠٠ كان الرجل ــ فى هيئته وتكوينه ومظهره ــ أشبه بأحد أبطال الأساطير الشماليين ٠٠ ولكن من المحقق انه كان بطلا من الشمال أقام فى الآونة الأخيرة فى بلاد الجنوب ، وارتاح الى اقامته فيها !

وما ان رأت الليدى سومرسون القادم الجديد حتى اندفعت نحوه تعاتبه على تأخيره ، ثم قدمته الى السيدة التى كان عليه ان يرافقها الى المائدة ٠ وما لبثت ان اندفعت ــ كالمحمومة ــ فى نشاط ورشاقة تشير الى ضيوفها بأن يتقدموا الى قاعة المائدة التى فتح بابها فى تلك اللحظة ، اذ تولى خادمان نشيطان سحب المصراعين المنزلقين اللذين كانا يفصلان القاعة عن الحجرة التى استقبلت فيها السيدة ضيوفها ٠ وغمغمت مسز درنجهام تقول لزميلها الدكتور أيزاكسون ــ وهما يتخذان مجلسيهما الى المائدة الطويلة : « ان مضيفتنا لا تستطيع اخفاء مشاعرها! من هذا الرجل الذى كانت تعنفه بهذه الحرارة ؟٠٠ اننى أذكر وجهه تماما » ٠٠ فقال : « انه واحد من خيرة الرجال فى العالم! ٠٠ انه نيجل أرماين ٠٠ لم أره الا الليلة منذ أكتوبر الماضى ، اذ كان فى الخارج ٠٠ فى مصر ! » ٠٠ وفى تلك اللحظة التقت عيناه بعينى الرجل ذى البشرة الناصعة البياض ، فتعانقت نظراتهما فى ود وصداقة ، بينما قالت مسز درنجهام :

ــ اننى أذكره طبعا ، فهو يبدو كالفارس التائه ٠٠ وكذلك كان أبوه هارويتش المسكين! لقد اعتدت ان أمثل مع هارويتش فى أيام الشباب وعدم المبالاة المبكرة ، فى قصر برنهام ، ولكن المرء لا يرى نيجل الآن الا نادرا ، ولا أحسب انه كان يوما

من الأيام مولعا حقا بلندن ، ومباهج الحياة ٠٠ ولكن هارويتش كان على النقيض بلا ريب ، ومع ذلك فقد كانت تلوح فى وجهه لمحة من الشعور بالغربة والنفور من الدنيويات ! وقد اعتدت ان أقول ان له عينى قطيطة صغيرة ٠٠ يا للمسكين ! شد ما كان يثق فى النساء !

ـ وهلا تثقين أنت فى النساء ؟

ـ النساء كجنس ؟٠٠ كلا !٠٠ ولو اننى أثق فى القليلات منهن لأشخاصهن ٠٠ أما هارويتش فكان يثق فى النســـاء لأنهن نساء ، وهذا دائما خطأ جسيم ! كان يثق فيهن كما يثق الكاثوليكى المتدين فى القديسين ٠٠ وتا لله لقد لقى جزاءه على ذلك !

ـ هل تعنين بعد أن ماتت والدة نيجل ؟٠٠ أتقصدين تلك السيدة ٠ ترى ما اسمها ؟ مسز ٠٠ مسز ألستروذر ؟

ـ نعم ٠٠ مسز الستروذر !٠٠ لقد كانت تعامل هارويتش معاملة شنيعة ٠٠ وما كانت لتتزوج منه قط ـ ولو كانت طليقة ـ لأنه كان يضايقها ٠٠ ولكنه كان يعبدها ، وقد ظل حتى النهاية يعتقد ان زوجها كان يسىء معاملتها ، وهذه فكرة سخيفة ، اذ ان « بول ألستروذر » لم يكن يعد روحه او ماله ملكا له دونها ٠٠ وهاهو ذا نيجل أرماين قد ورث نظرة أبيه للحياة ، فهو كذلك قد خلق عظيم الثقة بالنساء !

وتمهلت لحظة ، ثم أردفت تقول : « وما أسعد المرأة التى يوليها نيجل ثقته ! »

فقالت الليدى أوريان ـ وكانت تجلس الى جانب الطبيب من الناحية الأخرى ، وسمعت طرفا من الحديث : « حدثنى عن مستر ارماين هذا يا دكتور ايزاكسون ، فأنت تعلم اننى أقيم على الدوام فى منزلى الريفى ، فى (كونتى كلير) ، ومن ثم فأنا أشد جهلا بالعالم من زهرة البنفسج ! من هو على وجه التحديد ؟ »

ـ انه الأخ الأصغر لهارويتش ، والوريث التالى للقب ..
ـ ذلك اللورد هارويتش الواسع الثراء ، الذى ربحت جياده كثيرا فى حلبات السباق ، والذى تزوج من « زوى موليجان » .. تلك الأمريكية التى وفدت من شيكاغو ، منذ اكثر من عشر سنوات ؟
ـ نعم ، ولكنهما لم ينجبا أطفالا البتة .. كما أن هارويتش قد أفسد صحته ودمرها تدميرا بحيث أصبح نيجل موقنا من انه سوف يرثه ، ولكنى أحسب ان لديه ما يكفيه كشخص أعزب .. فقد تركت له والدته عند موتها ثروتها كلها ..

وتساءلت : « وماذا يفعل الآن ؟ » .. فقال الطبيب :«لقد كان فى الجيش ، ثم استقال من وظيفته عندما تسلم ممتلكاته » .. ومرة اخرى ، سألته الليدى اوريان : « ولماذا ؟ » ، فأجاب : « لكى يعنى بمزارعيه ، فان لديه آراء جليلة عن واجب المالك نحو مستأجرى ضياعه »
ـ آه ! ان لمزارعى أوريان آمالا مشرقة عن واجباته نحوهم!
ـ هذا شيء متعب ولا ريب ! وقد عاش ارماين فى الريف ، ومضى يقوم بسلسلة من التجارب فى كرم بالغ : أنشأ لمزارعيه بيوتا نموذجية ، وأقام ساحات للتدريب على الرماية ، وشيد لهم مكتبات وملاعب وحمامات للسباحة .. والواقع انه كان ينفق ماله ببذخ لا مثيل له !
ـ وهل أضناهم عرفان الجميل ؟!
ـ لم يبلغ شكرهم له هذا الحد !.. وقد أثارت بعض خطط ارماين ، لاسعاد الناس ، الكثير من المعارضة فى الواقع !.. وفى النهاية نشب خلاف جسيم على بعض حقوق المرور ، وكان المزارعون هم المخطئين ، فعافت نفس ارماين افعالهم ، وبلغ به الالم من محاولتهم سلبه ما يملكه ـ وهو الذى اغدق عليهم خيراته ـ الى الحد الذى جعله يؤجر مزارعه فلا يذهب اليها بعد

ذلك البتة !

ـ هذه طبائع العامة من البشر ! انهم يتجاهلون المكتبات والنوادى التى تنشأ لهم فى القرى ، وترتفع عقائرهم بالصياح بما يزعمونه حقا فى تسلق الأسوار أو المرور فى طريق موحل ضيق يؤدى من لا شيء الى غير مكان معين !

ـ ولكنها رغبة الكواكب فى اضاءة أجنحة الفراش !

ـ أتشبه الانسانية بالكواكب ؟

ـ أحسب ان فيها ما فى هذه من البريق والاشتعال ٠٠ ألا تظنين ذلك ؟

ـ من المؤكد ان مستر أرماين يبدو على قدر كبير من هذه الصفة !٠٠ فما أشد الحماس الذى يبدو فى نظراته !٠٠ كيف يمكن أن يسىء الى مزارعيه ؟

ـ لعل ذلك راجع الى فرط حماسه ، وأمانيه العظيمة ، ومثاليته ٠٠ ولعله كان يحير مزارعيه بفعاله ، وينشد فيهم الكمال والوفاء بالشكل الذى يصوره له خياله !٠٠ كما ان له آراء عظيمة عن الاستقامة والنزاهة ، وحقوق الأفراد ، وأشياء أخرى كثيرة قلما تشغل بال الرجل العادى

فقالت مسز درنجهام : « لا تقل لى انه انقلب مخادعا لئيما بعد ذلك ٠٠ فان الخداع دليل على سوء المنبت ، وقد كانت أسرة هارويتش على الدوام من أرفع الأسر النبيلة »

ـ لست أعتقد أن الخداع كان من صفات أرماين ٠٠ ولكنى أعلم انه رجل يعيش فى خيال مثله العليا : فهو يعتبر صور «وات» الرمزية أعظم شيء انتج فى عالم الفن منذ ان خلد «بوتتشيللى» الطهر بريشته !٠٠ وفى الموسيقى الحديثة نجده لا يفضل أحدا بعد «الجار» ٠٠وفى الأدب الحديث«تولستوى»٠ **فهو يحب أصحاب المثل العليا ، حتى ولو كانت هذه المثل تختلف عن مثله هو !٠٠ ولست اقول انه فنان ، فالواقع انه ليس كذلك ، وليس شعاره «الفن من أجل الفن» وانما هو**

« الفن من أجل الانسان »

ـ انه انسانى النزعة اذن ؟

ـ ومؤمن عظيم الايمان !

ـ بالانسان ؟

ـ بالخير الذى يوجد فى الانسان !٠٠ وغالبا ما يخطر لى انه فى أعماق عقله أو قلبه يعتقد ان الايمان بشىء يخلق هذا الشىء خلقا !

وهنا تساءلت السيدة : « هل تعنى بذلك انك اذا ما آمنت بصدق انسان جعلت منه رجلا صادقا ؟ » ٠٠ فأجاب : «نعم »

وهتفت الليدى اوريان : «اواه يادكتور ايزاكسون ، شد ما أود ان تقدم مستر أرماين الى زوجى ، وتجعله يؤمن بأن زوجى رجل شحيح وليس مبذرا سفيها !٠٠ انه بذلك يرحم الأسرة رحمة واسعة ، ويجعل من المحتمل ان نستطيع فك الرهن الذى يكاد القصر أن يذهب بسببه ! » ٠٠ وهكذا تحول الحديث الى ناحية فكهة ، وانتهى بين ضحكات رنانة ٠٠ ولكن مسز درنجهام لم تلبث ان عادت الى الحديث عن نيجل أرماين قبيل انتهاء العشاء ، فسألت : « وما الذى يفعله مستر أرماين الآن ؟ »

ـ لقد ذهب الى مصر بعد ان أجر مزارعه ، واشترى أرضا هناك ، فى الفيوم على ما أظن ، حيث يقضى شطرا كبيرا من الوقت ٠٠ وأظنه يقوم بتجارب واسعة النطاق فى الزراعة

ـ وهل تراه يؤمن بصدق المكارى العادى ونزاهته ؟

ـ لا علم لى بذلك ٠٠ ولكن ينبغى أن أقول اننى سمعته يشيد بمزايا الأعراب !

★ ★ ★

◆ **وفى** تلك اللحظة نهضت الليدى سومرسون عن مقعدها بغتة ـ على طريقتها السريعة المعهودة ـ وما هى الا هنيهة حتى

كان الرجال وحدهم هم الجلوس الى المائدة .. وماكاد المصراعان المتحركان يغلقان وراء ظهر الليدى سومرسون النشيطة ، حتى تحرك الرجال فى مقاعدهم ، وهم يهمون بتنظيم صفوفهم .. وعندئذ نهض نيجل ارماين من مقعده عند الطرف الأقصى للمائدة الطويلة ، ومضى قدما نحو ماير أيزاكسون ، وصافحه فى حرارة وهو يقول : « شد ما يسرنى أن ألقاك ثانية يا أيزاكسون ! » .. فشد الطبيب على يد صديقه فى قوة

وما لبثا ان جلسا جنبا الى جنب ، على حين مضى سائر الرجال يتحدثون وقد أشعلوا لفائفهم .. وقال الطبيب متسائلا : « هل عدت من الخارج للتو ؟ » .. فأجاب ارماين : « لقد عدت منذ أسبوع » . فقال الطبيب معاتبا : « كل هذه المدة ؟ وأين تقيم ؟ » . وكان الجواب : « فى فندق سافوى » ، فهتف الطبيب : « فى سافوى ؟» .. واذ ذاك قال صاحبه متسائلا : « وهل يدهشك هذا ؟ »

واستقرت عينا الطبيب البراقتان على أرماين فى نظرات تفيض بالحب والعجب معا ، ثم قال : « ان أى فندق فاخر يعد مكانا غير ملائم لك ! فأنا أستطيع أن أراك على ثلوج الألب ، أو فى مستنقعات أراضيك فى اتشنجهام ، بل حتى فى .. ما اسم ذلك المكان ؟ » .. فقال ارماين : «سنورس آ» .. واذ ذاك استطرد الطبيب : « أما سافوى ، وريتز ، وكارلتون ، فلا !.. ان هذه التفاهات المموهة بالذهب ليست بالاطارالذى يناسبك البتة ! » .. فقال ارماين : « بل اننى جد سعيد فى سافوى !»

وفيما كان يقول ذلك ، تحولت نظراته بعيـــدا عن ماير ايزاكسون ـ عبر المائدة ـ الى الجدار المقابل له ، حيث علقت نسخة كبيرة من صورة «وات» المعروفة باسم «التقدم» ، فراح يتفرس فيها وقد سرى فى وجهه هدوء غريب ، وكأنه نسى ـ للحظة ـ المكان الذى كان يوجد فيه ، والناس المحيطين به !

.. وكان ماير أيزاكسون يرقبه فى اهتمام ، وكأنه ركز حواسه جميعا عليه .. لقد كان يوجد فى هذا الرجل شىء ما - بل لقد كان فيه دائما شىء ما - يثير فى الطبيب شعورا من الحنان نحوه والاعجاب به ، ممتزجين بالرثاء له ، بل وبالخوف الغامض مما قد يصيبه !.. وكثيرا ما فكر الطبيب فى ان النفس التى اوتيت مثل هذه الطبيعة لا بد وأن يقدر عليها أن تقاسى الألم فى عالم ، اذا كان يضم حقا بعض الذين يعتزون بالمثل العليا ويكدحون فى سبيل الرقى ، فانه ينطوى على غالبية تدين بالشره والنهم الى اشباع شهوات الجسد ، وقلما تصغى الى ذلك النداء الخافت الذى ينبعث من الالهامات البعيدة التى تتحدث أحيانا - مهما يبلغ صوتها من الخفوت - الى اهل الأرض جميعا !.. وأخيرا تنهد أرماين وقال :

- ما أبهى هذه التحفة الفنية !.. أتعرف الصورة الأصلية؟

- لقد رأيتها يوما ما فى متحف كومبتون

- التقدم .. الارتقاء .. المضى قدما الى الامام ، وعلى الدوام، بقوة لا تقاوم ، سواء أكنت ترى هذا التقدم وتحسه ، أم لا ! .. ياله من شىء جليل مجيد !

- أما زلت متفائلا دواما ؟

- اننى أومن بانتصار الخير ، وكلما مضى يوم ازددت ايمانا بذلك .. بانتصار الخير فى العالم وفى الفرد على السواء ! كذلك كلما ازداد عدد المؤمنين - المؤمنين الصادقى الايمان - بهذا الانتصار ، ازداد اليقين فى بلوغ هذه الغاية ، بخطى ثابتة الأقدام ، وفى يسر وسهولة ! ان فى وسعك أن تساهم فى ذلك يا أيزاكسون !

- بالايمان ؟!

- نعم .. هذا هو طريق مساهمتك فى انتصار الخير . ولكن يا الهى !.. ما أقل الناس الذين يسلكون هذا الطريق !.. ان الشك والريبة من اكبر العوامل المدمرة فى العالم ! انك اذا

ارتبت في رجل ، فانما تكاد بذلك ترغمه على تحقيق ريبتك.. واذا شككت في امرأة ، فانما تدفعها بذلك دفعة قوية نحو الخداع والمخاتلة .. ولشد ما أمقت أن أسمع الرجال يقولون انهم لا يثقون فى النساء !

ـ ان النساء يقلن ذلك أيضا !

ـ انها خيانة الجنس !.. أمر يستحق الازدراء والاحتقار !

.. ان اللواتى يقلن ذلك خائنات لمعسكرهن !

فتساءل الطبيب : « انك تقدر المصادفة .. أليس كذلك ؟»

.. فاجاب ارماين : « فوق كل شىء ! »

ـ هب ان بعض النساء لا يثقن بنساء أخريات ، بحق وعن يقين ، فهل تريد منهن ان يزعمن العكس ؟

ـ بوسعهن أن يصمتن ، وان يحاولن كبت هذا الشعور التافه المدمر !

وظل برهة لا يقول شيئا ، ثم نظر الى ماير ايزاكسون واستطرد قائلا : « هل تنوى الذهاب الى مكان ما بعد ان تخرج من هنا ؟ » .. فأجاب الطبيب : « لقد قبلت تذكرة فى مسرح شزهام .. لماذا ؟ » . فتساءل صاحبه : « وهل لا بد من ذهابك الى هناك ؟ » .. واذ أجاب ماير قائلا : «كلا» ، قال ارماين : « اذن تعال نتناول العشاء معا فى سافوى » ..فهتف الطبيب فى لطف : « العشاء ؟ .. يا عزيزى أرماين : انك تعلم اننا معشر الأطباء ننصح مرضانا ـ فى هذه الأيام ـ ونعظهم بحق ، بالاقلال من الطعام والشراب .. وأنا لا أستطيع ان أتناول أى طعام حتى الصباح ، بعد أن أعود من نزهتى على ظهر جوادى »

ـ ولكنك تستطيع الجلوس الى مائدة للعشاء فيما أظن ؟

ـ آه ، نعم !.. بوسعى أن أفعل ذلك !

ـ تعال واجلس الى مائدتى اذن .. لنخرج من هنا معا

ـ بكل تأكيد

ـ وسوف ترى ان كان (سافوى) يعد مكانا غير ملائم لى !

الفصل الرابع

◆ كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة الا ربعا من تلك الليلة ، عندما هبط ماير ايزاكسون ونيجل ارماين الدرج المغطى بالسجاد حتى حافة الطريق، امام باب قصر الليدى سومرسون ، واستقلا سيارة الطبيب الخفيفة ‥ وما ان بدات المسير ، فى غير ضجة او جلبة ، حتى قال الطبيب : « رأيتك تتبادل حديثا طويلا مع مسز درنجهام فى قاعة الاستقبال ! » ‥ فاجاب ارماين فى اقتضاب : « اجل » . ثم اخلد الى الصمت ، وقد اضطجع الى الوراء فى الركن الذى كان يشغله ‥ وبعد برهة استطرد الطبيب يقول : « اننى اميل اليها ». فتساءل صاحبه : « احقا ؟ » . فقال ماير : « ما اظنك تحبها ؟! » ‥ وهنا تساءل ارماين : « ما الذى يدعوك الى هذا القول ؟‥ لماذا تقوله ؟ » . فاجاب: « لأننى اشعر به ‥ وقد استنتجته من لهجتك عندما قلت : « اجل ! »

فمال ارماين الى الأمام قليلا وهو يتساءل : « الا ترى انها امراة تحب ان تغتاب الناس وتذكرهم بالسوء ؟ » ‥ فهتف الطبيب : « مسز درنجهام ؟ ‥ اننى بالتاكيد لا اراها كذلك » ‥ ولكن صاحبه قال : « بل انها واحدة من اللائى يكفرن بالنساء ، واللائى كنت تتحدث عنهن بعد العشاء ‥واحدة من الخائنات لمعسكر النساء ! اننى اعجب لماذا لا تتحد النساء ويقفن صفا واحدا ؟ » ‥ فقال الطبيب : « انهن يفعلن ذلك احيانا » ‥ فعقب ارماين قائلا : « نعم ‥ انهن يفعلن ذلك عندما يردن ان ينهشن سمعة احداهن ! انهن يتحدن سويا كلما كان لديهن عمل من اعمال الهدم والتدمير ! ولكن هل يتحدن حقا عندما يكون هناك عمل من اعمال الانشاء والتعمير ؟ » . فتساءل

الطبيب : « هل تعنى عندما يراد الاشادة بسمعة احد الناس ؟ »
وراح ارماين يعبث بشاربه ٠٠ وكان فى وسع ماير ايزاكسون ان يرى عينيه تتالقان فى انفعال ، فى ضوء العربة الخافت ، فما لبث ان استطرديقول: « اذا كنت تعنى ذلك ، فانى أميل الى القول بانه يجب على كل منا ان يشيد سمعته بنفسه وبمفرده او بنفسها وبمفردها » ٠٠ فقال ارماين : « ولكننا فى حاجة الى المعونة فى كل ما نريد بناءه تقريبا ٠٠ وما اقل ما نحصل عليها ! » ٠٠ وهنا ساله الطبيب : « هل كانت مسز درنجهام تنال بصفة خاصة من امراة معينة فى هذه الليلة ؟ » ٠٠ فاجاب : « أجل ٠٠ لقد فعلت ذلك ! » ٠٠ وعاد ايزاكسون يتساءل : « هل لك ان تخبرنى عمن تكون تلك المراة ؟ » ٠٠ وكان الجواب : « انها مسز تشبستو ! »
وعندئذ قال ايزاكسون فى تمهل : « هل كنتما تتحدثان عن مسز تشبستو؟ ٠٠ مسز تشبستو الشهيرة ؟ » ٠٠ فقال ارماين : «شهيرة ؟! لست اقرك على ان مسز تشبستو امراة شهيرة ! فهى ليست كاتبة او مطربة او رسامة او ممثلة ٠٠ وهى لا تعمل شيئا مما يجوز ان اسمع به ، ومن ثم فلا يمكن أن اصف مثل هذه المراة بالشهيرة ! وقد اجرؤ على القول بان اسمها معروف لعدد من الناس ، ولكننا فى زمن الثرثرة ، ولا ريب فى ان ٠٠٠ »
ولم يتم عبارته ٠ ففى تلك اللحظة كانت السيارة تدرج على الرصيف المغطى بالمطاط امام فندق سافوى وتقف امام المدخل ٠٠ وفيما كان ماير ايزاكسون يهبط منها ويدلف الى بهو الفندق ، تذكر فجاة ان الخطاب الذى بعثت به اليه مسز تشبستو ـ تساله موعدا لاستشارته ـ كان يحمل اسم « فندق سافوى » ٠٠ اذن ، فقد كانت تقيم فى الفندق حين أرسلته ٠٠ اتراها لا تزال مقيمة فيه للآن ؟٠٠ انه لم يسمع نيجل ارماين يتحدث عنها قط ، ولكن تلك اللمحة من الغريزة النسوية ـ التى كانت فى أعماقه ـ سرعان ما ربطت بين كلمات ارماين « بل اننى جد سعيد فى سـافوى ! » ودعوته اياه لتناول العشاء هناك ، وبين ذلك الحـديث عن « مسز تشبستو » الذى رواه له صديقه منذ لحظات ! لقـد كان ارماين يعرف مسز تشبستو اذن ! وسـوف يقابلانها الليلة فى مطعم الفنـدق ٠٠ فقد شعر ماير ايزاكسون بانه كان واثقا من ذلك كل الثقة !

★ ★ ★

◆ وتركا معطفيهما فى حجرة الثياب ، ومضيا يشقان طريقهما نحو المطعم، الذى كاد ـ اذ ذاك ـ ان يكون خاليا ٠ وتقدم رئيس الخدم نحو ارماين وهو ينحنى مبتسما ، ثم قادهما نحو مائدة فى احد الأركان ٠ وراى ماير ايزاكسون ان المائدة معدة لشخصين ، فاستبدت به الدهشة ، ولـكنه لم يقل شيئا ٠

وجلس مع زميـــله ٠٠ ثم قال : « اننى لا استطيع حقا ان اتناول العشـــاء يا ارماين ٠٠ فلا تطلب لى طعاما ! » ٠٠ فقال صديقه : « خذ على الأقل قليلا من الحساء وكاسا من الشمبانيا » ٠٠ ومضى ـ دون ان ينتظر جوابا ـ يملى اوامره على الخادم ٠٠ ثم قال : « لقد كان بوسعنا ان نجلس فى البهو ، ولكن المكان هنا اكثر تسلية ٠٠ وتذكر اننى لم احضر الى لندن ـ ولم اشهد المجتمع اللندنى ـ منذ اكثر من ثمانية شهور ٠٠ ولا بد ان يلتقى المرء باصـــدقائه ومعارفه القدامى فى مثل هذه الأماكن »

وفتح ماير ايزاكسون فمه ليقول ان بوسع ارماين ان يجد فرصـــة افسح مدى للالتقاء باصدقائه خلال الموسم ، اذا هو ارتاد الحفلات التى تقام فى المنازل الخاصة ٠٠ فقد بدا اهل امريكا يتدفقون على العاصمة الانجليزية ، مختلطين باهل الريف الانجليزى الذين يقدمون لقضاء ايام قليلة ، وبفيض من ممثلى امم الارض جميعا ٠٠ ولكنه لم ير فى هـــذا الخليط من الناس احدا يعرفه ، كما ان ارماين لم يعرف احدا من الموجودين كذلك ، ومن ثم فقد اغلق شفتيه دون ان يقول شيئا ٠ وايقن ان لارماين غرضا معينا من الحضور الى « سافوى » فى تلك الليلة ، ومن احضاره معه ٠٠ ولأمر ما كان صـــديقه يحاول اخفاء هذا الغرض ، ولكنه لن يلبث ان يتكشف له سريعا ، وما عليه الا ان ينتظر دقائق معدودات فيعرف حقيقة ذلك تماما !

واحضر احد السقاة الحساء والشمبانيا ، فقال الطبيب : « لو ان واحدا من مرضاى الذين احرم عليهم تناول العشاء رآنى الآن ٠٠ ولو كان بوسعهم ان يتكهنوا باننى قادم للتو من مادبة عشـــاء طويلة !٠٠ اننى يا ارماين اقـــدم تضحية ثقيلة على مذبح الصداقة ! » ٠٠ فقال صديقه : « ولكنك لم تر احدا من مرضاك فيما ارجو ؟ » ٠ فاجاب الطبيب : « كلا ٠٠ لم ار منهم احدا بعد!»

وفى هذه اللحظة ، بل قبل ان تفارق الكلمات شفتيه ، راى مسز تشبستو على بعد قليل منهما ، وهى تدلف الى قاعة الطعام قادمة من ناحية الباب ٠٠ وتطلع ليرى رفيقها ، ولكنه تبين لدهشته ان احدا لم يكن يتبعها ٠٠ وسارت تجتاز القاعة منتصبة القامة ، دون ان تتلفت يمنة او يسرة ، يتقدمها رئيس الخدم ٠ ومرت بالقرب من ارماين والطبيب ، حتى بلغت مائدة صغيرة اقيمت فى زاوية بجوار الحاجز ، غير بعيدة عنهما ، فجلست وقد اولتهما جانبا من وجهها ٠٠ وما لبثت ان قالت بضع كلمات لرئيس الخدم ، فاصدر اوامره لأحد السقاة ، ثم انصرف مهرولا ، بينما جلست مسز تشبستو ساكنة فى مقعدها لاتحير حراكا ، وقد غضت بصرها ، ووضعت مروحتها المصنوعة من الوشى المطرز الى جانب السكاكين والأكواب التى انعكست عليها الأنوار الكهربائية ، ثم اراحت يدها فوقها فى خفة ٠ وكانت تلبس ثوبا اسود اللون ، وترتدى قفـــازين

ناصعى البياض ، بينما وضعت فى شعرها الباهت المصبوغ مشطا مرصعا بفصوص من الماس

ومن حيث جلس الصديقان ، كان وجهها ذو الشحوب العجيب ـ حتى كأنه قد خلا من اللون ـ يبدو رقيقا طاهرا الى حد غير مالوف ٠٠ وكان ثمة شىء يثير الاشفاق ويحرك الشجن فى ذلك البياض الناصع ، وفى السكينة الشاملة التى احاطت بهذه المرأة وهى تجلس وحدها دون رفيق أو أنيس ٠٠ وكان كثير من الناس يتفرسون فيها ، ويتهامسون عنها ، وقد بدت الدهشة على أساريرهم حين رأوها وحيدة ! على انها كانت تبدو غافلة تماما عن انها موضع اهتمامهم ٠٠ وكان فى « تغافلها » هذا بساطة عجيبة ، كتلك التى كانت تشيع فى مظهرها كله ، فتجعلها تبدو من قرب كأنها فتاة صغيرة !

وقال رجل ـ كان يجلس الى المائدة المجاورة لمائدة ارماين ـ لرفيق له عملاق متورد الوجه من رجال المال : « ها هى ذى مسز تشبستو ! يا الهى ! انها وحيدة ليس معها أحد البتة ! » ، فأجابه الآخر : « أحسب انها لم تستطع ان تلتقط حتى طالبا من كلية ساندهيرست الليلة ! وشد ما أعجب لماذا تأتى على الاطلاق ما دامت لم تتمكن من جذب رفيق لها ٠٠ الا ما أشد صفاقتها !»

٠٠ ثم خفضا من صوتيهما وقد مال كل منهما على الآخر ، فرفع ارماين كأس الشمبانيا الذى كان أمامه الى فمه ، وأخذ يرشف منه ، ثم وضعه ثانية ،وقال للطبيب : « اذا رأيت أيا من مرضاك فقل انها غلطتى ، وسوف أحمل اللوم عنك ٠٠ ولكن من المحقق انك لست مضطرا الى اتباع جميع وصفاتك ! » ٠٠ وكان صوته أجوف ، وفيه شرود ، كما لو كان يتكلم لمجرد تغطية ما ألم به من انفعال صمم على اخفائه ٠ وأجاب الطبيب : « كلا ٠٠ ولكن ينبغى ان أكون مثالا للعيش المعقول فيما أعتقد »

وأخذا يتكلمان بضع دقائق عن الصحة ، فى عبارات شبه رسمية وتكلف عجيب ، شأن الناس اذا شعروا بأن هناك من ينصت اليهم ويترقب مايقولون ، أو شأن الناس الذين يحسون انهم يصغون الى أنفسهم !٠٠ وفى مرة أو اثنتين كان الدكتور أيزاكسون يختلس النظر الى مسز تشبستو ، التى كانت تتناول طعامها فى بطء وفتور دون ان ترفع عينيها ٠٠ وكان يبدو انها لم تره ولم تر أرماين ، بل الحق أنها كانت تبدو وكأنها لم تكن ترى أحدا قط ٠٠ كانت غافلة عن كل مايحيط بها !٠٠ ووجد الطبيب نفسه وقد أحس بالاشفاق عليها والرثاء لحالها ، ومالبث ان راح ينكر هذا الشعور ، وينكر انها تستحق أى عطف أو رثاء ! وكان يشاطر الكثيرين غيره عجبهم من انفرادها ووحدتها ، فهى اذ تتناول العشاء وحدها فى مكان عام ، انما تعلن عن فشلها فى الحياة التى اختارتها لنفسها ، وعن هجران الرجال لها ٠٠ فلماذا تفعل ذلك ؟ لم يكن وقتئذ قادرا على ان يحدس السبب ، ولو انه ادركه فيما بعد ٠٠ وكتم دهشته

فلم يبدها لرفيقه ، وقد توقع فى بادىء الأمر ان يلحق بها شخص ما قد تاخر قليلا ٠٠ ولكن احدا لم يات !

☆ ☆ ☆

◆ ووهن الحديث بين ارماين وبين الطبيب ٠٠ وما لبث الأول ان قال : « بودى ان اقدمك الى احد الناس الليلة » ٠٠ فهتف الطبيب : « ماذا ؟ ترى من يكون ؟ » ٠ وكان يلقى على صديقه هذا السؤال ، وهو يعلم الجواب حق العلم ٠٠ وقد أجاب الصديق بالفعل : « مسز تشبستو » ، فكاد الطبيب ان يخبره بانه كان يعرفها حقا ، لولا ان استطرد ارماين قائلا : « لقدكنتاتكلممعها عنك ، فاخبرتنى بانهالمتقابلك قط » ،فصاح متسائلا:«ومتى كان ذلك ؟ » ٠٠ وكان الجواب : « منذ أربعة ايام ٠٠ عندما قدمت اليها وتحدثت معها للمرة الأولى !»

ولم ينبس الطبيب بحرف زهاء دقيقة ، ثم قال : « لكم يسرنى ان تقدمنى اليها » ٠٠ ومع انه كان يتوخى الصدق مع اصدقائه الى ابعد الحدود ، الا انه كان على الدوام كتوما فى كل ما يتعلق بمهنته ٠٠ ولم يكن يدرى ما اذا كانت مسز تشبستو تود ان يجعل استشارتها اياه فى امر صحتها موضوعا للحديث ، ولذلك لم يذكر شيئا عنها ٠٠ ومادام ارماين كان يعلم ـ منذ اربعة أيام فقط ـ انه ومسز تشبستو غريبان لا يعرف احدهما الآخر ، فقد اضطر الطبيب الى اغفالذكرهذه الزيارة، تاركاصديقه تحت تاثير الاعتقاد بانهما مازالاغريبين !

ومضى ارماين قائلا : « انها تقيم فى هذا الفندق ، وهى جالسة هنا الآن ٠٠ ولكنك ولا ريب تعرفها بمجرد النظر ؟ » ٠٠ فاجاب : « آه ! نعم ! لقد رايتها مرارا » ٠٠ وعاد صديقه يقول : « احسبك ستميل اليها ، اذا انت استطعت ان تنقى ذهنك من اى تحامل سابق ضدها » ٠٠ فتساءل : « ولماذا تحسبنى اتحامل على مسز تشبستو ؟ » ٠٠ فاجاب ارماين : « هذا شان الناس الآن ٠٠ مامن احد يقول عنها كلمة طيبة ، وانما يستوى النساء والرجالفىذكرهابالسوء!»

ومن نبرات صوت ارماين ، تبين ماير ايزاكسون ان هذه الحقيقة قد جعلت ارماين نفسه متحاملا على الناس من اجل مسز تشبستو ٠٠ فهناك رجاليولدون للدفاع عن القضايا الخاسرة ، ويميلون بغريزتهم نحو اولئك الذين يتحول عنهم الآخرون ، مدفوعين الى ذلك بشهامة خفية تعمى بصائرهم ، او بعاطفة من الشفقة الانسانية تسيطر على قلوبهم وتلقى ظلا على بريق ملكاتهم العقلية ٠٠ وكان «نيجل ارماين» من هؤلاء الرجال ، كما كان ماير ايزاكسون يعلم عنه ذلك ٠٠ ومن ثم لم تستبد به الدهشة وهو يصغى الى ارماين وقد تابع حديثه : « انهم لا يرون من الأمور سوى ظاهرها ، فيحكمون بما يرون ٠٠ واحسب انه

ينبغى للمرء الا يسىء الظن بهم ، ولكن من العسير احيانا الا يسىء المرء الظن بالقسوة نفسها ، وخاصة عندما تكون القسوة موجهة ضد احدى النساء .. وفى هذه الليلة بالذات راحت مسز درنجهام - وانت تقول انها من فضليات النساء .. » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « وانها لكذلك حقا ! »

- حسنا .. لقد راحت تقول لى : « اننى لا اشعر بذرة من الشفقة نحو مثيلات مسز تشبستو ، فلا تذكرها لى يا مستر ارماين ! » .. ياله من اعتراف، يا ايزاكسون !

ووجد الطبيب نفسه يساله : « وهل ذكرت لك مبررات رايها ؟ » . فاجاب : « آه ! نعم ! لقد حاولت ان تفعل ، فقالت الشىء المعهود » .. فقال ايزاكسون مستوضحا : « وما هو ؟ » .. واجاب ارماين : « لقد قالت ان مسز تشبستو قد باعت نفسها للشيطان ، جسدا وروحا ، فى سبيل المادة .. وانها مثال المراة الجشعة ! »

- وهل بينت لك ما تعنيه تماما بـ « مثال المراة الجشعة » ؟

- نعم .. واشهد انها كانت واضحة فيما تكلمت به !.. قالت عنها انها المراة المتجردة من المثل العليا ، الخالية من كل احساس بالحنين الى « البيت » ، بكل مافى «البيت» من معان:الرجل الواحد ، والاطفال ، وراحة الضميرالتى تنبع من الايثار،وراحة البدن فى العمل من اجل الآخرين!.. المراة التى تخون السمعة الطيبة لجنس النساء اذ تركز كل اهتمامها فى نفسها، والتى لاتمتد رغباتها الا لاشباع نزواتها الرخيصة ، بالاسراف الجنونى ، وانفاق المال فى اقتناء الثياب والحلى واليخوت والمنازل والسيارات وكل ما يثير العجب والاعجاب عند ذوى العقول المنحرفة !

- ان مثل هؤلاء النساء موجودات حقا !

- ربما كان الأمر كذلك ، ولكن ياعزيزى ايزاكسون .. يكفى ان ينظر المرء الى مسز تشبستو نظرة خالية من التحامل ، اذا سمحت لى بهذا التعبير ، ليرى انها لا يمكن ان تكون واحدة من هاته النساء !.. وحتى اذا لم اكن قد تحدثت معها قط ، فسوف ادرك للتو انها ولا بد من ذوات المثل العليا ، بل انها لا يمكن ان تكون متجردة منها ، مهما يكن من امر حياتها الآن او فى الماضى . سيماؤهم على وجوههم !.. والسيماء لا تكذب البتة .. انظر الى قسمات هذا الوجه ، افلا ترى ما اعنيه ؟

وراح الاثنان يحدقان فى المراة المنفردة برهة ، قبل ان يقول الطبيب : «مامن شك فى ان فى وجه مسز تشبستو جمالا معينا »

- اننى لا اتكلم عن الجمال ، وانما اتكلم عن المثالية .. عن الطهر والنقاء !.. افلا ترى ما اعنيه ؟.. والآن ، كن عادلا !

فقال الطبيب : « نعم .. اننى اراه !» . واذ ذاك تنهد ارماين بارتياح عميق، بينما تابع الطبيب كلامه : « ولكن هذه اللمحة ، فيما اعتقد ، ليست الا وليدة

تكوين قسمات الوجه والطريقة التى ينمو بها الشعر ؟٠٠ افتعنى ان تقول انك تستطيع الحكم على امراة من ذلك اكثر مما تحكم بافعالها فى الحياة ؟ »

– كلا ٠٠ ولكنى اقول انك اذا درست حياة امراة لها مثل هذا الوجه ٠٠ حياتها الحقيقية ٠٠ فسوف تتبين بلا ريب انها لم تكن خالية من الاعمال التى تتوقعها منها ٠٠ الأعمال التى تؤيد تلك اللمحة من المثالية التى يستطيع كل انسان ان يراها !٠٠ ثم ما الذى تعرفه مسز درنجهام حقا عن مسز تشبستو ؟ انها لا تعرفها معرفة شخصية البتة ، وقد اعترفت لى بذلك ٠٠ بل انها لم تتحدث اليها قط ، ولا تريد ان تفعل !

– اعترف ان ذلك لا يدهشنى !

وكانت فى صوته نبرة جافة واضحة ، لم تفت ارماين ، فقال : « ارى انك لا تقل تحاملا ! » ٠ وبدت فى صوته مسحة من الضيق والكدر ، وهو يستطرد قائلا : « ولست اعلم السبب فى ذلك على وجه التحديد ، ولكنى كنت دائما انظر اليك كواحد من اكثر الناس الذين التقيت بهم بعدا عن التحيز ، ومن اوسعهم افقا وانضجهم عقلا ، ياايزاكسون ٠٠ لا كواحد من اولئك الذين يجدون من واجبهم دائما ان ينبحوا مع كلاب الصيد ! »

– ان المسالة تتمثل فى : ماهو التحامل ؟٠٠ ان الحقائق الراهنة فى حياة انسان معين هى الواقع ، ولا يمكن ان تترك المرء بعيدا عن التاثر بالواقع تماما، سواء ضد صاحب هذه الحياة او معه ٠٠ فلو اننى رايت رجلا يضرب كلبا لأنه لعق يده ، لاستنتجت انه رجل قاس ٠٠ فهل كنت تقول عنى اننى ضيق الأفق اذ ذاك ؟٠٠ واذا لم يحكم المرء على الرجال والنساء بفعالهم ، فباى شىء يمكنه ان يحكم عليهم اذن ؟ لعلك قائل « ينبغى لك ان لا تحكم عليهم البتة » ، ولكن من المستحيل الا تكون للمرء آراء فى الناس ٠ وفى كل مرة يكون لك راى فى شخص ما ، فانك تكون قد اصدرت عليه حكما خفيا ٠٠ اليس كذلك ؟

– اعتقد ان للشعور دخلا فى هذا الأمر ٠٠ فغالبا ما ينشا لدى المرء احساس داخلى مباشر قبل ان يعرف شيئا عن حقائق حياة فرد معين ٠٠ ومن المحتمل ان تكذب هذه الحقائق ذلك الشعور ، ولكن هل هذا خطا ؟٠٠ احسب انه لايكون كذلك غالبا ٠٠ واذكر اننى سمعت ذات مرة امراة بارعة الذكاء تقول عن رجل كانت تعرفه حق المعرفة : « انهم يتهمونه بكذا وكذا من الأفعال ٠٠ ولكننى لو رأيته يرتكب هذا العمل لما صدقت انه ياتيه فعلا»!٠٠قد تقول ان هذاسخف، ولكن هل هو سخف حقا ؟٠٠ الا يمكن ان يختفى الانسان الحقيقى وراء مظهر زائف ؟٠٠ الا يوجد غالبا هذا المظهر الزائف ، كانه القناع يخفى الوجه ؟٠٠ وهلا ياتى الانسان الزائف اعمالا يستنكرها الانسان الحقيقى ؟٠٠ اننى افضل ان احكم – فى الغالب – بقلبى لا بعينى يا ايزاكسون ٠٠ نعم ، اننى افضل ذلك ! والمراة التى رويت لك قصتها انما قالت شيئا جميلا عند ما قالت ذلك ٠

ومع ان كل من سمعها راح يضحك منها ، فانها لم تكن سخيفة البتة !٠٠ اذ عند ما ينشأ لدى المرء ما يسميه احساسا داخليا ، فان قلبه هو الذى يتكلم ، وهو الذى يقول « هذه هى الحقيقة » !٠٠ وانا اعتقد ان القلب يعرف ما هى الحقيقة ، دون حاجة الى اعمال ذهن أو تفكير !

– وماذا تقول اذا شعر شخصان باحساسين متناقضين كل التناقض ازاء شخص واحد ؟٠٠ ماذا يكون الامر اذن ؟ ان هذا يحدث أحيانا كما تعلم

فقال ارماين وهو ينظر ناحية مسز تشبستو : « لست أعتقد أن من الممكن ان ينشأ لدينا – أنت وأنا – احساسان متناقضان تماما ازاء شخص واحد ٠٠ وهذا يكفينى ، ولن أشغل نفسى الليلة بسائر أهل العالم ! »

– الا تظن ان القلوب قد تكون خرقاء كالرؤوس ؟! اننى أعتقد ذلك ، واحسب ان الناس قد تكون لهم « قلوب مضطربة » ، كما تكون لهم « عقول مضطربة »!

واذ كان الطبيب يقول ذلك ، خطر له فجاة انه انما كان يصدر حكما ضد صديقه ٠٠ ضد ذلك الرجل الذى اعجب به ، واحبه !٠٠ أما ارماين فقد قال : « اننى دائما اصدق قلبى ، ولكنى غالبا ما أسىء الظن بعقلى !٠٠ الا تريد المزيد من الشمبانيا ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « لا ٠٠ شكرا لك ! » ٠ واذ ذاك تساءل ارماين : « ماراأيك فى ان ننضم الى مسز تشبستو ؟ لا ريب فى أنها شديدة السأم لتناولها العشاء بمفردها ٠٠ سوف نذهب لنتبادل الحديث معها ، فاذا لم تدعنا للجلوس ، فلنمض الى البهو لندخن »

ولم يكن فى صوت ماير ايزاكسون – اذ قال : «حسنا» – ما ينم عن تحمسه لهذا الراى أو عن نفوره منه ٠٠ ولو ان شيئا من ذلك بدا ، لما فطن اليه ارماين ، اذ كان اذا عنى بأمر ، لا يكاد يرى غير هذا الأمر بالذات !

وما لبث ان دفع الحساب ، واجزل العطاء للساقى ، ثم نهض من مجلسه قائلا : « هلم بنا ٠٠ وسوف اقدمك اليها » ٠٠ ثم وضع يده لحظة فوق ذراع صديقه ، واستطرد يقول فى صوت خفيض : « جرد فكرك من التحامل يا ايزاكسون ، فانت من الطيبة والذكاء بحيث لا يمكن ان تكون من زمرة المتحاملين ٠٠ واجعل احساسك الأول هو الاحساس الصادق ! » ٠٠ وفيما كان الطبيب يمضى مع صديقه نحو مائدة مسز تشبستو ، لم يشأ ان يخبره بان احساسه الأول حيال هذه المراة كان قد نشأ من قبل ، فى حجرة الاستشارة بميدان كليفلاند !

الفصل الخامس

◆ « مسز تشبستو » !

وأجفلت مسز تشبستو قليلا اذ سمعت نداء نيجل أرماين ،

كشخص يفيق بغتة من حلم كان مستغرقا فيه ، ورفعت عينيها نحوه ثم ابتسمت قائلة : « أهذا أنت ؟ ·· انني وحدى كما ترى ، ولكنى كنت جائعة ، فاضطررت الى مواجهة الجماهير !» ·· فقال : « أود أن أقدم لك أحد أصدقائى ، فهل تسمحين لى بذلك ؟ » ·· وهتفت المرأة : « بالتأكيد ! »

واذ ذاك تنحى أرماين قليلا ، فتقدم دكتور ايزاكسون حتى وقف بجانب مسز تشبستو ··

ـ الدكتور ماير ايزاكسون ·· مسز تشبستو

ولم يدر الطبيب هـل كان يتوقع أن تظهر مسز تشبستو معرفتها به ، أو انه كان يشعر سلفا بما حدث فعلا : الانحناء الخفيف وغمغمتها : « يسرنى أن ألقاك ! » ، ولكن الذى كان يدريه هو أنه لم يدهش حقا لمعاملتها اياه كشخص غريب عنها تماما ، وأنه سر كل السرور اذ لم يذكر لأرماين شيئا عن زيارتها لميدان (كليفلاند) ·· ومضت مسز تشبستو تقـول لأمارين : « هلا جلستما لنتبادل الحديث قليلا· انني وحيدة، وقد قتلنى السأم ! » ·· فقال أرماين : « هل تسمحين ؟ » ·· ثم جذب أحد المقاعد ، على حين قالت مسز تشبستو : « تعال بجانبى من الناحية الأخرى يا دكتور ايزاكسون ·· لقدسمعت الكثير عنك ، فقد أحسنت علاج معظم أعدائى ! »

ولم يكن ثمة أقل أثر للتصنع فى لهجتها ومسلكها ، كما لم يبد ظل من الضيق والتبرم فى نظرتها ، فلم يتمالك الطبيب نفسه ـ وهو يجلس بجانبها ـ من الاعجاب ببراعتها الفائقة فى الخداع ، كما كان يعجب أحيانا ببراعة بعض شهيرات الممثلات الفرنسيات فى أداء أدوارهن على المسرح ! ومالبث ان قال : « اذن ، فلا ريب فى انك تكرهينني ؟ » ٠٠ فقالت : « ولماذا ؟٠٠ اذا كنت لا أكرههم هم ! » ٠ فهتف أرماين : « أفلا تكرهين اعداءك ؟ »

ـ كلا ! وهذه من نواحي الضعف عندى !٠٠ اننى مااستطعت ذلك قط ، ولن أستطيعه البتة ، فثمة شيء أخرق فى قرارة نفسى لا يفتأ يتلمس المعاذير للناس ، مهما يكونوا ومهما يفعلوا ، ودائما ما أقول لنفسى : « انهم لا يفهمون ٠٠ ولو انهم علموا حقا جميع الظروف التى تحيط بى لما أبغضونى ، بل لعلهم كانوا يرثون لحالى ! » ٠٠ وهذه حماقة منى ، بل خطأ ذريع !٠٠ هكذا أعلم حق العلم ، فان مثل هذه المشاعر تقف سدا منيعا فى طريق النجاح ، لأنها تمنع المرء من العمل فى سبيل الدفاع عن نفسه ٠٠ واذا لم يعمل المرء من أجل نفسه فان أحدا لن يعمل من أجله !

فقال أرماين : « ما أظن هذا صحيحا ! » ٠٠ فقالت : « آه ! بل انه صحيح كل الصحة ٠٠ فأنت اذا كنت ميالا الى الشجار ، محبا للانتقام ، حسبك الناس جسورا مقداما ، ووجدوا أنفسهم يقفون فى صفك ٠٠ أما اذا كنت سهل الصفح والمغفرة ، فلن يصفح الناس عنك أو يغفروا لك بسهولة ! » ٠٠ فقال : « اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا تغيرين خططك ؟ » ٠٠ ونظر الى ايزاكسون ، ففهم الطبيب أنه كان يحاول أن يثبت له ما كان يعتقده من خلق هذه المرأة ٠٠

وأجابت مسز تشبستو: «لسبب بسيط، هوأننى لاأستطيع! ٠٠ فأنا كماخلقت، وليس بوسعى انأغير مابنفسى، كماانه ليس

بوسعي أن أعمل على نقيض ما يوحى به ذلك الصوت الخافت الذى يهتف فى أعماق نفسى !٠٠ والواقع اننى كثيرا ما أحاول ـ اذ اننى لا أزعم لنفسى البتة انى منزهة الى هذا الحد ! ـ ولكنى وجدتنى عاجزة عن الاستمرار فى المحاولة ٠٠ وأنا أعلم ان ذلك ضعف كبير ، وأعلم ان العالم سوف يهزأ بى ويضحك منى ، ولكن ٠٠ ماذا تريد ؟ ان بعضا منا عبيد لأرواحه ! » ٠٠ وبدت العبارة الأخيرة وكأنها أفلتت منها دون وعى ، اذ انبعثت فى اخلاص عميق٠٠ولكنها سرعان ما أضافت ، كما لو كانت تأسف على اذاعة سر دفين لها : « لابد انك تظننى امرأة بلهاء يا دكتور ايزاكسون ؟! »

وتساءل الطبيب : «ولماذا يا مسز تشبستو ؟» ٠٠ فأجابت : « لهذا الذى قلته ٠٠ فانك طبعا تعتقد اننا عبيد لأجسادنا ! » ٠٠ ولم يتمالك أن قال فى لهجة ذات معنى : « الحق اننى لا أراك بلهاء ! » ٠٠ وهنا قال أرماين : « ان ايزاكسون ليس طبيبا عاديا ، وليست بك حاجة الى أن تخشيه » ٠٠ فقالت : « ما أحسبنى أخشى أحدا ، ولكن المرء لا يود أن يجعل من نفسه أضحوكة ٠٠ وانى لواثقة من اننى غالبا ما أكون حمقاء عندما أبخس الجسد حقه الى هذا الحد ! » ٠٠ ثم أردفت وهى تبتسم : « أى حديث هذا ! ٠٠ ولكننى عندما كنت وحيدة وسط هؤلاء الناس ، رحت أفكر فى شتى النواحى ٠٠ فالمرء اذا جلس بمفرده بين جمع من الناس ، لم يملك نفسه من الاستغراق فى التفكير٠٠ و فى رأيى أن ذلك يحرك المخ وينشطه ! وهكذا كنت أفكر فى كثير من توافه الامور وأنا أتناول الطعام بمفردى » ٠٠ ونظرت الى الرجلين نظرة اعتذار ، وما لبثت أن هزت كتفيها قائلة : « المرأة فى التفكير ! »

ودنا أرماين بمقعده منها قليلا ، فى حركة جعلت الدكتور ايزاكسون يتبين فجأة مدى تلك القوة التى كانت لا تزال كامنة

فى هذه المرأة ٠٠ القوة التى كانت تجعلها تسيطر على نوع معين من الرجال ٠٠ وقال ارماين مكمـــلا عبارتها : « والــرجل فى التدبير ! » ، بينما كان الطبيب يقول فى نفسه : « والمرأة أيضا فى التدبير ٠٠ بل انها أفضل تدبيرا من الرجل ! »

وثار اعجابه من جـــديد بجرأة مسز تشبستو الطاغيـــة ، وبتحديها الكامل الخفى لشخصه ٠٠ بينما أردف أرماين قائلا فى لهفة : « وما الذى كنت تفكرين فيه ؟ ٠٠ لقد لاحظت كيف كنت مشغولة البال ، حتى وأنت تدلفين الى القاعة ! » ٠٠ فهتفت : « ألاحظت ذلك ؟ ٠٠ لقد كنت أفكر فى حديث تبادلته هـــذا المساء » ٠٠ والتفتت نحو ماير أيزاكسون فى تراخ وتمهل ، وهى تستطرد : « ومن عجب انه كان مع طبيب ! »

فقال ماير وهو يحدق فى وجهها مباشرة : « أحقا ؟ » ٠٠ فأجابت : « أجل » ، ثم أشاحت بوجهها ، وعادت تتحدث الى ارماين قائلة : «لقد ذهبت بعد الظهر الى أحد الأطباء ، يا مستر ارماين ، لأستشيره بشأن صديقة لى حل بها المرض واستبد بها العناء ، فتبادلت واياه أعجب حديث عن الروح والجسد ٠٠ كان أشبه بصراع بيننا ٠٠ وانى واثقة من انه حسبنى مثال المرأة الحمقاء ! »

ـ لماذا ؟

ـ لأننى فيما أظن قد نحوت بموضوعنا منحى عاطفيا ،وأنت تعلم أننا معشر النساء نميل دائما الى الناحية العاطفية ! ٠٠ أما طبيبى هذا فكان ذا آراء علمية بحتة ، ملحدا الى حد يبعث علـــى الهلع ! وكان رأيه اننى متعلقـــة بالأوهام الى درجـــة السخف !

ـ وماذا كان رأيك فيه ؟

ـ أخشى أن يكون رأيى فيه انه مادى صرف ! فقد ظل يعالج الجسد حتى لم يعد بوسعه أن يؤمن بشىء غير الجسد وحده !٠٠ كان يرجع كل شىء الى الجسد ، وكل انفعـــال أو عاطفة ، فى

رأيه ، مبعثها اهتزاز عصب معين فى خلية صغيرة في تلك المادة الرمادية التي يتكون منها المخ ! ٠٠ وأحسبه يعتقد ان الحب مهما اشتد أواره ، يمكن عــلاجه بجراحة ! ٠٠ أما أن تكون للانسان روح خالدة ، فذلك ٠٠ حسنا ، لقد جرؤت ، لأننى بطبيعتى لا أخاف شيئا أو أحدا ، على أن أذكر له مجرد احتمال ان يكون لى شىء كهذا ٠٠ ولكننى أسفت حقا فيما بعد !

ـ هلا أخبرتنا بالسبب ؟

ـ لأن هذا القول جلب علي وابلا من الازدراء ومن المجادلات ٠٠ أما الازدراء فلم أبال به كثيرا ، ولكن المجـادلات هى التى أضجرتنى !

ـ وهل أقنعتك ؟

ـ واها لك يا مستر ارماين ٠ هل عرفت امرأة يقنعهـــا الجدال ؟

فضحك قائلا : « وهل ما تزالين تؤمنين بأن لك روحا خالدة لا تفنى ؟ »

فهتفت : « أكثر من أى وقت مضى ! » ٠٠وراحت تضحك بدورها ، ولكن الضحكة سرعان ما ماتت على شفتيها بغتة ، واكتسى وجهها سمة من الجد والصرامة وهى تقول : « **اننى لن أدع أحدا ـ أى أحد ـ ينتزع منى شيئا من معتقداتى !** » ٠٠ وكانت نبرات صوتها قاسية ، عنيفة فى ضراوتها الفجائية ، ولكنها ما لبثت أن تبدلت تماما عندما استطردت : « لابد لى من قدح من القهوة ، فاننى أنام نوما سيئا ،ولذلك أحب أن أتناول القهوة ٠٠ خالف تعرف كما يقولون ! ٠٠ ثلاثة أقـــداح من القهوة الثقيلة أيها الساقى ! »

فقال ماير أيزاكسون : « لا تحسبى لى حسابا »

ولكنها قالت : « يجب أن تقبل هذه المرة ، فانى أكره أن أفعل شيئا وحدى ٠٠ لن تجد البهجة فى شىء ما لم يكن معك من يشاطرك اياه ! » ٠٠ ورمقت ارماين وهى تستطرد قائلة :

« هذا على الأقل ما تعتقده كل امرأة ! »

ـ ما أكثر النساء التعسات فى هذا العالم !

ـ نعم ٠٠ اللواتى يعشن فى عـــزلة ! فما من رجل يمكنه البتة أن يدرك مدى بؤسهن !

وران الصمت برهة ، اذ كان فى صوت مسز تشبستو عندما نطقت بالعبارة الأخيرة شىء يفرض الصمت فرضا ٠٠ وللمرة الأولى منذ وجوده معها في تلك الليلة ، شعر ماير ايزاكسون انه قد لمح بارقة من حقيقة نفسها ، وانه قد اقترب من أعماق شعورها !

* * *

• وأتى الساقى بالقهوة ، بينما استطردت مسز تشبستو ضاحكة :

ـ حتى الطعام لا تجد المرأة فيه أى لذة اذا تناولته وحدها ! وقبل أن تحضرا الليلة لترثيا لحالى ، شعرت بأننى كنت خليقة بأن أكون أوفر ســعادة لو اننى تناولت طعـاما بسيطا فى حجرتى ، ولكننى الآن أحس بالمـرح والابتهاج ! ٠٠ أليست القهوة جيدة هنا ؟

ولاحت عليها فجأة دلائل المـــرح والسرور ، كأنما تفتحت أزاهير السعادة فى قرارة نفسها ، ثم نظرت الى الطبيب وهى تتابع كلامها : « لا بأس من قضائك ليلة مسهدة واحــدة ، يا دكتور ايزاكسون ! ٠٠ انك قمت بعمل من أعمال الخير ، اذ أدخلت البهجة على نفس بشرية كانت تعانى الكثير وهى تندب حظها فى الحياة ٠٠ فان الحديث الذى تبادلته مع ذلك الطبيب سبب لى انقباضا مروعا ، رغم اننى حاولت ان أقنع نفسى بأن لا أصدق كلمة واحدة مما قاله لى ! »

وكان ماير ايزاكسون يرشف قهوته فى صمت ، دون أن يقول شيئا ٠٠ بينما انبعث ارماين يقول فى حمية : « **اننى أعتقد ان من أبشع الشرور التى يمكن أن يرتكبها انسان فى**

هذا العالم ، هو ان يحاول انتزاع عقيدة صالحة مريحة من نفس المؤمن بها » •• وعندئذ تكلم الطبيب ، فخاطبه قائلا : « أفتؤثر أن تدع الناس وشأنهم اذا رأيتهم يترددون فى الخطأ ؟ •• هب - مثلا - انك ترى أحد الناس •• أحد أصدقائك ، يثق فى شخص تعلم حق العلم انه لا يستحق هذه الثقة •• ألا تبذل أى جهد لانارة السبيل أمامه ؟ »

وكان يتكلم فى هدوء بالغ ، بل فى قلة اكتراث ، فراحت مسز تشبستو تتفرس فيه بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد غفلت عن قهوتها •• بينما قال ارماين : « ربما فعلت •• ولكنك تعرف نظريتى » • فقال ماير ايزاكسون : « آه ! حقا ! » • وابتسم ، بينما كانت مسز تشبستو تنقل أنظارها بينهما فى سرعة • وما لبثت أن قالت : « أية نظرية ؟•• لا تجعلانى أشعر بأنى دخيلة بينكما ! »

- أن مستر ارماين يظن •• هل تسمح لى يا ارماين ؟

فهتف هذا : «بلا شك» •• واذ ذاك استرسل الطبيب قائلا : « **انه يظن أن الايمان بطيبة الناس ونقاء سريرتهم يساعدهم على أن ينقلبوا طيبين أنقياء ، بحيث يمكن أن نجعل من الشرير انسانا فاضلا بمجرد الثقة فيه ، وهى ثقة ربما وضعت فى بادىء الأمر فى غير موضعها !** » •• فبادرت مسز تشبستو قائلة : « ان مستر ارماين •• » ، وأمسكت لحظة ، ثم أردفت تقول فى رقة : « **مما يؤسف له ان العالم ليس مليئا بأمثال مستر ارماين** » •• وتورد وجه ارماين ، كأنه غلام غرير ، بينما استطردت المرأة قائلة : « ليت طبيبى هذا كان يعرفك يا مستر ارماين •• فانك اذا كنت تبنى وتخلق بايمانك ، فانه - فيما أعتقد - يهدم ويدمر بكفرانه ! » •• وفيما كانت تنطق بكلماتها الأخيرة ، التقت عيناها بعينى ماير ايزاكسون ، فرأى فيهما ، أو خيل اليه انه يرى فيهما ، تحديا مليئا بالوعيد !

وبدأت أضواء القاعة تخفت رويدا رويدا ، فهبت مسز

تشبستو قائمة وهى تقول : « لســـوف يطردوننا من هنـــا ، فلنسبقهم الى الانصراف من تلقاء أنفسنا ٠٠ **وانه لأمر مروع أن يطرد الانسان من مكان ما ، فذلك يجعلنى أشعر بنفسى أشــبه بحواء فى اللحظة الحاسمة من رسالتها السامية ! »**

و مضت أمامهما نحو الباب ٠٠ وفيما كانت تمر بين الموائد ، راح كل رجل ، وكل امـــرأة ، يدير رأســـه ليحدق فيها كما يحدق الأطفال فى ملهاة تثيرهم ! ٠٠ وكانت تبدو غافلة تماما عن الاهتمام الذى أثارته ، ولكنها عندما وقفت تودع الصديقين فى البهو ، قالت : « أليس الناس مزعجين أحيانا ؟ انهم يبدون وكأنهم يظنون المرء ٠٠ » ، وسكتت ، ثم تنهدت قائلة : « يا لى من بلهاء ! طابت ليلتكما ، وشكرا لكما على الحضور ، فقد نالنى من ذلك خير عظيم ! » ٠٠ فقال ارماين فيما يشبه الهمس ، وهو يمسك بيدها فى راحته : « لا تبالى بهؤلاء الوحوش ، ولا تفكرى فيهم ، بل فكرى فى ٠٠ الآخرين ! »

فتطلعت اليـــه فى صمت ، ثم أومأت برأسها ، ومضت فى هدوء !

وما أن انصرفت مسز تشبستو ، حتى قال ماير ايزاكسون لصديقه : « حسنا ، طابت ليلتك يا ارماين ٠٠ اننى ســعيد لعودتك من الخارج ، وأرجو أن نلتقى كثيرا »

ـ لا تذهب الآن ٠٠ تعال الى حجرتى لندخن قليلا !

ـ من الأفضل ألا أفعل ، اذ ينبغى أن أستيقظ مبكرا ، فقد اعتدت التريض على جوادى فى السابعة والنصف

ـ سوف أركب معك اذن

فتساءل الطبيب : « غدا ؟ » ٠ واذ أجابه صديقه : « أجل » ، قال : « ولكن هل اقتنيت جيادا ؟ » ، فأجابه : « كلا ، وانمــا سأستأجر واحدا من ســـيموندس ٠٠ ولكن لا تنتظرنى ، بل ابحث عنى عند نادى التجديف ٠ والآن ، طابت ليلتك أيهـــا الصديق القديم ! »

وظلت أيديهما متماسكة لحظة ، عندما استطرد ارماين : « ألم أكن على حق ؟ » . فتساءل الطبيب فى عجب : « على حق ؟ »

ـ بشأنها .. بشأن مسز تشبستو ؟ **ربما كانت قد سيقت رغم أنفها بين يدى الشيطان ! ولكن ألا ترى .. ألا تشعر بالخير المستقر فى أعماقها ، والذى يناضل فى قوة ، ويتوق الى فرصة تتيح له ان يظهر ويبرز ، وان يمسك بأعنة حياتها فيقودها الى الهدوء والسعادة والاستقرار ؟!** اننى أرثى لهذه المرأة يا ايزاكسون ! شد ما أرثى لها !

فقال ايزاكسون وهو يشدد الضغط على كلماته : « لك أن ترثى لها اذا شئت .. أما أنا .. »

ولكنه تردد برهة ، اذ رأى فى وجه صديقه شيئا جعله يكف عن المضى فى كلامه .. شيئا أنبأه بأن من الحكمة ألا يمضى فى الحديث الى أبعد من ذلك ، فان المعارضة تعمى بصيرة بعض الطبائع ، وتدفعها الى الأمام .. ومثل هذه الطبائع ينبغى أن لا تواجه بالمعارضة ، ومن ثم فانه استأنف كلامه قائلا : « وأنا أيضا أشفق عليها حقا .. يا للمرأة المسكينة ! »

وكان صادقا فيما قاله ، ولكن اشفاقه لم يكن من ذلك النوع الذى يقترن بالحب !

* * *

• **كانت** القهوة الثقيلة ـ التى استطاعت مسز تشبستو أن تغرى ماير ايزاكسون على تناولها ـ سببا فى أن ظل مسهدا فى تلك الليلة .. كانت أشبه بجرعة منكرة نفت النوم عن عينيه ، وعمرت الليل بحشد من الأفكار المتدافعة ، فلم يلبث الطبيب أن كف عن محاولة اجتلاب النعاس ، واستسلم لهذا الحشد فى غبطة يشوبها شىء من الحنق ! .. فلقد كان ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ فى حيرة خفية ازاء مسز تشبستو ، وكان يتساءل فى عجب عن السبب المستتر الذى حدا بها الى أن تطلب لقاءه في

عيادته . أما بعد ذلك الحديث ، الذى دار فى الليل ، فقد بات موقنا من هذا السبب . وما لم يكن مخطئا .. ما لم يكن قد أساء فهم هذه المرأة تماما ، فهى انما توشك أن تقوم بمغامرة جريئة عجيبة : **لقد رأت نيجل ارماين ، وقرأت طبيعة نفسه الغريبة ، كما ينبغى أن تقرأ ، فأدركت ان فى أعماقه رجلا لا يشبه سائر الرجال .. رجلا كان مولعا ـ بفطرته ـ بأن يسير فى عكس اتجاه التيار ، وأن يتحول بطبعه نحو ما يتحول معظم الرجال عنه ! .. رأت فيه رجلا جبل على احتضان القضايا الخاسرة .. وقد كانت حياتها قضية خاسرة ، ومن ثم كان نيجل فرصتها السانحة !** ولقد حدثها منذ أيام أربعة عن ماير ايزاكسون ، وكان فى وسع الطبيب أن يحدس ذلك الحديث ، اذ كان يدرك تحمس صديقه له ..

والمرأة الذكية تغريها الكوارث على أن تسىء الظن بالناس ، ومن ثم فانها لم تشأ أن تأخذ حديث نيجل على علاته ، ودفعتها الغريزة النسوية الى أن تستطلع شخصية الطبيب كما يرتاد المرء بلدا غريبا سمع عنه الكثير .. لذلك كان شعور الطبيب صادقا حين خيل اليه ـ وهو يجلس الى مسز تشبستو فى ميدان (كليفلاند) ـ ان المريضة هى التى كانت تفحصه . فقد قرأت أفكاره فى سهولة ودقة ، ثم راحت تعامله على ضوء ما اكتشفت ـ بهذه السرعة المدهشة ـ من معرفة به ، فكشفت له عن دخيلتها ، وأظهرته على حقيقة نفسها .. لماذا ؟ .. لتخرس فمه فى المستقبل ! **فانها اذ أفشت له أسرارها ، صورتها فى صورة أعراض من المرض صارحته بها بوصفه طبيبا .. أنبأته بحقيقة نفسها فى غرفة الاستشارة بعيادته ، حتى لا يستطيع أن يفضى بتلك الحقيقة للغير ، ولنيجل ارماين بالذات !** .. ولقد أدهش الطبيب اعتدادها الكامل بمقدرتها على قراءة نفوس الناس ، بل وأثار اعجابه . فقد كان فى هذا الاعتداد ميل الى القوة والجرأة ! كذلك كان ينظر اليها من الناحية الفنية فيقدرها كل التقدير ..

وها هى ذى قد أظهرته – فى لقائهما بالمطعم فى تلك الليلة – على مزيد من جرأتها البالغة !

وراح – فى حلكة الليل – يتمثل وجهها الناصع البياض ، ووميض عينيها اللتين زادهما تألقا ما رسم تحتهما من ظلال ، بينما كانت تروى لنيجل تلك السلسلة من الأكاذيب عن الحديث الذى دار بينها وبين الطبيب ، بعد أن قلبت الأوضاع ووضعت نفسها فى مكان الطبيب ، ووضعته فى مكانها ! لقد كانت تستمتع بما فعلته .. كانت تستمتع به فى قرارة نفسها ، وبذلك اضطرت الطبيب الى أن يرقص على أنغام مزاميرها ، فألفى نفسه مسوقا الى مسايرتها فى الخداع ، بل والى تأييدها ! .. وأدرك ماير ايزاكسون اذ ذاك السبب فى جلوسها وحيدة الى مائدة العشاء ، وفى حديثها عن سوء حظها فى الحياة ، وهجران الرجال اياها .. كانت تفعل ذلك لتطرق المعدن النادر الذى اكتشفته فى قرارة ارماين .. وكانت بارعة – فى ذلك – كل البراعة . ولكنها بعملها أحرقت سفنها وقطعت على نفسها خط الرجعة !

وقطب ماير ايزاكسون حاجبيه فى الظلام .. ان امرأة من طراز مسز تشبستو لا تحرق سفنها هباء ، فالى أى مدى يبلغ ما كانت تتوقع أن تفيده من هذه التضحية بكبريائها الزائفة ، وهى كبرياء تكاد تكون أعز من الحياة عند امرأة من طرازها ؟! .. ان لذلك مقابلا .. فماذا يمكن أن يكون هذا المقابل ؟

وفيما كان يرقد مستيقظا ، والليل يمشى متمهلا صوب الفجر ، أحس بالخوف يملأ قلبه على صديقه نيجل ارماين !

الفصل السادس

◆ كانت حجرة استقبال مسز تشبستو – بفندق سافوى – مزخرفة باللونين الوردى والأخضر الفاقعين ، وهو ما كان يلائم خطتها الحالية بالنسبة

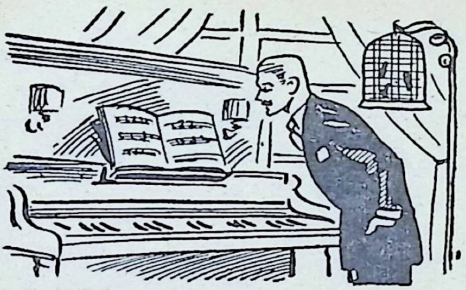

للألوان ! وكان فيها معزف صغير من الخشب الاحمر ، وضعت عليه نسخة من « حلم جيرونتيوس » ـ من تاليف « الجار » ـ وقد فتحت عند هذه الكلمات : « امضى فى رحلتك ايتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم ! » ٠٠ وفى ارجاء مختلفة من الحجرة ، تناثرت مجلات وصحف متباينة : كتاب « القرن التاسع عشر وما يليه » ، ومجلة تصدر كل ثلاثة اشهر ، و « التايمس » ٠٠ وكتب عديدة مثل « فاوست » ، لجيته ، و « الموجز فى الآثار المصرية » ، لماسبيرو ، و « الرفيق فى الدراسات اليونانية » ، و « قوى كالموت » ، لجى دى موباسان ، و « انتصـــار الموت » ، لدانونزيو ، و « الحـــرف القرمزى » لهوثورن ٠٠ كما كانت توجد نسخة من « مقالات ايمرسون » ٠٠ وفى سلة صغيرة تحت المكتب ، كان العدد الاخير من « وينينج بوست » ممزقا فى عناية ! ٠٠ واستقرت فى احدى الزهريات بضع ورود وردية اللون ، بينماكانت بعض عصافير الكناريا تغرد فى قفصها

وكان الأثاث قد نسق بيد بارعة ، بحيث فقدت الحجرة شيئا من نظامهـا كحجرة فى فندق فاخر !٠٠ وكانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، تفضى الى الشرفة المطلة على جسر نهر (التيمس) ، بينما اخــذ يهب من ناحية النهر نسيم رقيق يحرك الستائر الهفهافة ، ذات اللونين الأبيض والأخضر ، التى كانت تحيط النوافذ باطار بديع ٠٠ والى هذه الحجرة الانيقة التى شاعت منها بهجة هادئة ، اقتيد نيجل ارماين فى الساعة الخامسة والنصف تماما ٠٠ قاده اليها احد الخدم ، ثم تركه ليبلغ نبا مقدمه الى مسز تشبستو

وما ان اغلق الباب وراء الخادم الألمـانى ، حتى وقف نيجل يقلب الطرف حواليه ٠٠ كانت هذه هى زيارته الاولى لمسز تشبستو ، فراح يحـاول ان يستشف معالم شخصيتها خلال هذه الحجرة التى كانت تعيش فيها ٠ وخيل

اليه انها تبدو اكثر اناقة من حجرة فى فندق ، على الرغم من انه لم يتبين ـ كما كان ايزاكسون خليقا بان يتبين للتو ـ ان الأثاث قد نسق ببراعة فائقة !.. وهامت عيناه فى جولة سريعة فى أنحاء الحجرة .. لا صور ولا لوحات ، ولا وشى ولا تطريز .. بعض الوسائد المتناثرة .. طيور .. بضع ورود جميلة.. كتب قليلة فاخرة التجليد .. النوافذ مفتوحة لتدع الهواء يتدفق الى داخل الحجرة .. واخيرا ، معزف مفتوح

ومضى نحو المعزف ، وانحنى فوقه متاملا ، فاستقبلته تلك العبارة : «امضى فى رحلتك ايتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم ! » .. اذن فهى تحب « حلم جيرونتيوس » ؟ .. ذلك التعبير الموسيقى الدقيق عن حيرة الروح وشعورها بالاغتراب !.. ولم يتذكر انه حدثها عن حبه لهذه القطعة !.. ووقف برهة يحدق النظر الى « النوتة » الموسيقية .. وكان النسيم يهب من النهر السحيق فيحرك الستائر فى حفيف رقيق ، والطيور تغرد حينا بعد حين ، غير ان نيجل لم يكن يسمع هذا التغريد او ذلك الحفيف ، وانما خيل اليه انه يسمع صوت القس وهو يقف الى جوار المحتضر .. وكان وهو ينظر الى سطور « النوتة » التى تحمل أنغام اللحن ، حيث كان القس يأمر روح المحتضر بان تعود الى خالقها ، يخال انه كان ينصت الى اللحن كما انصت اليه من قبل ، عندما عزفته فرقة موسيقية كبيرة .. وداخله شعور برهبة الموت .. وجماله رغم ذلك !

وما لبث ان اجفل بغتة ! كان قد انطلق فى الفضاء مع الروح ، ولكنه فطن فجاة الى انه كان مقيدا بجسده الى الارض .. الم يسمع حفيف ثوب يعلن عن مقدم صاحبته ؟.. ونظر صوب الباب الثانى للحجرة .. الباب الذى كان من المحتمل انه يؤدى الى حجرة نوم ، ولكنه كان مغلقا . وقد ظل مغلقا ..فسار قليلا مبتعدا عن المعزف . ترى ما هى الكتب التى كانت تولع بقراءتها ؟.. ايمرسون الذى كان يبشر بالتفاؤل فى قفازات الملاكمة ؟! ماسبيرو ؟ انها اذن معنية بالشئون المصرية ؟ « فأوست » ؟ .. موباسان ودانونزيو وهوثورن.. « الحرف القرمزى » ؟.. وامسك بالكتاب الاخير ، وكان صغيرا مجلدا بغلاف أبيض ! .. لقد عرف هذا الكتاب مرة ، اذ قرأه منذ عهد بعيد .. أما الآن ، فقد راح يلقى نظرة عاجلة على صفحاته .. هستر برين وآرثر ديمزديك .. وتذكر القصة فجاة .. خطيئة الجسد ، والحرف القرمزى الذى وسم الخطيئة على صدر المراة ، بينما مضى الرجل بمنجاة من العقاب !

وها هى مسز تشبستو تقتنى الكتاب ، فى غلاف أبيض !

★ ★ ★

◆ « اتراك تحكم على شخصيتى من الكتب التى اقراها ؟ ».

انبعث الصوت ينطق بهذه الكلمات من ورائه ، دافئا ، رقيقا ٠٠ وكانت المراة قد دخلت الحجرة ، ووقفت ملاصقة له ، فى ثوب أبيض وقبعة سوداء ، وقد امسكت فى يدها بمظلة بيضاء ٠٠ وكانت تبدو فى وضح النهار اشد شحوبا منها فى الليل ٠٠ وكان شعرها الفاقع اللامع مغطى بخمار رفيع احتفظت به مسدلا على وجهها وهى تحيى نيجل ٠٠ واستبقى يدها فى يده لحظة - بعد ان صافحها - وهو يقول : « انه ليس حكما ، بل مجرد استنتاج ٠٠ او لعله حدس وتخمين ! »

- أيها ؟ « الحرف القرمزى » ؟ لقد حصلت عليه فى العام الماضى وقراته ٠٠ فلما فرغت من قراءته أرسلته ليجلد فى غلاف أبيض !

وسالها : « ولم ذاك ؟ » ٠٠ فقالت - مقتبسة احدى عبارات تلك القصة : « على الرغم من أن خطاياك ستكون فى لون قرمزى ٠٠٠ » ٠ وظل نيجل صامتا ، وهو يرمقها بأنظاره ، فاستطردت تقول : « هيا نتناول الشاى ! »

ومضت فى مشيتها البطيئة المتراخية - التى لاحظها ايزاكسون - نحو المدفاة ، حيث ضغطت الجرس الكهربائى ، ثم جلست على أريكة بجوار قفص العصافير وقد اولت الضوء ظهرها ٠٠ واذ كان نيجل يدنو ليجلس بالقرب منها ، أردفت قائلة : « انك - ولا ريب - مشغول بالدعوات والمواعيد ، فمعظم الناس كذلك فى هذا الوقت من العام ٠ وينبغى أن يحمد المرء حسن طالعه اذا استطاع أن ينال خمس دقائق من وقت أى امرىء آخر ، فى هذه الايام ٠٠ وانى لأذكر ذلك العهد البعيد ، عندما كنت واحدة من « المشغولين » ٠٠ فقد اعتدت ان أتلقى شكر العبد لسيده عن كل دقيقة كنت أتصدق بها ! آه ! شد ما تتبدل الامور ! »

ولم تتنهد ، وانما ضحكت ! ولم تدع له الفرصة لأن يقول لها شيئا ، بل تابعت القول : « واى كتبى الاخرى رأيت ؟ »

- ارى ان لديك كتاب ماسبيرو

- آه ! ولكننى لم ابتعه الا لأننى التقيت بك ٠٠ وقد استولى على عقلى بما أورده عن مصر التى لم أرها البتة رغم اننى طفت بيختى بأرجاء العالم ٠ وقد جفا النوم عينى بعد ان افترقنا فى الليلة الماضية ، فجلست هنا ورحت اطالع فى كتاب ماسبيرو وافكر فى حياتك المصرية ! ٠٠ لم اقصد ان اكون متطفلة ٠٠ ولكن لابد للمرء من أن يشغل نفسه بشىء ما !

فهتف : « متطفلة ؟! » ٠٠ فاجابت وفى نبرات صوتها المتراخى لون من الاعتذار : « ذلك لأن الناس اصبحوا ٠٠ غريبى الأطوار ! وانى لأذكر وقتا كان فيه الكثيرون منهم مشغوفين - الى حد الجنون - بعكس ما يستهويهم اليوم ٠٠ فكانوا يعتبرون تفكيرى فيهم شرفا وتكريما لهم ! ولكننى لم اكن اذ ذاك قد بلغت الثامنة والثلاثين ، وكنت من نجوم المجتمع »

واقبل الساقى الألمانى يحمل معدات الشاى ، فما كاد يفـــرغ من تنظيمها وينصرف لشانه حتى قال نيجل فى شىء من التهيب والاحجام : « كم اعجب لأنك لا تعيشين فى الريف ! » ٠٠ فقالت : « اننى افهم ما تعنيه ، ولكنك تخطىء الظن ٠٠ فالانسان اشد شعورا بالوحشة هناك » ٠٠ وقدمت اليه قدح الشاى فى رقة ، وفى حركتها ما يوحى بالحرص على راحته ، وبشعورها بالسعادة فى خدمته ، ثم استطردت : « سوف تجد القس مضطربا وزوجته فى فزع مروع ٠٠ و « السيدة » زوجة الطبيب تحاول – رغم لهفتها الى نقود المريض – أن تمنع زوجها من العناية به وهو على فراش الموت ٠٠ اما سيد المقاطعة فهو ، برغم الرغبة المتاججة فى اعماقه ، رجل محترم ، بطبيعة الحال ! وهو دعامة الآداب العامة فى المقاطعة ، كما ان زوجته « دعامتان » معا ! ٠٠ والجيران فى مجموعهم يستجيبون للشعور العام ، فلا يلبث المرء أن يجد نفسه « مغروسا » وحده كقمر منفرد تحيط به هالة من النار المضطرمة ! ٠٠ لقد خبرت هذه الحيـاة يا صديقى العزيز ٠٠ وصدقنى ان (مصر) أو (اوماها) أو اى مكان آخر افضل منها بكثير ٠٠ آه ! انك لا تاكل شيئا ٠ خذ واحدة من هذه الكعكات الصغيرة ، فانها طيبة المذاق حقا ، وقد امرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة ! »

وقدمت له الطبق وهى تبتسم ، بينما كان نيجل يهتف فى قوة وحـــرارة لا تتفقان البتة مع نبراتها الناعمة الضاحكة : « اننى اعتقد ان (مصر) افضل بكثير ! لماذا لا تذهبين الى هناك ؟ لماذا لا تجربين الحياة الطليقة الحرة ؟ »

– اعيش بين القبائل كما تفعل الليدى هيسترستانهوب فى لبنان ؟! اخشى أن لا استطيع البتة ان أعود نفسى لبس العمامة ! ٠٠ وفضلا عن ذلك فان مصر الآن قد أصابت حظا وافرا من المدنية ، واصبح كل انسان يذهب اليها ٠٠ وسوف يقاطعنى الجميع على طول نهر النيل !

وازعجته صراحتها القاسية ، بل آلمته واكربته ! ٠٠ وخيل اليه لحظـة انه يستشف ما تعانيه من زهد فى العيش ، بينما واصلت حديثها وقد تجـرد صوتها من نعومته وتراخيه : « انك محق ، ولكن كيف يتسنى للمرء ان يكون حذرا حريصا فى حديثه حتى لا يؤلم الآخرين ؟ ٠٠ لقد كنت دائما ، حتى فى ايام شبابى الباكر ، أكره التظاهر والادعاء ٠٠ والنساء عادة متصنعات بطبيعتهن ، وهن حكيمات فى ذلك ، ولكننى لم اكن حكيمة قط ! ولو اننى كنت على شىء من الحكمة لما تركتك تدرك ما فى موقفى من وحشة وسخف وهوان ! » ٠٠ ثم استدارت فجأة ، بحيث انصب ضوء النافذة عليها ، ورفعت خمارها فوق حافة قبعتها ، وتابعت القول : « ٠٠ ولما اتحت لك ان ترى وجهى وقد ارتسمت عليه جميع صنوف الشقاء والأحزان ٠٠ ولكننى لم اكن أجيد التصنع وانا فى الثامنة عشرة ، ولا ازال بعيدة عن أن احذقه وانا فى الثامنة والثلاثين ٠٠ ولا

عجب ان كان كثير من الرجال ـ من الطراز الذى تلقاه فى ناديك الخاص ، او فى (مارلبورو) ، او فى نادى العزاب ، او نادى الرحالة ـ يلقبوننى ب « المراة البلهاء » ! .. والواقع اننى امراة بلهاء .. حمارة صغيرة .. صغيرة جدا ! »
وذابت الصرامة من صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، وعادت تبتسم من جديد .. وتحرك راسها كانما تتفكه بتوكيد الصفة التى اطلقتها على نفسها.. وعندئذ لاحت اشبه بفتاة غـريرة ! .. واستطردت تقـول : « ولكن صفة « الصغيرة » تنطبق على عقليتى فقط ، لا على جسدى .. ام لعل الأصوب ان اقول انها تنطبق على روحى بدلا من جسدى ؟ »
ـ كلا .. فان « الصغيرة » صفة خاطئة لروحك !
فبدا التاثر على وجه مسز تشبستو ، ثم تحولت عن الضوء ثانية ، ولكن بعد ان راى نيجل انها قد تاثرت لكلماته ! .. ولاح عليها انها كانت تبذل جهدا فى تغيير مجرى الحديث ، وهى تقول : « هل رايت صديقك الدكتور ايزاكسون اليوم ؟ .. اننى اميل الى هذا الرجل ، على الرغم من انى امقت اليهود عادة ، بسبب جشعهم وحبهم المفرط للمال .. اننى اميل اليه حقا ، واشعر ـ على نحو ما ـ انه قد مال الى بدوره فى الليلة السالفة .. كانما قد خالجه شعور من العطف حيالى ! »
ـ ان ايزاكسون رجل عظيم .. ولكنى لم اره ثانيـــة ، اذ دعى الى خارج المدينة لعلاج حالة عاجلة .. وقد كنا على موعد للنزهة على ظهور الجياد هذا الصباح ، ولكنه بعث الى يخطرنى باســـتحالة ذلك .. وعلمت انه ذهب الى الريف
ـ وهل تطول غيبته ؟
ـ لست ادرى .. وارجـــو الا يكون الأمر كذلك ، اذ اننى فى اشـد الحاجة اليه ..
ـ احقا ؟
ـ اعنى اننا متوافقان فى كثير من الأمور .. والأرواح المتآلفة نادرة الآن !
ـ لا ريب فى ان لك جيشا من الأصدقاء ، فانك رجل الرجال !
ـ لست ادرى .. ولكن ما هو رجل الرجال ؟
ـ انه الرجل من طرازك !
فقال وهو يدنو بمقعده قليلا منها : « ورجل النساء ؟ » .. فاجابت : « من كان رجلا للرجال فهو كذلك رجل للنساء ! »
ـ لقد قلت انك لا تعرفين التصنع والادعاء .. افلا تعرفين الاطراء والمداهنة ؟
ـ قد استطيع أن أتصنع الى هذا الحد ، بل اننى افعل ذلك احيانا .. ولكن لماذا أحاول أن اداهنك ؟ .. لست اعتقد انك تحفل بذلك قيد شعرة ، فانت تحب الحقيقة الرقيقة .. ومنذا الذى لا يحبها ؟ .. وانا لم ازد على ان قلت

لك الحقيقة !

ـ شد ما اود ان اقول لك بدورى بعض الحقائق الرقيقة ..

ـ اخشى الا تجد ، انت او غيرك ، الكثير مما يقال من ذلك ! .. ومع هذا فانى اذهب الى القول بانه يوجد من هذه الحقائق واحدة او اثنتان ، لأننى اعتقد ان فى كل شخص منا قدرا من الخير المتاصل فى اعماق نفسه .. قدرا ضئيلا - قد لا يرى تقريبا .. شعلة صغيرة ، ولكن اى مقدار من الماء لا يكفى ـ مهما تكن وفرته ـ لاطفائها !

ـ اعلم ذلك !

ـ آه ! ولكن هذه الشعلة الصغيرة من الخير المتاصل تحتاج الى من يتعهدها بالاعزاز ، والرعاية ، والعطف ، فى كل وقت !

وتناولت قدحه فى عجلة ، وبدات تصب له فيه مزيدا من الشـــاى ، كمن الحجله الاندفاع فى ابداء شعوره ، فهو يحاول ان يغطى موقفه بان يشتغل باى شىء .. وما لبثت ان قالت فى نبرة مختلفة ، وفى صوت ملء بالفتور والبروه ، هو الصوت الظاهر البراءة للغانية المدربة : « احضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى يوما ما ، اذا رغب فى الحضور »

واحس نيجل بان المراة الحقيقية قد طفت فوق السطح لحظة ، ثم ما لبثت ان غاصت ثانية الى اعماق مسز تشبستو التى بدت وكانهـــا خجلى من تلك المراة الحقيقية ! وود لو يقول لها ذلك ، وان يقول لها « لا تخجلى ، ودعينى ارى المراة الحقيقية .. المراة الطيبة الخيرة .. انها المراة التى ابحث عنها عندما اكون قريبا منك » .. ولكنه لم يجرؤ على توجيه هذه اللطمة لحيائها وتحفظها، فقال فى هدوء : « ساحضر ايزاكسون .. فانى اريده على ان يعرفك على حقيقتك. لماذا تبتسمين ؟ »

فقالت : « ولكن .. ولكننى لا ابتسم ! » .. ولم تكن تبتسم حقا .. واذ راى دهشتها ورصانتها الهادئتين ، عجب من انه خيل اليه ذلك .. بينمـــا استطردت هى تقول : « ينبغى ان اخبرك انه على الرغم من ارتياحى الى الدكتور ايزاكسون فلست اعتقد انه يماثلك .. لست اعتقد انه عالم نفسى ! »

فقال نيجل فى دهشة حقيقية بالغة : « وهل تعتقدينني عالما نفسيا ؟ »

ـ نعم ، وسوف اخبرك بالسبب اذا وعدتنى بالا تغضب !

ـ ارجوك .. ارجوك ان تقولى ؟

ـ فى رايى ان المرء يمكنه ان يقرا اخلاق الغير بعينى قلبه ، بمثل ما يقراها بعينى عقله وبصيرته .. اما انت فتستخدم العيون الأربعة فى قراءتك ! .. ولكنى لست واثقة من ان الدكتور ايزاكسون يفعل مثلك !

ـ لماذا سالتنى الا اغضب ؟ .. احسبك كنت تعنين شيئا آخر ثم عدلت عنه .. وانك لعلى حق فيما اردت قوله ، فان ايزاكسون رجل متوقد الذكاء ،

فى حين اننى لست كذلك .. ولكنه اوتى من حساسية القلب مثل ما اوتيت ، وان فاقنى فيما اوتى من العقل .. وكلما ازداد كل من العقل والقلب قوة ، كان فى هذا الخير كل الخير للرجل !

ـ ولكن العقل .. آه ! ان له ميلا جارفا الى ان يظلل القلب بسحابة كثيفة وان يخذله .. وهو كلما ازداد قوة اشـتد طغيانا وجبروتا ! .. اما انت فاحسبك بين بين ، فالقوتان تتعادلان عندك .. فكن قنوعا ، ولا تدع عقلك قط يصيح فى طلب المزيد ، والا اجبرت قلبك على ان ينال اقل القليل !

ـ انك تحسنين الظن بى اكثر مما استحق .. اكثر مما استحق بكثير !

فانحنت الى الأمام فوق منضدة الشاى وراحت تتفرس فيه عن كثب ، بتلك النظرة الفاحصة الغريبة التى تبدر من المرء عندما يركز تفكيره فى امـر من الأمور ، فلا يكاد يفطن الى ما يفعله .. وقالت : « اتراني افعل ذلك حقا ؟ ».. وشعر كانها تحاول ان تنتزع قلبه منه لترى كيف يخفق ! وعادت تردد : « هل افعل ذلك حقا ؟ »

★ ★ ★

◆ وما لبثت ان ارخت عضلاتها المتوترة ، واسندت ظهرها الى الخلف وقد تركت يدها تهوى الى جانبها ، بعد ان كانت تتشبث بحافة المنضـدة .. ثم استطردت قائلة : « لعل الأمر كذلك .. فمن المحقق اننى احسن الراى فيك ، واخشى اننى غالبا ما اسىء الظن بالرجال .. ومع ذلك فاننى احاول ان اكون عادلة ، وان لا اضع القلنسوة السوداء وحدها على راسى (١) بسبب تجـاربى السابقة السيئة الطالع ! .. فهناك رجال ظرفاء .. ولكن هناك ايضا رجالا كالوحوش الكاسرة .. ولا ريب انك تعرف ذلك ، ولو انى اشك فى ان رجلا يستطيع ان يعرف ما اذا كان اى رجل آخر طيبا ام شريرا .. وانما ينبغى ان يكون المـرء امراة حتى يحسن الحـكم على الرجل .. الرجل .. وحشا كان ام ملاكا ! »

فقال : « لعلك على صواب » .. وكان يتكلم فيما يشبه الاقتناع ، اذ كان طوال الوقت الذى قضاه معها يشعر باحساس غريب ، غير مالوف ، يوحى اليه بانها كانت تفهمه على حقيقته ، وان افضل ما فيه كان يمتدح عن حق ، ويقدر اعظم تقدير ! وقد بعث هذا الشعور الدفء الى عقله وقلبه ، كما تبعث الخمر المعتقة الدفء فى الجسد ! .. وما لبث ان قال : « اننى واثق انك على صواب » ثم وضع قدحه على المنضدة .. وتولته فجاة الرغبـة فى الانصراف ، وفى

---

(١) يرتدى القضاة فى انجلترا قلنسوة سوداء كلما هموا باصدار حكم بالاعدام

الانفراد بنفسه ! ورأى الستائر تتحرك فى رفق عند النوافذ ، وسمع الأصوات الخافتة البعيدة الصادرة عن حركة المرور فى المدينة · وراح يفكر فى النهر ، وفى الغروب ، وفى السفن المتارجحة على صفحات الأمواج وهى تجرى بدفع المد و الجذر ، وفى مئات الدوامات التى تملأ النهر ! ·· كانت الأفكار تتلاطم فى راسه ، والأحاسيس تتجاذب فى قلبه ، تماما كهذه الدوامات ! ·· الم يكن تيار الزمن يدفعها قدما ، صوب بحار الحركة والعمل الفسيحة ؟ ·· وشعر بقلبه فجاة وقد غزاه حنين نحو الفضاء الشاسع ·· حنين كان قوام حياته ، ولو انه كان يغفو قليلا فيستقر فى دعة ·· حنين نحو الفضاء الشاسع المترامى على مدى البصر ، كذلك الذى يحسه البدوى فى الصحراء التى يحبها وينتمى اليها ·· حنين نحو الآفاق الواسعة فى العاطفة ، وفى العمل ، فان السعة الیق شیء بالرجال : السعة فى التفكير ، والسعة فى العيش ! ·· ان المكان الطبيعى للرجل ، ليس فى حجرة استقبال العالم ، وانما فى صحراء العالم ، بواحاتها البديعة !

ومع ذلك فها هو ذا فى حجرة استقبال ·· وهو فى هذه اللحظة يحس بحنين قوى الى الخروج منها ، ولكنه يتوق ايضا الى ان ياخذ هـذه المراة من يدها ويجذبها الى الخارج معه ·· وذكر كيف ان الشاعر « براونتج » أحب امراة كانت ترقد دواما فى حجرة كالقبو ، وقد برح بها المرض حتى انها لم تكن تملك ان ترى ضوء الشمس او ان تتنفس هواء الدنيـا الطلق ، وكيف ان الشاعر حملها من هذه الحجرة الى قمم جبال (الابنين) ·· فان مجرد التفكير فى تغيير حياة انسان على هذا النحو كان اشبه بصيحة فرح عالية !

ـ ماذا هنالك ؟

هتفت مسز تشبستو بهذه العبارة ، وقد دهشت لهذا البهاء الذى شع فجاة من وجه نيجل ·· كانت ترى امامها ـ للمرة الأولى ـ رجـلا لا تستطيع قراءة افكاره ، ولكنه كان رجلا يروق لها مظهره الجسمانى ، ويضطرها الى الاعجاب به ·· وقد بدا رائع البهاء تحت تاثير سلطان داخلى ، كرياضى نصف عار يملأ رئتيه فى بطء ، ويشدد الضغط بقبضتيه ، ويصلب عضلاته كلها ·· وعادت تسال : « ماذا هنالك ؟ »

ولكنه لم يجب ·· وما كان فى وسعه ان يخبرها ، فنهض لينصرف · وفيما كان يمر امام « البيانو » ، نظر ثانية نحو النوتة الموسيقية للحن « حـــلم جيرونتيوس » ·· ثم سالها : « امولعة انت بهذا ؟ » ، فهتفت : « ماذا ؟ آه ·· جيرونتيوس ! » ·· وتركت نظراتها تستقر برهة قصيرة فوق وجهه ، ثم اردفت : « اننى احبه ، فهو يحملنى بعيدا ، كما تحمل الروح على اجنحـــة الملائكة ·· « لقد اعطيت هذا الطفل من الصلصال » ·· هل تذكر ؟ » ، فلم يزد على ان قال : « نعم »

ثم ودعها وهم بالانصراف .. وكان آخر ما وقعت عليه انظاره فى حجرتها كتاب « الحرف القرمزى » بغلافه الأبيض ، وقد استقر فوق منضدتها .. ونقل نظراته من الكتاب اليها ، قبل ان يخطو الى الخارج ويغلق الباب خلفه . وما كاد يستدير فى الممر ، حتى رأى فتاة فرنسية انيقة الهندام ، كانت عيناها شديدتى الاحمرار ، مما نم جليا على انها ظلت تبكى بمرارة فترة طويلة .. وكانت تحمل على ذراعها ثوبا نسائيا ، وتهم بدخول الغرفة التى تتصل بحجرة استقبال مسز تشبستو ، فغمغم نيجل يقول لنفسه : « يا للفتاة المسكينة ! ترى ما الذى دهاها ؟ » . ومضى يجتاز الدهليز ، وينحرف يسارا ، ثم يهبط الدرج ويشق طريقه نحو شاطىء (التيمس)

اما مسز تشبستو فقد ظلت - بعد ان اغلق الباب خلفه - واقفة مكانها بالقرب من المعزف لحظة تنتظر ، كمن يتوقع عودة ضيف راحل .. ولكن نيجل لم يعد ثانية ليقول كلمة اخيرة نسى ان يقولها قبل انصرافه .. فلما ايقنت انه لن يعود ، مضت الى المعزف وجلست امامه ، ولعبت على الأوتار موقعة انغام القس وهو يطرد الروح خارج الجسد .. ولكنها لم تعزفها الا لحظة قصيرة ، ما لبثت بعدها ان تناولت النوتة الموسيقية وطوحت بها الى الأرض بعيدا عنها ، ثم بدأت تعزف لحنا راقصا اسبانيا ، ينبض بالاشتهاء ، ويفيض بالاغراء ، ويزخر بحرارة الجسد ، بقدر ما كان لحن « الجار » يزخر بنقاء الروح . وراحت تؤدى اللحن فى براعة فائقة ، مثلما تؤدى الرقصة فتاة من اشبيلية تتدفق الدماء الحارة فى عروقها ! وما ان اوشكت ان تنتهى من اللحن ، حتى كفت عن العزف دفعة واحدة ، اذ طرق سمعها صوت فى الحجرة المجاورة ، فصاحت منادية : « هنرييت ! » .. ولكنها لم تسمع جوابا ، فعادت تهتف : « هنرييت ! »

وعندئذ فتح باب حجرة النوم ، وبدت خلاله الفتاة الفرنسية ذات العينين الحمراوين .. فبادرتها مسز تشبستو متسائلة : « لماذا لا تجيبين عندما اناديك ؟ منذ كم من الوقت وانت هناك ؟ » .. فاجابت الفتاة فى صوت خفيض : « منذ دقيقة او اثنتين يا سيدتى » . وعادت مسز تشبستو تسالها : « وهل قابلت احدا فى الممر ؟ » . فاجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى .. رايت سيدا .. »

- هل كان خارجا من هنا ؟

- نعم يا سيدتى !

فسالتها : « وهل رآك ؟ » ، فاجابت : « بلا شك يا سيدتى » . ولكن مسز تشبستو كانت تبحث عن نقطة معينة ، فعادت تسالها : « اعنى .. هل لاحظ حالتك ؟ » ، فقالت الفتاة : « اعتقد ذلك يا سيدتى » .. ولم تقنع السيدة بهذا الجواب ،فسالتها من جديد :« وهل شاهدك تدخلين حجرتى.. بهاتين العينين؟». واذ اجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى » ، عبست مسز تشبستو حتى ظهرت

التجاعيد فى جبينها ، فاذا بوجهها ينقلب فجاة صلبا قاسيا ٠٠ وبدت عجوزا انهكها الهرم ، وصاحت فى عنف : « يا للسماء ! لقد اتيت افظع حماقة ياتيها انسان ! اخرجى ٠٠ اخرجى من هنا ! »

فانسحبت الوصيفة على عجل ، وهى تغلق الباب بينهما ٠٠ على حين غمغمت مسز تشبستو فى حنق بالغ : « يا لك من حمقاء ! » ٠٠ فقد كانت تعرف قيمة الأثر الأخير الذى يبقى عالقا فى ذاكرة المرء !

وخرجت الى الشرفة تطل ــ من عل ــ على شاطىء النهر ، وترقب فى تراخ جمهرة المتنزهين والمارة الذين يزخر بهم ٠٠ ولم تكن تدرى أن نيجل بينهم ، يمشى وئيدا بجوار النهر ، وهو يرقب غروب الشمس ، ويفكر فى الشاعر « براونج » ، وفى المرأة التى انتزعها الحب من الحجرة الشبيهة بالقبور ورفعها الى قمم الجبال !

الفصل السابع

• **كان** نيجل ارماين شديد العناية بعمله والاستغراق فيه ٠٠ كان من ذلك النوع الذى يسميه الناس « فذا » ! ولكنه مع ذلك كان اجتماعيا بطبعه ، وثيق الاتصال بالدنيا ٠ فكان على علم باتجاهات الرأى العام وميوله ، وكان يدرك بجلاء كيف كان العالم ينظر الى الأفعال التى لا تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس ٠ ولم يكن عدم اكتراثه بهذه الحقيقة ــ أحيانا ــ دليلا على انه لم يكن يدركها ٠٠ فهو لم يكن بالمواطن الجاهل ، ومن ثم فانه حين

تعرف الى مسز تشبستو ، لم يصدر فى تعـــرفه عن نقص فى الخبرة بآراء الناس واتجاهاتهم ، بل كان يدرك بجـــلاء كيف ينظر ابن لندن العادى ـ الرجل الذى يلقاه فى المنتديات فى رانلى وهيرلينجهام ـ الى أية صداقة تجمع بينه وبين مســـز تشبستو ٠٠ كان يعرف ان رأيهم سيكون مصوغا فى عبارة من هذا القبيل : « لقد استطاعت مسز تشبستو أن تقتنص ارماين المسكين ! »

ولكن هل كان وهذه المرأة صديقين ؟ بل هل يمكن أن يكونا صديقين يوما من الأيام ؟ ٠٠ لقد التقى نيجل بمسز تشبستو مصادفة فى بهو فندق سافوى ٠ وكان اذ ذاك بصحبة خبـــير بشئون السباق لا تجمعه به سوى معرفة سطحية ، وقد صادف إن كان هذا يعرف مسز تشبستو معرفة وثيقة ، فقدم كلا منهما للآخر فى غير اهتمام ، ثم أسرع منصرفا « ليسوى أموره مع مكتب المراهنات الذى يعامله » ٠٠ وهكذا بدأ تعارفهما عارضا فجا ، بلا مقدمات أو قصد ، فكيف يراد له أن يستمر ؟ ٠٠ أو: أترى من المحتمل أن يستمر ؟

وكان نيجل رجلا قويا وفى عنفوان شبابه ٠٠ الا انه لم يكن قديسا ! وقد بدأ يعجب من أمره ٠٠ كما ان ايزاكسون ـ الذى كان قد عاد الى المدينة فى تلك الأثنـــاء ـ بدأ يعجب من أمره كذلك ! ٠٠ فقد كان الطبيب جم المشاغل خلال ذلك الموســـم الاجتماعى ، آذ كان كثير من الأمريكيين والأجانب يقبلون على استشارته ٠ وقد ظل متشبثا بالقاعدة التى وضعها لنفسه ، فلم يكن يقبل مريضا يطرق بابه بعد الساعة الخامسة والنصف، ولكنه قلما كان ينتهى من عمله قبل الساعة السابعة ٠ ولم يعد يرى نيجل كثيرا ، لأنه لم يكن يملك أن يرى أحدا الا لماما ٠٠ على انه صادفه أكثر من مرة ، وسمع الأحاديث التى تدور عنه، أكثر من مرة كذلك ! ٠٠ ومن خلال ما ســـمع ـ وبالهام من

غريزته ـ استطاع أن يتبين موقفه مع مسز تشبستو ٠٠ وكان نيجل يتوق الى أن يكون صريحا مع ايزاكسون ، ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يخبره الا بالقليل ، بدافع من التحفظ الغريب لعل المرأة هى التى أوحت اليه به فى دهاء وخبث ! ٠٠ ولكن أناسا آخرين أخبروا ايزاكسون بالكثير ، خلال تلميحاتهم الشريرة وضحكاتهم التى تشبه ضحكات الأبالسة !

ومن ثم استخلص الطبيب النتيجة : **فقد كان يدرك منذ البداية الأولى ان التعارف بين هذه المرأة ـ التى قضى عليها المجتمع بالدمار والتى ولى عنها الشباب وان ظلت رغم ذلك ساحرة تخلب الألباب ! ـ وبين هذا الشاب المتدفق حيوية وحماسا ، لن يكون أمرا هينا عارضا ، لأن المرأة أرادت له غير ذلك ٠٠ ولعل جموح الصفات المتأصلة فى أعماق نيجل أراد له غير ذلك أيضا ، دون أن يفطن الشاب ٠ فان التحمس أشبه بالسوط الذى يثير الجياد فتندفع بسرعة جنونية ، ولا يعود فى وسع أحد ـ ولا القوة الهائلة التى أطلقتها ـ أن يكبح جماحها !**

٠٠ فالى أين كان نيجل ماضيا على وجه التحقيق ؟

كان الرجال فى الأندية يقولون فى ابتسام وسخرية انه ماض نحو علاقة آثمة ! ٠٠ بل قالوا أكثر من ذلك ، قالوا ان هذه العلاقة حدثت وأصبحت حقيقة واقعة ، وكانوا يعجبون من أن يرتضى رجل مثل ارماين لنفسه « نهاية سيئة » !! ٠٠ ولكن ايزاكسون كان يعلم ما فى هذه الأحاديث من باطل ٠٠ فلم تكن ثمة علاقة بعد ، ولكن هل تنشأ هذه العلاقة يوما من الأيام ؟ ٠٠ وهل عقدت مسز تشبستو عزمها على أن تنشأ هذه العلاقة ، أو أن نيتها كانت تتجه ـ منذ البداية ـ الى أمر آخر ؟

ولم يكن ايزاكسون يعرف ماضى نيجل تفصيلا ، ولكنه كان يتصوره ـ من وجهة نظره كرجل ـ نقيا الى حد غير معهود ٠٠ وان لم يذهب الى انه كان قديسا ٠٠ وكانت عينا الطبيب

الحادثتان قد قرأتا طبيعة نيجل المتأججة ، ومن ثم فانه لم يخطىء فهمه وادراك حاله ٠٠ كان لابد لنيجل من أن يتزوج ٠ واذا كان لم يقدم على الزواج حتى الآن ، فما ذلك الا لأحزان ألمت به فى مستهل شبابه ، بعد أن ماتت الفتاة التى كان يحبها ! ولم يكن ايزاكسون يعرف ذلك ، فكان يعجب أحيانا ويتساءل عن السر فى ان امرأة لم توفق الى اقتناص هذه النفس المفعمة بالطموح والعاطفة ، والزاخرة بكل تلك الصفات الكفيلة باسعاد النساء الصالحات ! أما اذا قدر لمسز تشبستو أن تقتنصها ، فان سخرية الحياة تكون قد بلغت الذروة ! ٠٠ ولكن ، هل كان فى وسع هذه المرأة أن تكسب حب نيجل ، كما استطاعت أن تكسب شفقته وشهامته ؟ وهل تستطيع أن توقظ أحاسيس الجسد فى هذا الرجل كما استطاعت أن توقظ نفسه ، وأن تصل خلال الجسد والنفس الى روحه ؟

ثم ماذا بعد ؟ ٠٠ لقد تعرض اخلاص ايزاكسون الى امتحان أليم فى تلك الفترة من جراء صداقته ٠٠ ورغم انه كان غريب الأطوار ، مليئا بما جبلت عليه النفوس المرهفة الحس منعزوف عن الانسياق وراء الجماهير ، فانه سلك نفسه فى صفوف الجماهير ضد نيجل فى موضوع مسز تشبستو ٠٠ ومع ذلك فقد ظل نيجل ينشد فيه حليفا له ، ورفيقا لروحه ٠٠ ولم يكن صريحا فى ذلك ، وانما كان دائم التلميح له فى مقابلاتهما العارضة القصيرة ٠٠ كان لسان حال نيجل يقول : « أنت وأنا فقط ، فليست للعالم قيمة لدى ! » ٠٠ كانت تعتمل فى أعماقه بواعث الشفقة والشهامة ونبل المشاعر وسمو الروح ، ولكن كان هناك عناد نفسه وحبها للنضال كذلك ٠٠ كان فى نيجل شىء ما يحب دائما أن يسند ظهره الى الجدار تاهبا للنضال !٠٠ وكان يريد أن يضع ايزاكسون فى عين الموقف الحافل بالنضال تجاه التيارات المتعارضة الجارفة ! الا ان هذه التيارات كانت فى الجانب نفسه الذى يقف الطبيب فيه ! ٠٠ والواقع ان

ايزاكسون لم يأسف على قلة ساعات الفراغ المتاحة له ، لأنه لم يكن يعرف أى مسلك يستطيع أن يسلكه . فقد كان سر المهنة يقف حائلا دون اخبـــار نيجل بما قالته مســـز تشبستو عن نفسها .. أما ما كان يقوله الآخرون عنها ، فانه لم يكن كافيا لأن يثـــير نيجل ضـــدها ، بل انه ربما جعله أكثر انعطافا نحوها !

ولم تكن العـــلاقة بين مسز تشبستو ونيجل قد تجاوزت ـ حتى ذاك الوقت ـ حـــدود التعارف . ولكن ، ها قد حانت اللحظة التى بدأ فيها نيجل يحس بأنه يريد منهـــا ما هو أكثر من مجرد التعارف ، وبسبب هذه الرغبة الدافعة نحو المزيد ، بدأ يسائل نفسه عما اذا كان ينبغى له أن يقنع بالقليل !! .. وربما أوحت له خبرته بالدنيا ، أو لم توح له ، بأن الصداقة المطلقة من القيود ، الخالية من العراقيل ، مع مسز تشبستو ، أمر عسير ، اللهم الا من الناحية النظرية فقط .. وقد علمتـــه التجارب ان الصعاب قد لا يمكن تخطيها أو التغلب عليها حتى لمن كان فى مثل حماسته وشجاعته ! فهل كانا صديقين ؟ وهل يمكن أن يكونا صديقين فى يوم من الأيام ؟!

وكان ثمة صوت يجيب فى أعماقه وهو يسائل نفسه هذا السؤال : «كلا !» .. فان النساء اللواتى يسلكن فى الحياة مسلكا معينا ، يفقدن القدرة على الصداقة اذا كن قد ملكنها فى يوم من الأيام ، لأن الحوادث تكون قد علمتهن ماقد تعلمه الغريزة للكثير من النساء ، من تقدير الناحية البدنية للرجل تقديرا يفوق ما هى عليه بالفعل !.. ومثل هاته النساء تبرز نظرتهن هذه فى كلامهن ونظراتهن وأفعالهن ، وفى اختلاف نبراتهن ، وفى كل هذه الأشياء التى لا يمكن تعريفهـــا أو تحديدها ، ولكنها تخلق الجو الخاص بالشخص !.. وهذه النظرة تحرك عواطف الرجال ، فتخجلهم وتهيجهم فى وقت واحد .. وهى تعمل عملها فى الآله والوحش ـ الكامنين فى

نفس الرجل ـ على السواء ٠٠ فاذا بالآله الخجول والوحش الطروب يصبحان معا فى حالة لا تعرف الصداقة ولاتستسيغها! **٠٠ ولقد كانت لدى مسز تشبستو هذه النظرة الغريزية للمهمة التى خلق الرجل من أجلها ، فلم تستطع رغم مواهبها الدفينة ـ كممثلة بارعة ـ ان تخفيها تماما !**

وانتهى نيجل أخيرا الى حالة من الحيرة والتشكك أنذرته بأنه يجب أن يقرر أمرا ، فلا يتريث أكثر مما تريث ، وانما عليه ان يقطع فى الأمر نهائيا ، وان يقرر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ٠٠ اذ انه لم يكن بالرجل الذى يستطيع العيش مع التردد على وفاق ، بل كان يمقته حقا ، ويرى فيه مظهــرا من مظاهر الضعف ٠٠ أجل ، كان لا بد لهذا النضال بينه وبين نفسه من ان ينتهى على أى وجه !

★★★

◆ **وكان** شهر يوليو قد حل ، وأوشــك الموسم أن ينتهى سريعا ٠٠ وصلة نيجل بمسز تشبستو ٠٠ هل ينبغى ان تنتهى هى الأخرى ؟ ٠٠ انها قد تبلغ نهايتها على وجه طبيعى عادى ، فسوف يرحل عما قريب ٠٠ سيذهب الى اسكتلندا للاشتراك فى موسم الصيد ٠ وهى ؟ ترى أين تزمع الذهاب ؟ لقد جعله هذا السؤال يمعن فى التفكير ، كما اعتاد ان يفعل فى هذه الأيام الأخيرة ٠٠ التفكير فى عزلتها ووحدتها ،وهى حالة كانت لا تفتأ تلح عليه وتغلو فى الظهور وتأكيد تأثيرها على نفسه ، أما مسز تشبستو فلم يكن يبدو عليها أنها تفكر فى حالتها هذه ، ولا هى كانت تتحدث عنها البتة ٠٠ فقد كانت أوفر ذكاء وأعظم دهاء من أن تفعل ذلك !٠٠ ولكن هذه العزلة كانت تبدو واضحة كل الوضوح بطريقة أو أخرى ، على غير انتظار ، وعن غير عمد : كان اذا قام بزيارتها قلما وجدها فى الخارج ، واذا كانت بالفندق فانها كانت دائما وحدها ٠٠ وكانت

تستقبله فى بعض الأحيان وهى ترتدى القبعة وتقول انها عائدة للتو من الخارج ٠٠ وفى أحيان أخرى ، كانت تزعم ـ اذا ماهم بفراقها ـ انها تعتزم الخروج ٠٠ وبهذا وفقت فى تثبيت الشعور الذى خلقته فى نفسه من أنها امرأة تعيش فى عزلة تامة ، بلا مواعيد ، وبلا أصدقاء ـ كما هو ظاهر ـ تقضى أيام الصيف الطويلة فى وحدة مروعة ، وتعزف عادة لحن «جيرونتيوس» على المعزف الصغير المصنوع من الخشب الأحمر ، أو تقرأ «الحرف القرمزى» أو غيره من الكتب العميقة الرصينة ! ٠٠ ولم يكن يرى فى مسلكها أى تصنع ظاهر ! والواقع انها كانت تبدى له فى بعض الأحيان استياء خفيفا ـ يكاد يصل الى حد الاستحياء ـ من فراغها ، وعدم دعوتها الى الحفلات والمجتمعات ، على هذا النحو ٠٠ ولقد ارتاب نيجل أكثر من مرة فى أنها انما كانت تكذب عليه ـ وتلك فى نظره كذبة بيضاء ! ـ كلما أخبرته عن العشاء الذى تناولته مع « بعض الناس » أو الاشتراك فى سهرة للعب الورق ٠٠ فقد لاحظ ـ عندما كانت تخبره بشىء من هذا القبيل ـ ان ذلك كان يحدث اثر ملاحظة عابرة ، أو ايماءة خفيفة ، أو حادث طفيف يوحى باشفاقه عليها !٠٠ وكان قد استشف ، من أعمالها ، تلك الكبرياء التى تحرك فى نفس المرأة ، الرفيعة المنبت ، الرغبة فى اخفاء مركزها التعس أو الاقتصاد فى اظهاره الى أقل الحدود !٠٠ **وكان يعتقد انها كانت ـ بقدر بعدها عن تعمد اثارة شفقته ـ تتعمد بكل مافى وسعها ان تتحاشى هذه الشفقة ! ٠٠ وهذا الاعتقاد ـ الذى كان له من الظواهر ما يبرره ـ زاد شفقته حدة ، وجعله يمضي فى شعوره شوطا بعيدا ٠٠ وهكذا وصل معها الى ماكانت ترمى اليه وتنشده !**

وكان يدير فى ذهنه حوارا بين رجل المجتمع العادى ـ الذى كان يعتقد انه يؤدى دوره ـ وبين الرجل ذى النخوة والشهامة ، المندفع بغير وعى وراء عواطفه ، فيدعهما يبحثان الموضوع

ويناقشانه . وقد حدث فى مرة او اثنتين ان راح يقول ويلح فى القول ، بأن امرأة كمسز تشبستو ، اشتهرت بجمالها عن حق ، وبأشياء أخرى ـ تختلف عن ذلك كل الاختلاف ـ افتراء وتشهيرا .. مثل هذه المرأة اذا اعتزمت الخداع ـ ولا شك ان رجل المجتمع يعتبر مثل هذه المرأة على عهد مقيم مع الخداع ـ فانها تحاول ان تضاعف فتنتها ، فتظهر بمظهر المرأة التى يتقرب اليها الرجال ويشتهونها ويحتفون بها ويجرون وراءها .. هكذا تفعل دائما المرأة التى من هذا الطراز .. ولكنها لا تحب قط ان يعرف الناس عنها انها غدت مهجورة غير مشتهاة ، لأن الرجال يرغبون عادة فيمن يشتهيها غيرهم من ابناء جنسهم ، اذ منذا الذى يرغب فيمن هى غير مشتهاة !.. لذلك فان مسلك مسز تشبستو ـ حين مكنت نيجل من ان يشهد وحدتها ويتحقق من انفضاض الرجال عنها ، بمثل تلك السذاجة ! ـ اوحى الى الشاب بأنها تكاد تعتبر حمقاء ، جاهلة بطباع المجتمع ! وهكذا اقتنع الجانب الذى يمثل رجل المجتمع من شخصيته ، بينما أحنى الجانب ـ الذى يمثل الرجل المندفع المتحمس ـ رأسه !.. ولقد أخطأ نيجل فى الحكم على دهاء مسز تشبستو بمقاييس ذكائه المتقد ، فان هذا الذكاء بالذات خانه فى هذا الصدد .. اذ ان ماقدره نيجل ـ على ضوء خبرته بالمجتمع ـ مصيرا محتوما لامرأة كهذه ، بدا لمسز تشبستو، على ضوء خبرتها هى بالمجتمع ، مصيرا لا بد من تفاديه . ذلك لأنها نادرا ما كانت تسلك الطريق الواضح فى الخداع ، كما ادرك ايزاكسون منذ اللحظة الأولى التى عرفها فيها .. وانما كانت تستهوى الناس بأن تفترض فيهم الحذق والفطنة ، وكانت ترى ان من الأصوب ـ فى الوقت ذاته ـ ألا تكون أكثر دهاء من دهائهم فحسب ، بل أشد ذكاء من ذكائهم !

وهكذا بثت الاشفاق فى نفس نيجل ، فنما هذا الشعور وترعرع ، حتى اذا حان الوقت لكى « يبت فى الأمر » ، أحس

بأن مسز تشبستو ستشعر بالوحشة لغيابه - اذا ما انتهى الموسم - لا بوصفه شخصا اصطفته لنفسها وأحست نحوه بميل خاص ، ولكن ٠٠ لمجرد انه بذر العنصر الانسانى فى حياة قاحلة موحشة ! ٠٠ وعندما تحدث - فى آخر لقاء لهما - عن نهاية الموسم الاجتماعى ، وما سيتبع ذلك من رحيل عن العاصمة ، قالت فى عبارات مبهمة : « آه ، نعم ٠٠ طبعا » ٠٠ فسألها : « والى اين تزمعين الذهاب ؟ » ٠ فظلت صامتة فى جلستها برهة ٠ واذ ذاك خيل اليه أن بوسعه أن يتبع خطوات تفكيرها ٠٠ فأيقن أنها تتدبر الأمر ، لترى ما اذا كانت تكذب عليه فتحدثه عن برنامج بهيج تبتكره من وحى الساعة لتخدعه ٠٠ ومنذ داخله هذا اليقين ، راح ينظر اليها وفى عينيه دعوة ملحة الى أن تخبره بالحقيقة ٠٠ بل لقد ظن انها استجابت لدعوته هذه ، عندما قالت فى النهاية : « ليست لدى أية خطة معينة ، وأحسبنى سأبقى هنا فى هدوء ! » ٠٠ وهكذا لم تدع له الفرصة ليدعوها لمرافقته ، ثم غيرت مجرى الحديث فى الحال الى بعض الموضوعات الأخرى ، فظن ان الكبرياء قد عادت تنهشها من جديد !

نعم ٠٠ لسوف تشعر بوحشة لغيابه ٠٠ اذ لا بد من أن تفتقد اى امرىء ساقته المصادفة الى ان يبدد عنها وحدتها وعزلتها ٠٠ لكم عجب فى نفسه لهذه العزلة الكاملة الشاملة ٠ ولقد عاد يعجب لها - وهو يفكر فى تلك المرأة - فان لكل امرىء أصدقاءه ، والمقربين اليه ، سواء أكانوا يروقون له أم يضجرونه !٠٠ فمن هم أصدقاؤها ؟٠٠ ان النساء المعروفات قد «قاطعنها» منذ زمن بعيد بطبيعة الحال ٠٠ ولكن كانت توجد نساء أخريات فى لندن بجانب اولئك المعروفات ٠٠ كانت هناك البوهيميات اللامعات ٠٠ وكانت هناك نساء بارعات ينتمين الى المجتمع الراقى ، ولكن لهن فى الحياة «نهجا خاصا» ، فهن يدرسن فى دقة تامة الأصدقاء الذين يصطفينهم او الذين

يروقون لهن ويجتذبونهن ! ٠٠ كما ان لهن اصدقاء مخلصين أوفياء فى أوقات الشدة وتقلبات الحظ ٠٠ فأين اصدقاء مسز تشبستو الأوفياء ؟٠٠ لم يجرؤ على ان يسألها عنهم !

وعادت به الذاكرة الى زيارته الأولى لها ، لا فى حنين عاطفى سخيف ، وانما فى اهتمام هادىء : الحجرة الخالية المطلة على النهر ، المعزف المفتوح وعليه النوتة الموسيقية ، الورود القليلة والكتب ٠٠ تذكر اذ ذاك « الحرف القرمزى » بغلافها الأبيض ٠٠ واستشهاد مسز تشبستو بآية من الانجيل لتفسير اختيارها لهذا اللون لتجليد القصة ! لقد توقفت اذ ذاك عن متابعة الحديث بغتة ، فلعل ذلك كان من جراء شعورها المفاجىء بانطباق الآية عليها !٠٠ وعندما جلسا الى الشاى — يومذاك — قالت عن الحلوى التى كانت لذيذة حقا : « لقد أمرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة » ٠٠ كانت فى كلماتها بساطة عظيمة ، وكذلك فى صوتها وهى تنطق بها ٠٠ لقد كانت فى عزلتها ووحدتها ترى فى قدح من الشاى تشربه معه «وليمة» ! ٠٠ وأخذ يتصورها وهى تجلس وحيدة فى هذه الحجرة فى شهر أغسطس ، بينما المدينة قد اقفرت اذ لفحها الحر بنيرانه وهجرها نصف سكانها ٠٠ ترى كيف يمكن ان تقضى هذه الأيام ؟

وراح يقارن بين حياته وحياتها ٠٠ أو على الأصح الحياة التى كان يخال انها حياتها ٠٠ لم يحدث له قط من قبل ان أدرك ما كان فى حياته من بهجة وبريق ، بل من تألق يخطف الابصار ٠٠ ما كان فيها من التنوع والتبدل ، والنشاط المتعدد الوجوه ، والعمل الشاق ، والعرق المتصبب مع عماله السمر في السهول الرملية عند حافة (الفيوم) ٠٠ ثم ما كان فيها من نشاط رياضى ، وصداقات ، وساعات مليئة بالنشاط ، وأخرى يسودها الهدوء ٠٠ لكم كانت ذكراها حبيبة الى قلبه ، لندرتها !٠٠ انها حياة طيبة ، بل هى حياة

جليلة حقا ! ·· انه الآن فى لندن ، وعما قريب سيصبح فى اسكتلندا ·· ثم يحل آخر الخريف ، فالقطار ، فمنظر البحر، فصفير الباخرة ، فضجيج الآلات ·· وبعد ذلك مصر !·· الشتاء ذو الشمس المشرقة ، وأناشيد العمال ، وابتسامات الفلاحين ·· واستصلاح الصحراء واعدادها للزراعة !·· أجل ، استصلاح الصحراء !

☆ ☆ ☆

◆ **وكان** نيجل وحيدا بحجرته فى فندق سافوى ، وقد شاب فودا الليل ·· كان يرتدى بيجامته ، ويدخن سيجارا بجانب النافذة المفتوحة · ونظر الى السجادة الحمراء التى استقرت فوقها قدماه فى الخفين الاحمرين ، وعندئذ تبين فجأة جمال ما كان يفعله فى الفيوم ·· انه لم يفكر فى ذلك حقا من قبل على هذا النحو ·· لم يفكر فيما يفعله من استصلاح الصحراء ·· أما الآن وهذه الصور تطوف بذهنه، فقد سرت فى عروقه نشوة السرور ، وخفق قلبه وراح يتطلع فى حنين وحب الى الشتاء !·· **ولكن شتاءها هى ·· ترى كيف يمكن أن يكون ؟·· ما أعظم الفارق الذى يمكن ان تحدثه فى حياة امرىء وحيد منعزل ، عاطفة صادقة ، مؤمنة ، ملهمة ؟ ·· عاطفة واحدة فقط ، ففى ذلك الكفاية ·· فاذا بالصحراء الرملية تغدو ناضرة !**

وتمثل حقول القصب وهى تتماوج ، وعيدان الذرة الطويلة وهى تتمايل مترنحة تحت هبات النسيم ، فى بقاع لم يكن فيها من قبل سوى الرمال القفراء · وما لبث ان أحس بوجنتيه اللتين لوحتهما الشمس تضطرمان وقد سرت فيهما الدماء الحارة !·· النجاح ! التقدم ·· لكم يجب ان يفكر فيه مليا ، وفى تلك اللوحة الرائعة التى رسم فيها « وات » التقدم بألوان قدسية وضاءة ·· تلك اللوحة التى كانت غرامه الاكبر

.. كانت لمسة من لمسات العبقرية الخالدة ! .. فان على كل امرىء ان يؤدى نصيبه من الواجب .. أجل ، على كل انسان ان يقوم بنصيبه فى مضمار التقدم !.. ترى كم من الناس فى هذا الفندق العظيم كانوا يعملون عن علم ويقين فى سبيل هذه الغاية ؟!

وثار الانفعال فى أعماق نفسه ، فراح يفكر فى الصفوف تلو الصفوف من الغرف المرقومة فى هذا المبنى الشامخ ، وفى كل منها ـ وراء كل رقم من أرقامها ـ عقل خلق ليفكر ،وقلب ليحس ، وروح لتتوثب وتطمح ، وجسد ليعمل ويكد .. ووراء رقم حجرته ، كان هو نفسه موجودا ، فما الذى كان يعمله ؟ وما الذى ينبغى أن يعمله ؟.. وما عتم أن نهض من مجلسه ، وأخذ يسير فى أرجاء الحجرة ، ولما يزل يدخن سيجاره .. وضايقه احتكاك خفيه بالسجادة ، فطوح بهما بعيدا ومضى يسير بقدميه السمراوين حافيتين .. لقد كان غالبا ما يمشى حافيا فى الفيوم كعماله سواء بسواء !.. **ما الذى ينبغى أن يعمله ليؤدى نصيبه فى الدوران البطىء لعجلة التقدم الجبارة ؟.. يجب ان لا يكون واحدا من الذين يتشدقون بالكلام ويهذون فى الحديث عن جلائل الأمور ، ثم لا يفعلون شيئا البتة فى سبيل اخراجها الى حيز الوجود !.. انه يحتقر الذين يملأون الدنيا بعاصفة من الكلام ، ولا يعملون شيئا على الاطلاق .. انه لن يكون واحدا منهم ! ..** انه حين جلس ـ فى هذه الليلة ـ « لينهى هذا النضال بينه وبين نفسه » ، كان يفعل ذلك من أجل ذاته هو .. كان أنانيا ، اذ انصرف جل تفكيره الى نفسه ، وان كان قد أشرك فى هذا التفكير شخصا آخر .. ولكن الرجال فى ساعات وحدتهم وانفرادهم لا يفكرون عادة الا فى أنفسهم !.. ولم يكن نيجل أنانيا بطبيعته ، ومن ثم فانه سرعان ما نسى نفسه تقريبا ، وراح يفكر فى مسز تشبستو أكثر مما كان يفكر

فى نفسه ·· وأخذ يفكر فيها من جديد على أســـاس صلتها بدوران عجلة التقدم الجبارة · وبعد آن كان يفكر فيها وحدها على هذا الاساس ـ فى البداية ـ تحول يفكر فيها وفى نفسه معا !

ومن العسير حقا ان يقوم المرء وحده بعمل ما ·· عمـــل يستحق الأداء والتقدير ·· وهذا ما خطر لنيجل فراح يمعن التفكير فيـــه ·· لا بد دائمـــا من بعض الدخـلاء ـ الدخلاء المشكورين ـ الذين يتقدمون للمســـاعدة بوعى أو بغير وعى منهم ! ان الرجل يضع كتفه الى العجلة ليحركها ، فيرى أمامه كتف رجل آخر ، وعندئذ يستمد من هـــذا المنظر مزيدا من الشجاعة والجلد !·· وحمله تفكيره فى النشـــاط الدؤوب على أن يفكر فى الســـكون المطلق الذى يلازم مســـز تشبستو · لقد رآها جالسة ·· دائما جالسة فى حجرتها ، بينمـــا الحياة تتدفق فى الخارج · ورأى وجهها الشاحب ·· أما ان وجههـــا قد اكتسى هذا الشحوب البديع بفضل الصنعة والفن ، فذلك ما لم يخطر له عـــلى بال ! وقفز به الفكر الى مسز براوننج ـ زوجة الشاعر ـ وقمم الجبال التى ردت اليها الحياة !

★ ★ ★

◆ **ماذا** تراه فاعلا ؟·· وأخذ يبذل جهدا عقليا خارقا لكى « يسيطر على نفسه » ، وهو ما كان يمكن ان يعبر به عن هذا النضال ·· وكان عليه بعدذلك ان يفكر فى الامر ·· على انه ينبغى ان يخفف من حماسته ، ويهدىء من فورته ، ويتخـذ جادة التعقـــل حتى يمكنه ان يتـدبر الامر ويحسب له كل حساب !

وفكر فى الفتاة التى أحبها منذ عهد بعيد ، وقدر لهـــا ان تموت ·· انه منذ وفاتها قد أقصى الحب عن قلبه · وكانت تلم به ـ بين الحين والحين ـ صـــورة عابرة للحب ·· شبح باهت

للحب الحقيقى ! فمن العسير على رجل قوى ، فى عنفوان شبابه وزهرة أيام حياته ، ألا يكون له شأن بالحب أو شبحه ! ولكن ايزاكسون كان على حق فيما حدسه ، فقد كانت حياة نيجل أكثر نقاء وأوفر طهارة من حياة معظم الرجال ٠ وكثيرا ما كان النضال ينشب بينه وبين نفسه ، وبينه وبين ميوله ورغباته الطبيعية ، نتيجة تقديره للحب ، وسمو هذه العاطفة فى نظره ٠٠ ولكنه لم يكن يخرج دائما من هذا النضال منتصرا ٠٠ على ان ذلك النضال نفسه كان قد « فتل » عضلات ارادته وقواها ، كما ان كل « سقطة » كانت تجعله يرى ذلك الحزن، بل لعله الرعب ، المرتسم على شبح الحب الحقيقى ، بمزيد من الوضوح !

ولقد ظلت مسز تشبستو سنين عديدة ترعى ذلك الشبح، وتعيش معه ، اذا صح ما كان يقال عنها ٠٠ **وما كان نيجل ليخدع نفسه فى هذا الصدد ، اذ انه لم يكن بالذى تسوقه عواطفه الى أن يرفع العاهر الى مقام الملائكة ، كما يفعل الغلمان عادة ! ٠٠ لاشك فى ان مسز تشبستو سلكت مسلكا معيبا فى حياتها ، وبطريقة ربما كانت تبعث على الاشمئزاز بقدر ما كانت تبعث على الاشفاق والرثاء !٠٠ ولكنها كانت تطوى جوانحها على رقة شعور وكبرياء ناشئة عن عراقة الأصل ، وعلى تحفظ غريب كذلك ٠ وكانت لا تزال تحتفظ بذوق يجعلها تحب الاشياء الجميلة الرائعة ، وتعنى بالاشياء التى تمتاز بالطابع الروحى !** وتذكر زيارته الاولى لها : البيانو المفتوح ، و « امضى فى رحلتك أيتها الروح النقية » ، و «الحرف القرمزى »٠٠ واستشهادها بآيات الانجيل !٠٠ ترى ما الذى كانت تفكر فيه وهى تعزف لحن « الجار » ذا الانغام السماوية المتجردة من الدنيوية الى حد عجيب ؟ أو وهى تقرأ كتاب هوثورن المثير للشجون ؟٠٠ كانت ــ ولا بد ــ تلجأ الى الفن كمنفذ للفرار من الحياة ، على غرار ما يفعله الكثيرون ٠٠ولكنها

لم تكن تفر الى الدنس أو العربدة ، ولا الى صالونات اللهو أو الأوكار التى تهتك فيها الاسرار ، وانما كان فرارها صوب الفضاء الفسيح ، مع « الملاك » ـ فى « حلم جيرونتيوس » ـ والى الغابة مع « هيستر » و « بيرل » الصغيرة فى « الحرف القرمزى »

فلماذا لا يمكن لهما ان يظلا صديقين ؟٠٠ وتكلم جسده مجيبا عن هذا السؤال ٠ واذا به ينحى على نفسه باللائمة من جراء هذا الجواب ! ٠٠ ونقم ـ فى تلك اللحظة ـ على نفسه ، وسخط عليها ، ولعنها ! وما لعنها لانه كان سقيم الفكر ، وانما لعنها لانه كان سليم العقل ، ولانه أدرك ان الميول الخبيثة ـ التى تجلت فى ذلك الجواب ـ انما أثارتها معرفته بماضى مسز تشبستو ٠٠ وكانت فى هذا حيوانية لابد من القضاء عليها ٠٠ يجب ان تطمس فلا تبين آثارها ، اذ إنه ما كان ليرضى لنفسه أن يكون من ذلك الطراز من الرجال ٠٠ ولكنه أحس مع ذلك بأنه من ذلك الطراز بالفعل الى درجة تجعل صداقته لمسز تشبستو متعذرة ، ان لم تكن مستحيلة ! ٠٠ ولو أن الحب هو الذى قاده الى هذه الميول ، فانه ـ وهو الذى لا يزعم العصمة لنفسه ـ كان خليقا بأن يقدرها وان يعتبرها أمرا طبيعيا خالصا من كل شائبة ٠٠ ولكنه لم يكن يحب مسز تشبستو ، ولن يقدر له آن يحب ـ ذلك الحب الحقيقى ـ مرة أخرى بعد فتاته التى ماتت !٠٠ لقد ظل يردد هذا لنفسه سنوات ، وكان يؤمن بصدقه ٠ وحتى لو انه استطاع أن يجدد فى نفسه هذه القوة الغريبة ـ قوة الحب ـ فلن يكون بوسعه ان يحب امرأة غير طاهرة ٠٠ لقد كان موقنا من ذلك ٠٠ وكان كلما فكر فى الامر ، قارن بين الفتاة الميتة ومسز تشبستو ٠ **أما الليلة ، فقد تعذر عليه ان يتمثل فى ذاكرته بجلاء صورة الفتاة الميتة ووجهها ونظراتها ، بينما كان بوسعه أن يتصور فى مخيلته شكل مسز تشبستو كاملا ، اذ كان قد رآها فى ذلك اليوم بالذات ٠٠ أما الفتاة التى أحبها ،**

فقد ماتت منذ سنوات عـــديدة ، وأصبحت فى ذاكرته رمزا للطهر والجمال أكثر منها كائنا بشريا !

وما كان من المحتمل أن تجد مسز تشبستو - فى حالهـا هذه - رجلا يحبها باخلاص .. ولكن ، لم لا ؟ .. وتحـول نيجل فجأة فراح يحاسب نفسه ، كما اعتاد ان يفعل كلما وجد انه ينساق مع الرأى العام لجمهرة الرجال .. أجـل ، لم لا ؟.. **ان الكتف التي تدفع عجلة التقدم هى دائما كتف الحب .. حب فكرة معينة ، حب امرأة ، حب الانسانية ، حب العمل ، حب الله !..** لسوف يضحك - كل الرجال الذين كان يعرفهم ، أو جلهم - لمجرد التفكير فى ان مسـز تشبستو قد تجد من يخلص لها الحب ، ولـكن ضحكهم ينبغى ان لا يكون ذا أثر على روح أو قلب ملىء بالرجولة !

وأحس بشىء من الحنق عليها لما كانت تأخذ نفسـها به من وحدة وجمود كانا يؤلمان شهامته ، ويصفعان عاطفة الاشفاق فى نفسه .. لو انه استطاع أن يتصورها وقد نفضت الجمود عن نفسها ورحلت - هى الاخرى - عن لندن لتطوف بسويسرا أو ايطاليا أو أى مكان جميل آخر ، لارتاح باله واطمـأن . ولكنه كان يتمثلها دائما جالسة فى تلك الحجرة ، وحيـدة ، مهجورة ، تعزف على « البيانو » وتقرأ الكتب ، دون أمل فى ان تحظى بأنيس ، أو ان تبدل من جو حياتهـا .. والواقع ان مسز تشبستو أتقنت القيام بدورها ، واستطاعت أن تطبـع على مخيلة نيجل صورة لنفسها محفوفة بالوحدة والعزلة !

* * *

◆ **وكان** لا يزال يذرع الحجرة بقدميه الحافيتين .. ولـكن سيجاره كان قد انطفأ وان ظل بين شـفتيه .. وكان الوقت متأخرا ، وقد دنا الهزيع الاخير من الليل . وسمع نيجل ساعة بعيدة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وما كاد ينتهى طنينها

وطنين ساعات أخرى فى مواضع قريبة أو بعيدة فى المدينة ، حتى انبعثت فى أعماقه تلك الافكار التى يوحى بها الليل الى رجل شاب فى عنفوان قوته : اذا لم يكن من المستطاع ان تقوم بينه وبين مسز تشبستو صلة من الصـداقة ، أفلا يمكن ان يكون بالنسبة اليها ·· ذلك الشىء الآخر ؟!

ورفع يده الى شفتيه فانتزع السيجار من بينهما وطوح به من النافذة فى عنف ·· وكان هذا العنف البدنى صدى لما كان يعانيه من صراع عقلى ! ·· انها قد تسمح بشىء كهذا ، فهى « كثيرا » ما أنشأت ـ اذا صدق نصف ما يقال عنها ـ مثل هذه الصلة مع رجال آخرين ، ولكنه لا يريد ان يصدق «كثيرا» هذه ! ·· انه يريد ان يصور الامور على نحـو جد مختلف : فليس من ريب فى انها أقامت مثل هـذه الصلة مع بعض الرجال ـ لعلهم كانوا اثنين أو ثلاثة وان كانت الشـائعات الفاضحة قد ضاعفت من عددهم ! ـ فيما مضى من حيـاتها ·· فهل تراها ترضى باقامة مثل هـذه الصلة بينهـا وبينه اذا ما سألها ذلك ؟! وهل تراه يسألها ذلك يوما من الايام ؟!

وألقى بنفسه ثانية على مقعده الكبير ذى المسندين ، وراح يحدق فى قدميه العاريتين وقد اسـتقرتا على الارض ثابتتين راسختين · **ولكنه لم ير قدميه ، وانما كان يرى ذلك «الشبح» البشع ·· شبح الحب المسخ ! ذلك الطيف الفظيع ، الملعون ، المدمر ·· ذلك الدعى الذى يذهب فى الزيف الى أبعد الحدود ! ·· لقد ظلت تعيش مع الشبح حتى غدا وجهها شاحبا باهتـا كالاشباح !** ·· لقد كان فى لوحة « التقـدم » ـ التى شغف بها نيجل ـ وهج هائل ، واشراق متألق يشع فى الفضاء حتى الأفق البعيد ·· ومن الجهد الصادق لادارة عجلة التقـدم ، يستطيع الرجل ان يبعث تألقـا فى وجنتى المرأة ·· تألق الغبطة ، لا تألق العار !·· أما السكوت على « نهاية سيئة » ـ وهنا استخدم نيجـل فى تفكيره الاصطلاح الذى يطلقـه

الساخرون فى المنتديات على المرأة التى تفقد مكانتها وسحرها !
ـ فأمر لا يمكن ان يطاق !

وتلاشى الشبح فجأة ، فعاد نيجل يرى قدميه السمراوين فى وضوح ، واذا مرآهمـــا يبعث للتو فى ذهنه التفكير فى الشمس ، وفى العمل ، وفى الحياة الطيبة ، الحقيقية ، المليئة بالوهج والضياء !٠٠ لا ، لا ٠٠ انه لن يرتضى لنفسه ان يتجه بذهنه الى شىء من هذه الافكار الوضيعة الحيوانية ، التى لا يطيقها ولا يحتملها ! وذهبت عنه فكرة الصداقة ـ التى خطرت له ـ الى غير رجعة ، واذ ذاك تنفس تنفسا طويلا عميقـــا ، وطوح بذراعيه الى أعلى حتى تهاوت أكمام منامته (بيجامته) فبلغت كتفيه ، مسفرة عن الساعدين الســـمراوين القويين ، فراح يحملق فيهما ، مثلما كان ينظر الى قدميـــه ، ويتحسسهمـــا ويربت عليهما ، وقد أطربه ما فى الصحة الكاملة من رواء ٠٠ ولكن صحة العقل والقلب وسلامتهما أمر ضرورى لاستكمال صحة البدن وسلامته !٠٠ وأحس فجأة بنفسه قويا ٠٠أحس بأنه أوتى من القوة ما يكفى لاكثر من واحد ، كمـــا ينبغى ان يكون الرجل حقا ٠٠ قويا لنفسه ولأنثاه ، لتلك التى تخصه بحبها ونفسها ، وتثق فيه وتعتمد عليه ، وتمحو من مخيلتها جميع الرجال الآخرين من أجله وحده ، شأن المرأة الوفية !

هل قضى عليه اذن بهذه الوحدة الابدية ، بسبب الفتـــاة التى قضت نحبها منذ تلك السنين العديدة ؟٠٠ لقـــد كانت حياته جدباء قاحلة ، مفعمة بالوحدة ، شأن كل حياة خلت من الحب ، مهما يبلغ من تألقهـــا وازدحامها بالنشاط والعمل الدائب ٠٠ لقد أدرك ذلك ، فخطر له خاطر كان فى حـــد ذاته طبيعيا ومتسما بالاثرة فى الوقت نفسه ، وهو : أى بهاء لا بد ان يجده الرجل فى ان يكون وحده أثيرا بحب امرأة ٠٠ **وما أعظم الحب الذى يمكن ان توليه امرأة ، هجرها الرجـــال وتخلى عنها العالم ، للرجل الذى يأتى اليها ـ كالفـــارس فى**

الغابة ! ـ فيحملها بعيدا ، ويمزج حياتها بحياته ، ويعيد اليها كرامتها وعزة نفسها ومكانتها بين النساء ٠٠ وفوق كل شيء : ذلك الشعور الذى تحله المرأة من نفسها فى أعزموضع بين المشاعر الاخرى ٠٠ شعورها بأن « هناك من يبتغينى »٠٠ انه ولا بد أمر بديع ان يجد المرء نفسه محبوبا كما سوف تحبه مثل هذه المرأة !٠٠ وفى تلك الليلة سارت مروءته ـ التى كانت تدفعه بوحى الغريزة الى العناية بالاشياء المهجورة ـ جنبا الى جنب مع أنانية الرجل الابدية وأثرته الخالدة ، وهو يتخيل مسز تشبستو ـ للمرة الاولى ـ وقد تزوجت ثانية من رجل لا يعنى البتة برأى العالم ، أو انه يعنى به كثيرا الى القدر الذى يلذ له معه ان يتحداه ويهزأ به ! ترى كيف تصبح فى غمرة الحب المنطلق دون تحفظ ؟

وعندئذ بدأ يتساءل عن كنه ذلك الجزء من طبيعتها المخصص للحب ، المكرس له ! ٠٠ لقد كانت معه دائما آية فى البساطة، وكانت تبدو معه غاية فى الصراحة ، غير انه يحس الآن انها كانت فى بساطتها وصراحتها دائمة التحفظ والحذر ، الى درجة تكاد تعد غريبة من مثل هذه المرأة !٠٠ ولعل تحفظها ذلك كان ردا منها على افراطه فى اظهار الاحترام نحوها ٠٠ فقد كان ـ مراعاة لمركزها الدقيق ـ يبدى لها من ضروب الاحترام أكثر مما كان يبدى للنساء الاخريات ، متبعا فى ذلك وحيا من طبيعته التى فطر عليها ٠٠ فكيف يمكن ان تبدو اذا ما تجردت من التحفظ ، فى غمار حب عظيم ؟

وهكذا اضطرمت النار فى احشاء نيجل وبدأت تتاجج فى ضراوة ، فراح يحس ـ عن وعى ويقين ـ بسحر هذه المرأة وفتنتها ٠٠ وما من ريب فى انه كان دائما أسير هذا السحر الى حد ما ٠ ولقد أدرك ايزاكسون ذلك ـ فى تلك الليلة ـ عندما رأى نيجل يقرب مقعده من مقعدها على مائدة العشاء فى سافوى ٠٠ ولكن نيجل كان أسير هذا السحر دون ان يقول

لنفسه قط : « لقد وقعت في الأسر » ! ٠٠ بل انه لم يعترف قط بأنه وقع فى هـــذا الأسر ، ومن ثم أثار ادراكه المباغت لتأثير سحرها عليه ، انفعاله الى حد كبير ٠٠ فهل قدر عليه ، بعد تلك الحقبة الطويلة من السنين ، أن تنتابه ثانيـــة تلك الحمى القوية ، ونحو امرأة شد ما تختلف عن تلك التى أحبها فى المرة الاولى ؟! لقد كانت هذه تقف فى شـــبابها الطاهر الغض عند طرف تلك السلسلة من الاعوام ، فهل تقف مسز تشبستو حقا عند الطرف الآخر ؟

وخيل اليه انه يرى الاثنتين ، وقد راحت كل منهما تتطلع الى الاخرى خلال هـــذا الفراغ الذى أقامه الزمن ، فانقبضت أساريره لحظة ٠٠ ولـــكنه كان قد تغير أثنـــاء اجتيـــازه ذلك الفراغ ٠٠ كان فى ذلك الحين ـ حين غرامه الاول ـ صـــبيا قلقا متقد الرغبة فى غمرة شبابه المتوثب !٠٠ **أما الآن فقـــد غدا رجلا شديد البأس ٠٠ وفى خلال الفترة التى فصلت بين الصبى والرجـــل ، ترعرع حبه القوى للانســـانية ، وعاطفته الجياشة نحو تقدم الخير الكامن فى كل مكان مثلما يكمن التبر فى الارض التى تحوى عروق الذهب !**٠٠ ولعل هذه العاطفـــة لم توهب له الا ليســـتطيع ان يجمـــع بين الحبين : حبـــه لخير الآخرين ، وحبه لتلك المرأة !٠٠ وخيل اليه عندئذ انأسارير المرأتين قد لانت وســـادتها طمأنينة ٠٠ آن مثل هـــذا الحب الجامع قد يتوج حياته بهالة من البهاء والسمو !

كان نيجل يفكر فى ذلك فى حماســـه المشبوب الذى فطر عليه ، والذى كثيرا ما كان يضعه فى معزل عن سائر الرجال ٠٠ وكان يرى انه اذا ما عاش فى ظل هذه الهالة من البهاء والسمو ، فما أعظم قدرته على تحدى الرأى العام ٠٠ ســـوف يكون لضحكات الرأى العـــام وقع الموسيقى فى مسمعه ، ولكلمات السخرية تأثير يثير ابتسامه ٠٠ ومع ذلك فقد كان ينبغى ان يفكر ٠٠ وان يطيل التفكير !

وانبعث قافزا من مقعده ، وراح يجذب كمى منامته ويثنيهما حتى بلغا كتفيه ، ثم انثنى الى النافذة يتطلع الى الليل البهيم ، وقد تعرى ساعداه ، وأسند وجنتيه الملتهبتين الى راحتيه !

الفصل الثامن

• كانت مسز تشبستو قد قالت لنيجل : « احضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى ، اذا رغب فى الحضور » .. ولكن الطبيب لم يذهب اليها قط ، بالرغم من ان نيجل اخبره بما قالت ، وردده عليه اكثر من مرة . وكان يتحاشى هذه الزيارة متعمدا ، دون ان يبدى انه قصد الى تحاشيها .. فقد كان نيجل يعلم تمام العلم ان صديقه لم يكن يحظى بساعة فراغ واحدة اثناء النهار .. وكان بوسعه ان يذهب فى احد ايام الآحاد ، ولكنه للمصادفة - او هكذا تعمد ان يبدو الأمر - كان يقضى ايام الآحاد بعيدا عن المدينة .. وكان يردد لنفسه: « ماجدوى ذهابى ؟ » .. كانت لديه تلك الكراهية التى يستشعرها ذوو النفوس الحساسة نحو التدخل فى شئون الآخرين ، فضلا عن شعوره الغريزى بانه قد يفقد صداقة نيجل اذا هو حاول ان يؤدى دور الصديق كما ينبغى .. فقد يصطدم بعد نظره وصدق بصيرته بتحمس نيجل واندفاعه العاطفى .. كما قد يبدو ادراكه الرزين بطبائع البشر والدنيا ، قسوة جامدة بالنسبة لكرم نيجل وتهافته فى الاشفاق !.. وكان ايزاكسون يشعر - فوق كل هذا - بنفور شخصى قوى نحو مسز تشبستو .. نفور كاد ان يكون ملموسا ، اذ ان الجزء اليهودى من نفسه أدرك تمام الادراك ذلك الجزء الجشع من نفس تلك المرأة !.. ولقد كان يكره يهوديته فى الوقت الذى كان يعترف بها فى اعماق نفسه ! على انه نادرا ما اظهر هذه الكراهية - ولو على سبيل الرياء - كما انه نادرا ما اظهرها بطريقة فظة فجة كما يفعل كثيرون من ذوى الدم اليهودى فى عدائهم للعنصر السامى ! .. ولكن هذه اليهودية ظلت تنبض بالحياة فى اعماقه ، وكانت فى صراع مستمر مع شعور كان يكمن فى الناحية الفنية من فطرته .. شعور «عالمى» يتضاءل بجواره الشعور العنصرى !.. وكانت الأمجاد الفنية والروائع تذكى هذا الشعور بالعالم فى نفسه ، فكان يرى فى حبه للفن اسمى مظاهر هذا الشعور

واذا كانت عقلية ايزاكسون اللماحة قد جمعت بينه وبين نيجل ، فان يهوديته جمعت بينه وبين مسز تشبستو ، بشكل آخر ، اذ كان هناك ثمة رابطة من التنافر ، ورابطة اخرى من التعاطف .. وكان ايزاكسون يدرك ان التنافر - مثله فى ذلك مثل التعاطف - خليق بان يربط بينه وبين مسز تشبستو ،

ومن ثم فان غريزته راحت تحمله على ان يتحاشاها حتى لا يدع مجالا لهذا الارتباط .. ولكن الظروف التى تعاقبت جعلته يوقن ان الذى يخاف شيئا لا يلبث ان يفاجأ به !

.. كان موسم النشاط الاجتماعى ينصرم بسرعة موشكا على نهايته ، عندما اقبل نيجل - فى ساعة جد متأخرة من احدى الليالى - الى المنزل القائم بميدان (كليفلاند) .. وكان ايزاكسون قد عاد لتوه بعد ان تناول العشاء فى الخارج ، عندما دوى رنين جرس الباب ، فخشى ان يكون الطارق قد جاء ليدعوه الى عمل من اعمال مهنته .. وما لبث ان تنفس الصعداء عندما جاء خادم - أثقل النعاس جفونه - يسأله ان كان يود ان يستقبل مستر ارماين .. والتقيا فى حجرة صغيرة بالطابق الأعلى ، اعتاد ايزاكسون ان يجلس فيها بالليل .. وكانت وثيرة الأثاث ، ولكنها كانت ثقيلة الجو بعض الشىء ، تحف بجدرانها ارفف محملة بالكتب . وعندما ولجها نيجل مسرعا - وعلى ذراعه معطف خفيف ، وفى يده قبعة رخوة - كانت الساعة على المدفأة تدق الواحدة !.. وبادره نيجل

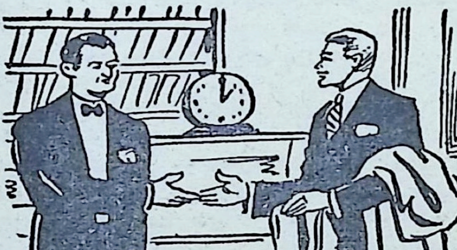

قائلا : « لقد لمحتك للتو فى شارع سان جيمس ، مستقلا سيارتك ، ولولا ذلك ما أتيت فى هذا الوقت المتأخر .. هل كنت تتأهب لأن تأوى الى الفراش ؟ اصدقنى القول ! »

- لا أحسبنى كنت ذاهبا للفراش الآن ، اذ اننى تناولت العشاء فى الخارج، ولا بد لى من ان أقرأ شيئا .. أفهذا اذن سبب احتفاظك بمعطفك ؟

فقال نيجل : « لأظهر الدليل على حسن نيتى ! حسنا ! » .. ووضع معطفه وقبعته على أحد المقاعد ، بينما سأله الطبيب : « هلا تناولت شيئا من الشراب؟» فأجاب الشاب : « كلا .. شكرا » ، ثم اتخذ مجلسه فى أحد المقاعد الكبيرة المريحة ، وقال : « اننى راحل غـــدا ولم أرك الا قليلا يا ايزاكسون ! » ..

فقال الطبيب : « أتراك ارتويت من المجتمع ؟ » .. وكان الجواب : « أكثر من الكفاية ! »

وكان ايزاكسون يجلس الى منضدة عليها عدد من الكتب ، فكان بين الحين والآخر يمس واحدا منها باحدى أصابعه الطويلة السمراء ، ويرفع غلافه ثم يتركه يسقط ثانية فى حركة آلية .. وما لبث ان تساءل : « هل ستعود فى الخريف ؟ » . فاجاب نيجل : « لبضعة أيام فقط – اثناء مرورى بلندن – فى طريق عودتى الى مصر ! » .. فهتف الطبيب : « شد ما اغبطك ! اننى اغبطك حقا ! » .. فقد خطر له – وهو يتامل بياض نيجل الناصع ويقارنه بسمرة بشرته هو – انه هو الذى يجب أن يذهب الى حيث تسطع الشمس حامية ، فى حين يبقى نيجل فى البلاد ذات الضوء الشاحب الباهت .. ولعل خاطرا مماثلا طرا على ذهن نيجل ، اذ قال : « جدير بك ان تذهب الى هناك يوما ما .. سوف تكون فى مكانك الطبيعى هناك ! ألم تذهب اليها قط ؟ » .. فاجاب : « مطلقا .. وكثيرا ما تمنيت أن أذهب » . وهنا تساءل نيجل : « ولماذا لا تفعل ؟ » .. وكان عقل أيزاكسون يساله هذا السؤال بالذات . وأجابته يهوديته بأنه كان يكسب مالا وفيرا فى لندن ، وان كل يوم يقضيه خارج لندن يفقده مبلغا جسيما !.. واستطرد نيجل معقبا على سؤاله : « يجب ان تنال اجازة يوما من الأيام وتذهب لترى مصر » .. فتساءل ايزاكسون : « اتقصد .. هذا الشتاء ؟ »

وامتدت أصابعه ترفع غلاف احد الكتب ، ثم تسقطه ، بينما تطلعت عيناه السوداوان ، المتالقتان ، الفياضتان بذكاء عارم ، الى نيجل لحظة ، ثم لم تلبثا ان تحولتا عنه ، بينما استدرك الطبيب فى هدوء : « ليس فى هذا الشتاء » .. وهتف نيجل : « ولكن .. لم لا يكون هذا الشتاء ؟ » . وكان فى لهجته اضطراب خفيف .. واجاب ايزاكسون : « لا أستطيع الابتعاد عن هنا الآن ، فلدى عمل كثير .. هل انت ذاهب الى الفيوم ؟ »

وكان نيجل يحدق فى السجادة الشرقية التى كانت تغطى أرض الحجرة ، بينما استقرت يداه القويتان على مسندى المقعد – وراحتاهما الى اسفل – وراحتا تضغطانهما بشدة .. واجاب : « أجل ، ساذهب الى هناك » .. فقال الطبيب: « وهل ستعيش فى الخيام ؟.. لقد التقيت ليلة امس برجل يعرفك ، وهو ضابط بالجيش المصرى فى اجازة الآن .. اسمه فريكر .. وقد اخبرنى بانك استصلحت قدرا كبيرا من أرض الصحراء ! » .. فقال الشاب : « لشد ماارجو أن أستصلح ما يفوق طاقتى بكثير .. فهو عمل طيب » .. فاردف الطبيب متسائلا : « وعمل شاق ؟ » .. وهتف نيجل : « شاق جدا .. وهذا سبب حبى له ! »

– اعلم ذلك .. انه حب الانسان لترويض النفس الأبية !

ـ أهو كذلك ؟٠٠ لا احسبنى ابالى كثيرا بما يستحثنى نحو شىء معين ، ولكنى اصارحك يا ايزاكسون بانه يخيل الى احيانا ان لك بصيرة نفاذة عجيبة تتغلغل فى صميم الأمور ٠٠ ان لك بعد نظر عجيبا ، خارقا !

ومال الى الأمام وهو يستطرد : « على ان هذا لا يسوؤنى منك أنت بالذات!»، فقال ايزاكسون : « اننى لا أملك ان أقرك ، ولكن لماذا يسوؤك ذلك فى اى شخص آخر ؟ » ٠٠ فاجاب نيجل ـ وهو ينقل فى اجابته بعض كلمات مسز تشبستو ، وان لم يكن ايزاكسون على علم بهذا الاقتباس : « أليس العقل ميالا الى ان يسيطر على القلب وان يتغلب عليه ؟ أولا تدفعه قوته الى الطغيان والجبروت فى كثير من الأحيان ؟ » ٠ فاجاب الطبيب : « يجب ان يدع المرء لكل منهما الفرص ! » ٠٠ وابتسم لما كان فى عبارته من سخرية لم تكن تروق له ، ولكنها وجدت ارتياحا من نيجل ، اذ قال : « أجل ، وأعتقد انك ممن يفعلون ذلك ، وهذا هو السبب فى ٠٠ ولكن لنعد الى ماكنا نقوله ٠٠ انك ذو بصيرة نفاذة الى الأمور ، فهلا ترى وأنت تعيش عادة هنا فى لندن ، ان الرجال والنساء الذين يعيشون فى جماعات مزدحمة ينحرفون غالبا عن جادة الحق والرحمة ؟٠٠ ألا ترى أنهم اذ يعيشون محتشدين ، كل وراء زميله كالجندى فى كتيبته عندما يذهب معها الى المعركة ٠٠ ألا ترى انهم اذ يعيشون هكذا كثيرا ما ينقلبون غلاظ الأكباد ، قساة ٠٠ بل انهم غالبا ما يصبحون اقرب الى الوحوش فى تعطشها للدماء ؟ »

فظل ايزاكسون لحظة ساكنا لا يريم ٠ وما لبث ان اجاب اخيرا : « ربما كانوا كذلك احيانا » ٠٠ فمضى نيجل فى استجوابه : « وهلا ترى أنهم عندئذ يتطلبون بعض الضحايا والقرابين ؟ » ٠ فتساءل الطبيب بدوره : « أتعنى قرابين بشرية ؟ » ٠ فلما اجابه الآخر : « نعم » ، قال : « ربما ٠٠ احيانا » ٠٠ وهنا ألقى نيجل بالسؤال الذى كان يدخره : « لماذا لم تذهب قط لزيارة مسز تشبستو ؟ »

وبدأت الأصابع السمراء تعبث بأغلفة الكتب من جديد ، تترك واحدا لتمسك بآخر ، ولكن فى تؤدة ورقة ٠٠ ثم قال ايزاكسون : « اننى لا أجد من الوقت ما يكفى لكى أزور احدا ، عدا مرضاى ، والناس الذين التقى بهم فى المجتمعات» ٠٠ فظل صاحبه ماضيا نحو هدفه : « ومن الطبيعى انك لا تلتقى البتة بمسز تشبستو فى المجتمعات ؟ » ٠٠ فأجاب الطبيب فى تردد : « حسنا ٠٠ كلا ! ان احدا لا يراها ! »

ـ انها كانت تود ان تحظى بزيارة منك ٠٠ ثم انها وحيدة تماما !

ـ أهى كذلك ؟

ـ هل تنوى البقاء طويلا فى لندن ؟

ـ ربما مكثت الى الثانى عشر أو الخامس عشر من أغسطس

فقال نيجل : « انها ستبقى هنا كذلك » •• وهتف الطبيب فى دهشة : « مسز تشبستو ؟ •• فى أيام الحر اللافح ؟ » •• فقال صديقه : « لا يبدو عليها انها فكرت فى مكان معين تذهب اليه ! » •• واكتفى ايزاكسون بان هتف : « آه ! » ، ثم فتح أحد الكتب بغير قصد ووضع يده على احدى الصفحات • وتصادف ان كان الكتاب عن السموم وعلاجها ، فراح يتحسس الصفحة فى حركة آلية وقد ترك يده عليها •• ومالبث نيجل ان قال : «ماأحسبك يا ايزاكسون متعطشا الى الدماء ؟ » ، فأجاب الطبيب : « أرجو أن لا أكون كذلك •• بل أعتقد أننى لست كذلك !»

– وأعتقد أنك تمقت ذلك كما أمقته ، تمقته وتشمئز منه ، من أعماق نفسك! ولكنى كثيرا ما احسست بأنك مستقل فى تفكيرك ، دون أن تحفل كثيرا بافكار الناس ! • ولقد أتيت اليك الليلة لأودعك ولأسألك أن تذهب – اذا وجدت من وقتك متسعا – لزيارة •• مسز تشبستو ، بين الحين والآخر •• وانى لأعلم انها ستقدر زيارتك لها أعظم تقدير ، فالواقع انها فى وحدة مقيتة حقا !•• واذا أنت ذهبت فلن تجد فى زيارتها ما يضجرك •• فهى امرأة ذكية بارعة ، تهتم بالأشياء التى تهتم انت بها •• هل لك ان «تطل» عليها من وقت لآخر ؟

فرفع أيزاكسون يده من فوق الكتاب ، وقال : « سأزورها » • وعندئذ هتف نيجل : « ما اطيب هذا ؟ » •• فتساءل الطبيب : « ولكن أواثق انت أنها راغبة فى ذلك ؟» ، فأجاب نيجل فى حرارة : « كل الثقة •• فهكذا قالت لى !» •• وكان فى سذاجة هذا الجواب ما جعل عقل ايزاكسون يبتسم ، وشيئا آخر فى اعماقه يئن ويتأوه !

واستطرد نيجل : « اننى مضطر للرحيل الى الريف •• اذ يجب ان أرى أخى هارويتش ، وزوى – زوجة أخى – وأختى المتزوجة ، كما تعلم •• » • وقفزت الى عينيه فجأة نظرة زاخرة بالألم ، ثم مالبث ان نهض وقد اشتدت النظرة ، وقال : « طابت ليلتك يا ايزاكسون •• أيها الصديق الحميم ! » •• وأمسك بيد ايزاكسون يشد عليها فى عزم •• وكانت قبضته دافئة قوية • وعاد يقول : « طابت ليلتك •• كم أحب أن أشعر باننى أعرف رجلا واحدا لا يتأثر باقوال الناس وانما يكون رأيه لنفسه بنفسه كما تفعل أنت •• فأنا أعرف هذا فيك •• وداعا ! »

وكانت النظرات المليئة بالألم قد تلاشت ، ولاحت عيناه الصافيتان تتألقان فى قوة وعزم •• وقال ايزاكسون « وداعا ! »

واذ انصرف نيجل ، وقف أيزاكسون بجانب المدفأة زهاء خمس دقائق ساكنا بلا حراك ، وقد استغرق فى التفكير •• ولكن دقات الساعة الصغيرة نبهته من استغراقته ، فرفع رأسه وتلفت حواليه ، وكان على وشك أن يطفىء النور عند ما حانت منه نظرة الى الكتاب المفتوح على المنضدة ، فمضى ليغلق

دفتيه ، واذا عيناه تقعان على هذه السطور :
« يجب ألا ننسى قط ان « الديجيتالين » من المواد التى لا تكون سامة الا اذا تكرر تناولها ، فالجرعة التى لا تحدث ضررا اذا ما أخذت مرة ، تغدو قاتلة اذا كثر تكرر تناولها . وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب »
وظل واقفا يحملق فى الصفحة المفتوحة أمامه : « وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب » !
وهز رأسه وكأنه يوافق على ذلك ، ثم أطبق الكتاب فى بطء وأطفأ النور !

* * *

◆ فى يوم عطلة البنوك من شهر اغسطس – وهو من أفظع ايام السنة فى لندن – انطلق الدكتور ايزاكسون ليزور مسز تشبستو . وكانت لندن ترزح تحت حر مرهق ، فلم يكن فى شوارعها سوى فئة قليلة من المشاة والمركبات .. وهنا وهناك ، كنت ترى جماعات صغيرة من الناس فى ثياب عجيبة شاذة، يحملقون فى المدينة بعيون جاحظة ونظرات جوفاء .. وكان أهالى لندن قد نزحوا الى الريف ، يسرحون ابصارهم فى الحقول والغابات .. وبدا رجال البوليس خاملين متبلدين ، كأن أحدا من الناس لن يرتكب بعد اليوم جريمة ، وكأنهم أحيطوا علما بذلك !.. وكانت قطع صغيرة من الورق تتطاير على غير هدى فوق أجنحة نسمات خفيفة حارة ، تثور فى هبات متباعدة ، ولا تلبث ان تخبو سريعا .. ووقف شيخ ذو رأس عجيب الصلع ، يتطلع خلال نافذة احد المنتديات . وما لبث ان راح يحك أنفه فى حيرة ، وهو يرد بصره الى الغرفة – التى كان يقف فيها – ثم يعاود التطلع خلال النافذة من جديد ! وكان صوت ارغن ينبعث مرددا لحن «مانولا» الذى ظل سنين عديدة فى أطواء الصمت !
لقد كانت لندن فى اشد أيام الصيف كآبة ، فهل من المحتمل ان تكون مسز تشبستو باقية فيها ؟ ولم يلبث ايزاكسون ان عرف الجواب .. فما ان ولج بهو فندق سافوى – حيث كان حراس الأبواب الضخام الأجسام يغفون تحت وطأة الوحدة – حتى علم أنها كانت فى الفندق .. واذن ، فلا مفر هناك !.. ومضى نحو المصعد ، ثم تبع احد الخدم الى باب حجرتها ، وقرع الخادم الباب ، فلم يتلق جوابا .. وعاد يطرقه من جديد بأشد من ذى قبل ، بينما كان أيزاكسون يقف خلفه منتظرا .. وما لبث ان سمع صوت من الداخل ينادى : « ادخل ! » .. ففتح الخادم الباب وهتف : « الدكتور ماير ايزاكسون! »
ومن المحتمل ان مسز تشبستو كانت جالسة فى شرفتها ، اذ انها كانت تقف فى فراغ احد أبواب الشرفة – عندما دخل ايزاكسون الحجرة – أمام مكتب صغير

كانت ادراجه فى مواجهة ذلك الباب •• وكان ثمة مقعد ذو مسندين فى الشرفة خلفها •• وهتفت تقول وفى صـــوتها رنة من الدهشة : « الدكتـــور ماير ايزاكسون ؟!» •• حتى اذا خرج الخادم وأغلق الباب ، استانفت تقول : « ما اعجب هذا ! » ، فسألها الطبيب : « ولكن •• لماذا يا مسز تشبستو ؟»

وتناول يدها ثم اطلقها بعد ان صافحها •• وعاد الى ذاكرته ـ اذ لمسها ـ ذلك اليوم الذى أمسك فيه برسغها فى حجرة الاستشارة بعيادته •• كان الاحساس الذى بعثته فيه اذ ذاك هو عين الذى بعثته فيه الآن •• او لعله كان اشد واقوى فى هذه المرة !

ـ لماذا ؟!•• لأن اليوم من أيام الأعياد !•• كما أنك لا تزورنى البتة •وبهذه المناسبة ، انها لبراعة فائقة منك ان تحدس اننى موجودة فى مثل هذا اليوم الذى يجمع الناس على السفر فيه ••

قال : « هكذا ترين ان الرجال ـ هم الآخرون ـ لهم الهامهم !»•• فقالت : « أو لم اعرف ذلك ، بعد الذى قاسيته ؟ ولكنى اليوم لا املك الا ان ابارك الهام الرجل ! اين تحب أن تجلس ؟ » • وقال مجيبا : « اينما شئت » • فاجلسته على الأريكة قائلة : « هنا ، اذن » ، ثم جلست على مقعد فى مواجهة الضوء •• وكانت عارية الراس لا ترتدى قبعة •• وساءل ايزاكسون نفسه عما تراها كانت تفعله طوال يومها ذاك ، وفيم كان بقاؤها فى لندن •• اما ان لها غرضا معينا من وراء ذلك ، فأمر ادركه كما تدرك المراة ان الثوب الذى ترتديه امراة أخرى ، من ثياب العام الماضى !•• وعندما التقت اعينهما احس بعنف النفور الذى كان يكتمه ، ومع ذلك فقد ادرك ان مسز تشبستو اصبحت تبدو أقل شحوبا وأصغر سنا واوفر جمالا مما كانت عليه فى آخر مرة جمعت بينهما! وكانت ترتدى ثيابا بسيطة غاية البساطة •• وخيل اليه ان لون شعرها قد تغير، وانه غدا ازهى مما كان ، ولكنه لم يكن واثقا من ذلك •• ومع ذلك فقد كان موقنا من ان نوعا من الحرارة قد سرى فى كيانها كله ، وكانه كان يشع من الأمل •• الأمل الذى بدا ـ من مظهرها القاسى الجاف البارد ، يوم زارته فى عيادته ـ انها كانت مجردة منه !

والمراة تعيش فى افكار الرجال الذين حولها ! وقد عاشت مسز تشبستو ـ فى تلك اللحظة ـ فى فكر ايزاكسون ، بصورة بدت اصغر سنا ، واقل شحوبا ، واوفر جمالا •• ولاح له ان زهوها وخيلاءها قد استيقظا بعد سبات ، وان تفكيره فيها قد زاد من قيمتها فجاة فى نظر نفسها ، وجعلها تعتقد انها قادرة على استمالته •• مع أنها ماحاولت قط أن تستميله فى المرة الأولى التى قابلته فيها •• ولكنه رآها ـ فى هذه المرة ـ تمضى الى عدة سلاحها لتنتقى منها السلاح المناسب الذى تطعنه به ، ومن ثم فقد بدأ يفهم لماذا اختارت ان تجلس فى مواجهة الضوء فى هدوء وثقة •• ومن المحال ان يستطيع رجل مثل نيجل ان

يفهم مسز تشبستو الى القدر الذى يستطيعه الدكتور ماير أيزاكسون ٠٠ حتى اذا كان نيجل قد أحبها ، واذا كان ايزاكسون قد تعلم كيف يمقتها !٠٠ ولكن ايزاكسون لم يكن يمقتها فى هذه اللحظة ، وانما كاد يمقت فى نفسه تلك البصيرة التى أرشدته الى حقيقتها ٠٠ تلك القدرة على الاستشفاف التى كان يحملها فى أعماقه ، والتى طبقها عليها بنجاح عظيم !٠٠ وانبعثت تقول : « ترى ما الذى استبقاك فى هذه المدينة المقفرة يا دكتور أيزاكسون ؟ لقد حسبت اننى وحيدة تماما فيها ! » ٠ فقال : « لايزال بالمدينة من يظنون انهم مرضى » ٠ فتساءلت : « وهلا زلت تقول لهم انهم ليسوا مرضى ؟ » ٠ فاجاب : « ان هذا يتوقف على ظروفهم !»

ـ أعتقد انك اعتنقت هذه الفكرة القائلة بأن ما من أحد يعانى مرضا حقيقيا، كطريقة للعلاج ! على انه من المحقق ان فيها شيئا من الصحة ٠٠ فانا نفسى كنت أتصور انى مريضة ، حتى قلت لى اننى على ما يرام ٠ ومنذ ذلك اليوم حدث لى شىء ما ، أحسب أنه تأثيرك على ٠٠ ويبدو انه جعلنى فى خير حال بالفعل ٠٠ واعتقد اننى أثق فيك ٠٠ كطبيب !

ـ لماذا تفسدين كل شىء بهذا التحفظ الذى اختتمت به عبارتك ؟!

ـ آه ! ولكن مهنتك هى التى تحدد شخصيتك !

ـ هل تظنين اننى أغرقت انسانيتى فى بحر من الطموح ؟

ـ حسنا ٠٠ ها أنت ذا فى المدينة فى هذا القيظ الفظيع يوم العطلة !

ـ انما انا فى المدينة ، لكى أحضر لزيارتك !

فهتفت : « وهل كنت واثقا الى هذا الحد من وجودى فى يوم كهذا ؟ » ٠٠ ثم رمقته بنظرة ملؤها السخرية والتهكم ، وهى تردف : « ولكن ، الا ترى ـ بصراحة ـ ان حب العلم يسيطر فى نفسك على كل عاطفة أخرى ؟٠٠ حب العلم ، وما يدره العلم عليك ؟ »٠ وهكذا مست نقطة الضعف فيه بيد ثابتة واثقة ٠٠ فقد كان لديه حب الكسب ، وكان بوساطة علمه ـ كطبيب ـ يكسب الكثير !٠٠ وأجاب : « ما اظنك تتوقعين منى ان أصرح بأن أى شىء يمكن ان يسيطر على ٠٠ فالرجل قلما يعترف بعبوديته حتى لنفسه ، اذا كان رجلا حقا» ٠٠ واذ ذاك قالت : «آه ! انك رجل حقا ، ولكن فيك شيئا من غرائز النساء !»٠ فلم يضطرب ، ولكنه سألها : « كيف عرفت ذلك ؟ » ٠ وكان جوابها : « لست أعرفه ٠٠ وانما أنا أحسه » ٠ فقال : « ان الاحساس هو المعرفة لدى المرأة !»٠ وكان تعليقها ان سألته : « وماهى المعرفة لدى الرجل ؟ »

ـ وهل تظن المرأة ان الرجل يعرف شيئا ؟

ـ من الرجال من أوتوا معرفة ٠٠ الرجال الخطرون ، مثلك !

ـ وفى أى شىء ترينني خطرا ؟

ـ لو أخبرتك لازددت خطورة ! اننى أكون حمقاء اذا انا ارشدتك الى

سلاحك !

ـ ولكنك لست فى حاجة الى من يرشدك الى سلاحك !

ولعل هذا القول منه كان اغراقا فى الصراحة الى حد القحة ، ولكنه شعر بأنها لن تنظر اليه على هذا النحو •• وفى ذلك كان يمتدح بحق حسن ذوقها ، او انعدام الذوق عندها ! •• فانها لم تكن تبتغى فى الواقع ، من اى رجل ، رقة ولا توقيرا •• وقد يكون نيجل معذورا اذا ركع « للعذراء » ذات الوجه الشاحب ، اما هو ـ ايزاكسون ـ فكان موقنا من أنه يخاطب امرأة حاذقة جردتها الأيام من اسلحتها • ولقد اعتاد فى اتصالاته بالناس ان يرتاد شخصياتهم ، ولكنه لم يعتد ان يتعرف على شخصيته هو ، وان يتصل بها كما يفعل الانسان اذا ماتحدث الى نفسه فى حجرة مظلمة !

وابتسمت قائلة : « من النساء فئة قليلة تحتاج الى الارشاد •• اذا كان لديها سلاح ! » •• فسألها : « وهل تخلو احداهن من سلاح ؟ » • وكان جوابها : « اجل •• هناك امرأة من هذا النوع » •• فقال فى فضول : «ترى من تكون؟»، فاجابت : « انها المرأة المفرطة فى الطيبة والصلاح ! »

وظل صامتا برهة ، وقد الجم لسانه ما لمسه من ضراوة تحديها •• وهى ضراوة اندفعت فجأة من اعماقها اندفاع السيف اذا انتزع من غمده •• وقال اخيرا : « اننى لا اعترف بذلك يا مسز تشبستو » •• وبدا فى تلك اللحظة كالرجل الذى يخاطب نفسه فى الظلام ، كما كان شأن نيجل فى أكثر الأحيان •• وقالت المرأة : « طبعا لا ، فما من رجل يعترف بذلك » • فسألها : « ولم لا ؟ » •• فكان جوابها : « لأن الرجال قلما يذكرون ـ حتى فيما بينهم وبين انفسهم ـ الأسلحة التى تقهرهم • ولكن النساء يعرفن ما هى تلك الأسلحة »

ـ النساء اللائى على غرار مدام مارنيف •• اما امثال البارونة هيلو ، فلا !

ـ ان امثال البارونة هيلو لا يعتد بهن !

ـ اهى حقا براعة منك ان تشمل الرجال عامة بحكمك ؟ •• الا تفرقين بيننا البتة؟

وكان يتكلم دون اى امتعاض •• بل انه لم يشعر بشىء من ذلك حقا • واجابت المرأة : « اننى أفرق بينهم •• فى بعض الأحيان فقط ، وليس دائما ! •• فهناك حقائق عامة تنطبق على الرجال جميعا مهما يكن اختلاف الواحد عن الآخر •• وهناك اشياء معينة يشعر بها الرجال جميعا ، ويشعرون بها بشكل واحد » •• فقال متسائلا : « اينطبق هذا على نيجل آرماين وانا مثلا ؟ » •• وهنا لاح فى عينيها اللامعتين بريق خاطف •• اتراه كان وميض خبث ؟ •• ثم قالت : « اجل •• حتى مستر ارماين وانت ! »

ـ اننى لن اسألك ما هى هذه الأشياء

ـ لعل ذلك الشطر النسائى من نفسك قد انبأك بها !

وتمهلت لحظة قبل ان تنطق بكلمة «النسائى» ، فأحس بأن الكلمة التى جالت

بخاطرها ، والتى ارادت ان تستخدمها هى : « اليهودى » ٠٠ ومع انه كان يكره فيها معرفتها الوثيقة به ، لأنه كان يكرهها هى بالذات ، فان تلك المعرفة من جانبها اثارت الناحية العقلية فيه ، وبثت فيها نشاطا استعذبه ٠ وقد احست المراة باستمتاعه ذاك ، فضاعف ذلك من شعورها بقدرتها ٠٠ وكان الحديث يجرى بينهما فى يسر وسهولة ٠ وسرعان ما اكتشف ما سبق له ان حدسه الى حدما :ذلك انها كانت امضى ذكاء واوفر حذقا مماكان يظنها ٠٠ولكن عقليتها كانت تبدو له صلبة كالبرونز ٠ وكما يعكس البرونز الأضواء ، كانت عقليتها تعكس الأضواء الباردة المنبعثة من طبيعتها٠٠وبالرغم من تعميمها الآراء التى ذكرتها على جميع الرجال ـ بما فى ذلك الاعتراف الضمنى بايمانها وثقتها العميقة فى الاسلحة الجسمانية ـ فانها عرفت كيف تنتقى افضل اسلحتها ملاءمة لايزاكسون ٠ وكان عقله مسوقا الى الاعتراف بذلك ٠٠ وفى هذا ايضا تجلت الحلقة التى تربط بينهما !٠٠ فلما نهض اخيرا لينصرف ، قالت : « احسبك ستغادر لندن عما قريب ؟»

ـ اننى اتوقع ان ارحل فى الخامس عشر ٠٠ وهل ستمكثين انت ؟

ـ اخشى ان يكون الامر كذلك ٠٠ وربما تساءلت عما افعله هنا ؟

فاجاب بصراحة : «اجل» ٠ واذ ذاك قالت : « اننى اقضى وقتا طويلا فى شرفتى ٠٠ وقد كنت فيها عندما قدمت انت » ٠ وتحركت قليلا نحو الشرفة وهى تستطرد قائلة : « الا تحب ان تشهد المنظر الذى اعيش فيه ؟ » ٠٠ فاطاع قائلا : «شكرا» ٠٠ وفيما كان يتبعها ـ خلال باب الشرفة المفتوح ـ فطن فجاة الى مدى ما اوتيت هذه المراة من فتنة جسدية طاغية ٠٠ كانت حركاتها كلها تنطق بذلك ، وكانها ميزات اختصت هى بها ٠٠ كانت هذه الحركات اشبه بجزء لا يتجزأ من شخصية معينة ٠٠ شخصيتها هى ! كان لها ما لومضات العيون من تعبيرات ذات طابع فردى ٠٠ ثم ، الم يكن فى خلقها ، وفى هذه الشخصية الفردية ، شىء ما ، يمتزج بكراهيته لها ، فيسحره ويفتنه ؟!

وجه الى نفسه هذا السؤال بينما كان يقف بالقرب منها فى الشرفة ٠٠ وهب عليه ثانية قيظ لندن بهوائه الثقيل ، حتى فى هذا الارتفاع عن سطح الأرض ٠٠ وكانت الشمس ساطعة متالقة ، والهواء ساكنا ساخنا ، والمنظر فسيحا مكشوفا ٠٠ ومع ذلك فقد احس ايزاكسون بوحشة غريبة ، كوحشة المناطق الحارة ، خيل اليه انها اشد وطاة وثقلا على النفس من وحشة الشتاء ٠٠ وقال : « وهل تقضين الكثير من وقتك هنا ؟ » ، فاجابت : « شطرا كبيرا منه ، اذ اجلس هنا وانصرف الى مطالعة احد الكتب ٠٠ افلا يستهويك هذا ؟ »

وانثنت تحول عينيها المتالقتين الواسعتين عن نظراته فى بطء ، وتتطلع من عل الى النهر ٠٠ بينما قال : « انه يروق لى ٠٠ ولكن لندن فى يوم كهذا تبدو

مقفرة موحشة الى حد مخيف ٠٠ انك تحسين ذلك ولا ريب ! » ٠٠ فردت عليه قائلة : « لا ٠٠ لست اشعر بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف ! » ٠٠ وتبدلت نبرات صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات ، فسرت فيه نغمة جديدة ، هى نغمة الانتصار ٠٠ او هكذا خيل الى ايزاكسون !٠٠ كانت الحرارة التى سرت فيها - كانها حرارة الأمل - قد شدت ازرها وبدلت كيانها ومظهرها معا !٠٠وعادت تقول فى هدوء ، وفى صوتها رعدة خفيفة : « ان للمرء موارده النابعة من اعماق نفسه ! »

واستدارت نحوه من جديد ٠٠ وبدا قوامها الفارع - وكانت اطول منه بنحو ثلاث بوصات على الأقل - جميلا فى وقفتها المعتدة المزهوة ، فى غير ابتذال ، والتى نمت عن رباطة الجاش ٠ وكانت يداها النحيلتان الدقيقتان تمسكان بسياج الشرفة فيما يشبه التشبث ، بينما انثنى عنقها الطويل فى حركة رقيقة عندما ادارت راسها صوبه ٠٠ ولم يفت عينيه شىء مما تركه الزمن لها من جمال وحسن ، فقد كانت له عينان تزنان الأمور بميزانها الصحيح ٠٠ وعادت المراة تقول : « اظننت ان ليست لى موارد نفسية ؟ » ٠٠ وهنا قرر فجاة ان يتحدث اليها بمزيد من الوضوح ، اذ كانت - حتى تلك اللحظة - قد احاطت حديثهما بسياج من التظاهر والادعاء ، ولكن عينيها كانتا تنظران اليه فى تحد واستفزاز، فلم يملك الا ان يرد على تحديها قائلا : « او نسيت مقدار ما اعرفه عنك ؟ »

- هل تعنى ٠٠ ماتقوله الشائعات عنى ؟

- اننى اعنى ما قلته لى عن نفسك ٠٠

- متى كان ذلك ؟ آه ! تقصد ما دار فى عيادتك ؟ وهل تصدق كل ماتقوله المراة لك ؟

وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة ، بينما كان يقول : « بل اننى اصدق كل ما قلته لى فى ذلك اليوم - فى عيادتى - كما انكر كل الانكار ما قلته لى ولمستر ارماين فىالليلة نفسها ، عندما التقينا بكوانت تتناولين عشاءك !» ٠فسالته : « وعلام تستند فىهذا الانكار وذلك التصديق ؟ » ٠٠واجاب : « هبى اننىاعتمد على غريزتى » ٠٠ فقالت : « فى هذه الحال اجيبك بان لك ان تصدقها بكل مافى وسعك ٠٠ ولكن لا تتوقع ان يصدقها كل امرىء بالمثل » ٠٠ ودوت كلماتها الأخيرة كوعيد ضاحك ، فقال فى هدوء : « ولماذا اهتم بان يصدقها الآخرون؟» ٠٠ فاجابت فى ابتسامة رقيقة : « اننى ادع لغريزتك ان تنبئك عن ذلك ياعزيزى الدكتور »

- حسنا ٠٠ لقد آن لى ان اودعك ٠٠ ان اتركك لمواردك النابعة من اعماق نفسك ٠٠ ولكنك لم تخبرينى ماهى ؟

فتساءلت : « ألا تستطيع ان تحدسها ؟ » ٠ وكان جوابه : « احسبها موارد روحية ! » ٠٠ فقالت : « لقد اصبت ٠٠ ايها الرجل الذكى ! »٠٠ ولذ ذاك

قال : « واين انجيلك المادى الذى كنت تعظيننى - فى قوة وحرارة - بما جاء فى تعاليمه عن المقامرة ، ورحلات اليخوت ، والسباق ، وقيادة السيارات ، وارتياد المسارح ، والطعام والشراب ، عملا بمبدأ « اعمل لدنياك كانك تموت غدا » ؟! أين تلك المباهج التى تلازم الحياة الدنيوية الراقية اليوم ، والتى قلت انك تستمتعين بها ؟ هل ابدلتها جميعا عن رضى وطواعية ، بالموارد الداخلية ؟ » .. فاجابت : « أجل ، بالموارد النفسية ! » .. ولم تطرف عيناها الباسمتان أو تشيحا عنه .. وخيل اليه انهما فى صلابتهما كانتا أشبه بجوهرتين لامعتين تتالقان تحت حاجبين رسمتهما يد بارعة .. وقالت : « وداعا ..وأرجو ان تزورنى ثانية ! »

وفيما كان ايزاكسون يقطع الردهة - فى تؤدة - منصرفا ، فتحت مسز تشبستو درج مكتبها ، فأخرجت منه حزمة من الرسائل كانت قد وضعتها فيه عندما طرق الخادم الباب ليعلن اليها وصول الطبيب .. وكانت الخطابات كلها من .. نيجل ارماين !

الفصل التاسع

◆ لم يذهب ايزاكسون لزيارة مسز تشبستو مرة أخرى ، قبل ان يغادر لندن فى اجازته السنوية . ولقد هم - أكثر من مرة - بالذهاب اليها ، اذ كان ثمة شيء فى أعماقه يهيب به أن يفعل .. شيء لعله كان من الفضول الذهنى! .. على ان ثمة شيئا آخر كان يصد الطبيب عن الذهاب . فلقد احس بأن المرأة كانت تتجاهل الجانب الطيب من نفسه . ولكن ، فيم كان يعنيه رأيها فيه أو افكارها عنه ؟ .. وراح يوجه لنفسه هذا السؤال ، فلما قدر له ان يجيب عنه ، ألفى نفسه مضطرا الى الاعتراف بان هذه المرأة قد تركت فى نفسه اثرا محدودا .. اثرا قد لايرضيها ، ولكنه كان واضحا جليا ، وكان وضوحه ينم عن قدر من قوتها وسلطانها !.. فلقد أحس انه برغم نفوره من مسز تشبستو ، وبرغم انه ذهب فى ذلك الى حد الاعراض عنها فى كراهية متقززة ، الا انه لم يكن من المستبعد - اذا قدر له ان يراها بكثرة - ان يبلغ به الأمر الى درجة الشوق الى مشاهدتها اذا هى غابت عنه !.. انه ما أحس قط بمثل هذا الشعور من قبل نحو امرأة .. افلا تشتمل الكراهية على شيء من الجاذبية؟!.. وهكذا تبين ايزاكسون بجلاء - على ضوء كراهيته لمسز تشبستو - سر اجتذابها نيجل .. على ان الصراع الذى احتدم فى أعماقه - فى تلك الأيام القائظة من شهر اغسطس - انتهى الى انتصار «يهوديته» على فضوله الذهنى .. ومن ثم لم يعد ثانية الى فندق سافوى

وقضى اجازته فى الخارج ، على ضفاف بحيرة (كومو) ، وحيدا منفردا . فقد

كان يعمد - فى كل عام - الى اعتكاف كان يحس بحاجة ماسة اليه بعد عمله المضنى طوال العام ٠٠ ذلك العمل الذى كان يقتضيه مخالطة الناس دواما ٠٠ وكان ، فى عزلته تلك ، يصيد السمك فى البحيرة الخضراء ، أو يمارس الرسم فى الحديقة الفناء بالفندق الذى كان شبه خاو ٠٠ وكان يقضى بضع ساعات من كل يوم فى دراساته العلمية ٠ وقد انصرف فى هذا الصيف الى القراءة عن مفعول بعض أنواع من السموم غير المألوفة ، فكانت له ساعات عجيبة مع تلك الأبحاث ، اذ كان موفور الخيال ، فكان اذا استغرق فى القراءة تمثل تلك العناصر المدمرة فى صور كائنات حية ٠٠ وبعد فترات طويلة من الانكباب على صفحات كتبه او أوراق مذكراته ، كان يرفع رأسه أحيانا فيقع نظره على مياه البحيرة الخضراء الساكنة ، والجبال الخضراء الرقيقة المعالم ، الرفيعة الذرى ، وقد شرعت قممها فى كبد السماء ٠٠ واذ ذاك كان يرتد من رحلته فى دروب الرعب والفزع ، فيمر به ما يطوف بالمسافر المنهوك القوى من دوار ، ويحملق مشدوها فى الجمال الذى كان يصافح عينيه هنا وهناك ٠٠ فاذا عمل بالليل ، كانت جولات العقل السريعة فى مسالك الفكر - ساعات طويلة - تصم اذنيه عن الأصوات المنبعثة فى الخارج ، ثم لا يلبث ان يفيق على رنين الأجراس ٠٠ أجراس المياه الهادئة ، او اجراس البر الحالم ٠٠ وعندئذ كان يرفع رأسه ويصيخ السمع ٠٠ ويظل ينصت حتى تستحوذ على مشاعره غرابة الليل ، وغرابة الدنيا بما تضم عليها جوانحها من جرائم مروعة ومفاتن ناعمة ، فتثير نفسه ، وتاسر روحه ٠٠ ويروح يقارن بين الحياتين : حياته هذه بجانب البحيرة الهادئة ، وحيدا ، منصرفا الى البحث والأحلام ٠٠ وحياته تلك فى ضجيج لندن وعجيجها ، وأمواج الناس تتدفق على حجرته ٠٠ وعندئذ يخال نفسه رجلين ٠٠ بل لعله اكثر من اثنين !

وسرعان ما انقضت الأسابيع الأربعة بجوار البحيرة ، وتلتها جولة اسبوعين فى (ميلانو) و (ميونيخ) و (برلين) و (باريس) ٠٠ حتى انتهى به المطاف الى الوطن من جديد ٠ ولم يكن قد سمع شيئا عن نيجل خلال رحلته ٠٠ ولا عن مسز تشبستو !

ولفظ سبتمبر انفاسه بين ذراعى اكتوبر السمراوين ، ثم تلقى ايزاكسون خطابا من نيجل كان مرسلا من (ستاك هاوس) - وهو كوخ للصيد فى اسكتلندا - يبشر بعودته فى القريب الى الجنوب ٠٠ وقد كتب فيه : « اننى امارس الصيد مع هارويتش ، ولكن الوقت حان لأفكر فى عودتى الى مصر ٠٠ واذا كنت لم اكتب لك من قبل ، الا اننى كنت اريد ان اشكر لك زيارتك لمسز تشبستو ، فانك لا تتصور مدى اغتباطها وتقديرها لتلك الزيارة ٠٠ وقد سرت كثيرا لحديثك الطلى وروح الدعابة التى سادته ، ولكن ابتهاجها كان اشد لعطفك ورقة شعورك ٠٠ الا انها فى الآونة الأخيرة قد حرمت هذه النعمة ، مما اثار اشجانها ٠٠ يا الهى ! لو أن البشر ادركوا يا ايزاكسون ما للقليل من العطف الصادق من

قيمة لدى اولئك الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، لما توالوا عن البذل بسخاء، ولو ليحظوا فى مقابل ذلك بحرارة الوداد ! ولكنهم لا يدركون !٠٠ وكم الكر - احيانا - فى اصدق شىء قيل منذ الخليقة ، وهو : « انهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ٠٠ فلو اضفت اليه : « وما يغفلون عمله » ، لوجدت تفسيرا لمعظم مافى العالم من تعس وشقاء ٠٠ الى اللقاء ايها الصديق الحميم ، وسوف احضر الى ميدان كليفلاند بمجرد عودتى الى لندن ٠٠ وشكرا لك على تلك الزيارة - المخلص الى الأبد : نيجل ارماين »

وكان هيام نيجل يبدو واضحا ، وكانه ينبعث من ورق الخطاب ، بينما كان ايزاكسون ممسكا به بين يديه ٠٠ « عطفك ورقة شعورك » ! اذن فقد تاثرت مسز تشبستو بعطفه ورقة مسلكه ٠٠ مسلك ايزاكسون !٠٠ ما من شك فى انها ونيجل يتبادلان الرسائل ٠٠ وتذكر ايزاكسون اسارير الانتصار التى كانت تتبدى بين الحين والحين فى لهجتها ٠٠ اذن فقد كانت تتلقى الرسائل من نيجل اثناء غيبته عن لندن ، وكانت هذه الخطابات مبعث الأمل الذى تجلى على محياها ! ٠٠وتمثلها ايزاكسون فىالشرفة وهىتتامل النهر :الم تكن تتطلعاليه كما تتطلع الروح البشرية الى مجال مامول تنطلق فيه ؟٠٠ وعندما تذكر التعبيرات التى تجلت على اساريرها وفى مسلكها ، الفى هذه التعبيرات تزداد وضوحا ، وادرك اذ ذاك معناها الذى طالت حيرته فى تفسيره !٠٠ ومع ذلك ، فان نيجل لم يفض بشىء عن علاقته بمسز تشبستو ، وقد استطاع ان يبقى - طوال هذه المدة - بعيدا عنها ، وما من شك فى ان مثل هذا الغياب يعد غريبا، ويبدو مخالفا لما كان يرتقب منه ، بعيدا عن طباعه المندفعة فى تحمسها ، اذا صح تقدير ايزاكسون لهذه الطباع ٠٠ ولكن ، هب ان تقديره غير صحيح ٠٠ الا يجوز ان يكون هذا النبع الدافق من الشفقة الانسانية - فى نفس نيجل - خداعا ؟

لقد قال ايزاكسون يوما : «ان الاحساس هو مصدر المعرفة عند المراة» ، وها هو ذا يضيف الى هذه العبارة فى ذهنه : « وعند الرجل احيانا » ٠ وقد خامره كثير من الأحاسيس ازاء هذا الأمر ، ولكنه جهد فى تنحية هذه الأحاسيس جانبا ٠ على انه لن يلبث أن يعرف الحقيقة عما قريب ٠٠ وحتى ذلك الحين ، فمن العبث ان يحاج او يجادل ٠٠ ثم ان لديه أعمالا كثيرة تصرفه عن ذلك !

* * *

◆ ولم يعد نيجل الى لندن حتى اواخر اكتوبر تقريبا ٠٠ وكانت الأوراق تتساقط من الأشجار ككتائب تتهاوى صرعى فى الميدان ٠ وبدات رياح

الخريف تعود من جديد ، ومعها أمطار الخريف ، التى تكتسح – فى نشاط محزن – آخر آثار الصيف الحلوة .. وفى كل مكان من الريف والمدينة خيم ذلك الجو المقبض المنذر بنهاية العـام ، والذى قلما يخفق – بل انه لا يخفق البتة – فى اسباغ ثوب قاتم من السحب الكثيفة على السنة المحتضرة .. فى انجلترا ! .. وكان الانقبـاض الذى يحل بالناس فى هـذا الفصل – والذى يعتبر من صفاته المميزة – يبعث بهم الى الأطباء .. وهكذا كان الدكتور ايزاكسون يجلس فى عيادته ، يوما بعد يوم ، يصف من العلاج لأذهان الرجال أكثر مما يصف لأبدانهم ، ويعيش مع نفوسهم المعذبة أكثر مما يعيش مع امراضهم الجسمانية .. ولقـد كان الأثر الذى راح مرضاه يخلفونه فى نفسه – فى ذلك العام – يزيد على المألوف ، فكان يشعر وهو يزيل عنهم امراضهم ، بانه ياخذها لنفسه ، وان هواجسهم كانت تنتقل الى ذهنه كما تنتقل الجراثيم من بدن الى بدن ، وانهم اذ يلجاون اليه انما يبتغون به شرا ! .. وكان يقول لنفسه ان الأجازة التى حصل عليها لم تكن كافية لراحته ، ولكنه لم يفكر لحظة فى ان ينقص من عمله .. فقد كان النجاح يجرفه ويدفعه نحو المزيد من العمل المرهق ، وكانت قابليته للعمل تزداد بازدياد توفيقه ، وقد سره نمو ثروته !

واخيرا طرق نيجل بابه قادما لزيارته ، ولكن ايزاكسون لم يستطع لقاءه ، فبعث اليه بكلمة يحدد فيها موعدا للقائهما فى المساء .. وكان عليهما ان يلتقيا فى الساعة الثامنة فى حفلة موسيقية فى « قاعة الملكة » . ولقد تاخر ايزاكسون قليلا عن موعده ، فلما وصل دخل القاعة فى سرعة اثناء فاصل بين حركتين من سـيمفونية تشايكوفسكى – التى سـماها « السيمفونية الحزينة » – فوجد نيجل فى مقعده .. وجلس الى جواره بعد أن تبادلا التحية .. وفى تلك اللحظة رفع رئيس الفرقة عصاه ، وبدات الحركة التالية ..

وكانت فى اللحن الموسيقى خفقات كخفقات القلب ، تنبض بالحاح دائب ، فى اتساق جميل ورتابة رهيبة فى آن واحـــد ! وكان ايزاكسون كثيرا ما استمع الى هذه السيمفونية ، فغرق فى الأثر المزدوج لهذه الرتابة : أثر الجمال ، وأثر الرهبة ، وقد اتحدا فى امتزاج غريب ! ٠٠ على ان ما للموسيقى من شجى غامض كان فى تلك الليلة أكثر استهواء له ، واثارة لآلامه ٠٠ ولعله كان مكدودا ، أو ربما كان ثمة سبب آخر لم يدر كنهه ٠٠ كانت الخفقات الرتيبة أشبه بنبض الحياة ! تلك الحياة التى كان والرجل الجالس الى جانبه مضطرين الى خوض غمارها لفترة من الزمن ، ثم لن يلبثا ان ينطلقا منها يوما من الأيام ، سواء أكان ذلك بمشيئتهما أو رغم أنفيهما ! ٠٠ نبض الحياة ! ٠٠ وانتقل عقله فجأة من التعميم الى التخصيص ، ففكر فى نبض المرأة : فى قوته ، وانتظامه ، وقسوته ٠٠ وخيل اليه انه يشعر تحت اصابعه بنبض مسز تشبستو بالذات ، فأدرك انه انما فكر فيها لأن نيجل ارماين كان يفكر فيها ايضا ، وانه قرنها بالموسيقى لأن نيجل ارماين كان ـ مثله ـ يقرنها بالموسيقى ! فاغاظ ذلك ايزاكسون ، فجهـــد فى تخليص عقله من التفكير فى مسز تشبستو ، ولكن جهوده ذهبت عبثا ٠٠ كان نبضها تحت اصابعه ، وفى كل خفقة منه كان شعوره بسر الحياة وقسوتها يزداد حدة !

وعندما انتهت الحركة الموسيقية ، لم ينبس ببنت شفة ٠٠ لا ولم ينظر الى نيجل ٠٠ وبينما كانت النغمات الأخيرة للسيمفونية تتلاشى هابطة الى هوة من الشقاء والظلمات ، لم ينطق بحرف ، ولم يتحرك فى مكانه ٠٠ كان يشعر بنفسه محطما مهدم القوى ، كشخص ضرب ضربا مبرحا ! ٠٠ ولكنه ما لبث أن سمع صديقه يهتف : « ايزاكسون » ، فاجاب : « نعم ؟ » ٠ واستدار قليلا فى مقعده ، بينما كان نيجل يقول : « يا لها من موسيقى عظيمة ٠٠ ولكنها خطأ فى خطأ ! » ٠ فتساءل : « ولماذا ؟ » ٠ واجاب صاحبه : « خطأ فى الدرس الذى توحى به ! »

ولم يتمالك الفنان الكامن فى نفس ايزاكسون من اخفاء الرعدة التى مرت بجسده ٠٠ وقال : « لست أنشد دروسا ٠٠ ولست اريد ان اتلقى درسا منها » ٠٠ فرد نيجل قائلا : « ولكن المؤلف يرغم المرء على ذلك ٠٠ انه درس فى اليأس ، وفى اقرار المرء بعجزه ٠٠ فلا جدوى البتة من اى مجهود تبذله ، لأن « الارادة الأزلية » تفرض مشيئتها عليك ٠٠ وينتهى بك الأمر اخيرا الى الاستسلام والخضوع ٠٠ ان هذه الموسيقى اكذوبة عظيمة ! انها جميلة رائعة ، ولكنها اكذوبة ! » ٠ ولم يبد ايزاكسون رايا ، بل قال متسائلا : « الا تحب أن نخرج قليلا ؟ ان لدينا عشر دقائق للاستراحة »

وانطلقا الى الردهات الخارجية حيث اخذا يسيران الهوينا ذهابا وجيئة ، وهما يمران ـ مرة بعد أخرى ـ بغيرهم ممن كانوا يتناقشون فى الموسيقى ٠

وراح نيجل يتابع حديثه : « ان مثل هذه الموسيقى تثير حنقى وحفيظتى ، وتجعلنى أحس باننى لن أتخاذل أمامها ! » ، فلم يتمالك ايزاكسون نفسه من الابتسام ، وقال : « ليس بوسعى أن أنظر الى الفن من زاوية خلقية » . فقال نيجل متحمسا لفكرته : « بل من المحقق ان الفن غالبا ما يجعلك تتجه فى تفكيرك اتجاها خلقيا : سواء أكان قويما أو منحرفا .. ومن المحقق كذلك انه يمدك بحوافز ودوافع ترتبط بالحياة وبالناس » .. فنظر اليه ايزاكسون قائلا : « لا أنكر قولك ، ولكن هذه الحوافز أشبه باطياف « بروكن » المعتمة .. مجرد صور غامضة لا تلبث أن تتـــلاشى سريعا ويبتلعها الظـــلام .. والموسيقى العظيمة ، وان كانت متناسقة فى تكوينها ، الا انها غالبا ما تخلق فى نفوس أولئك الذين يستمعون اليها خليطا من الأحاسيس المضطربة » .

- اذن فلا بد أن هذه الموسيقى تثير فيك القنوط ؟!

فأجاب الطبيب : « أجل » . واذ ذاك قال نيجل : « ولكنها تثير فى نفسى الرغبة فى القتال ! » . فهتف ايزاكسون : « ماذا ؟ » ، فاستأنف نيجل الحديث قائلا : « القتال ضد جميع شرور الدنيا وأحزانها .. فاننى أمقت اليأس » .. وتطلع ايزاكسون اليه مرة أخرى ، فتبين مبلغ ما كان يبدو عليه من القوة ، ومن المرح ، فقال له : « لقد أفدت كثيرا من اقامتك فى اسكتلندا .. فانت الليلة رائع البهاء » . وكان يرمى الى فوق ما فى هذا التعبير من معنى . فقد تبدى له فى صديقه - فى تلك الليلة - بهاء وروعة كانما خلقتهما قوة كامنة فى أعماقه ، تملأ نفسه اشعاعا واشراقا ، وتكشف عن سحرها بما كانت تسبغه على قوامه وأساريره !

وقال نيجل : « اننى أتطلع الى الشتاء فى لهفة » .. فتذكر ايزاكسون رنة الانتصار التى تخللت صوت مسز تشبستو وهى تقول : « لست أحس بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف » ، وكانت تقصد وحشة لندن واقفارها .. لا مراء فى أن نيجل كان يردد الآن صدى هذه النبرة .. وفى تلك اللحظة دوى رنين الجرس الكهربائى ، فعادا الى مقعديهما فى القاعة حيث لبثا حتى انتهت الحفلة الموسيقية ، فخرجا يسيران معا فى (ريجنت ستريت) .. وكان الشارع كئيبا مليئا بالضباب والضوضاء المزعجة ..

وقال ماير ايزاكسون : « متى ترحل الى مصر ؟ » .. فاجاب نيجل : « فى خلال عشرة أيام ، على ما أحسب .. أتتمنى لو انك كنت مسافرا الى هناك ، انت الآخر ؟ » . فقال ايزاكسون فى تحسر : « لست أجد مهربا من هنا » .. فعاد نيجل يتساءل : « ولكن .. هل تود ذلك ؟ » .. وظل ايزاكسون لحظة لا يحير جوابا ، ثم قال بعد الصمت : « أحب ولا أحب ! ان العمل يقيد المرء بشكل غريب ، اذ انه يشدد قبضته على نفس المرء وروحه ، اذا كان بطبعه مجدا دؤوبا .. ان شطرا منى يريد الفرار .. بل كثيرا ما يريد الفرار ! »

.. وهنا صاح نيجل : « أما أنا فان كيانى كله ينشد الفرار »

وتلفت حواليه ، فاذا بعض الناس يبحثون عن « المتعة » فى الظلام ! .. وراهم يقفون عند زوايا الشوارع ، يحدقون فى ترقب خشية أن يفقدوا تلك النشوة الشكلية ! .. وكانت العربات تحمل الناس أزواجا ، وتسرع بهم حتى تغيب فى الشمال والجنوب ، مختفية فى الظلام ، فهتف يقول : « شد ما أود أن أذهب الى النور ! » .. واذ ذاك ، أشار ماير ايزاكسون الى الأضواء المتلألئة فى ميدان (بيكاديللى) ، وقال : « حسنا ، ها هو ذا أمامنا ! » .. فقال نيجل : « بل اننى أريد أن أذهب الى النور الحقيقى .. نور الشمس .. واريد كل امرىء غيرى أن يذهب اليه كذلك ! » .. وهنا قال الطبيب : « ان اندفاعك العاطفى يلازمك فى كافة نواحى حياتك ! .. أتود أن تحمل العالم معك الى مصر ؟ »

فأمسك نيجل بذراعه قائلا : « يخيل الى ان من الأنانية أن يذهب المرء بمفـــرده ! » . وهنا ساله ايزاكسون : « وهل ستذهب بمفـــردك ؟ » .. وانطلق السؤال من بين شفتيه فى عناء ، فقد كان عقله لا يفتأ يفكر فيه طول الأمسية ، واذا به يصوغه فى كلمات يدفع بها الى لسانه دفعا .. وشددت أصابع نيجل القوية الضغط على ذراعه وهو يقـــول : « لست أريد الرحيل بمفردى » .. فقال الطبيب : « أما أنا فخير لى أن أظل وحيدا ، من أن لا أحظى بالرفيق الذى يلائمنى تماما .. الرفيق الذى يستطيع أن يشعر ويفكر معى ، بنفس الطريقة التى أشعر وأفكر بها . فكل صحبة على غير ذلك انما هى صحبة مدمرة ! »

وكان ايزاكسون يتكلم وقد خانته سيطرته العادية على مشاعره .. كما كان فى أسلوبه شىء من الحرارة الكامنة .. واذ رأى نيجل لا يحير جوابا ، استطرد قائلا : « ألا تتفق معى فى ذلك ؟ » ، فقال صاحبه : « قد يستطيع الناس أن يتعلموا وحدة المشـــاعر والأحاسيس ! » .. فتســـاءل الطبيب : « هل تعنى انه اذا اجتمعت نفسان ، فان القوية منهما قد تسيطر عـــلى الضعيفة من تلقاء ذاتها ؟ .. اننى لا أحب أن أخضع لأحد ، ولا احب أن أسيطر على أحد ، وانما أحب الاستقلال المتبـــادل الذى يصحبه اشـــتراك العاطفة اشتراكا كاملا ! »

وفيما كانت هذه الكلمات تنبعث من شفتيه ، ذكر فجاة نزمته هو شخصيا، فضحك فى تهكم وهو يستطرد قائلا : « ولكن اين نجـــد ذلك ؟ ان الذين يرضون بالقليل على حق فيما يفعلون .. ولكنك فيما احسب .. تتطلع الى اكثر مما اتطلع اليه ، على نحو ما » .. واضاف العبارة الأخيرة على سبيل التلطف ، اذ تذكر مدى تفوقه فى الذكاء على نيجل . فقال هذا : « اننى احب

ان الأثر بعطائى اولئك الذين لا يرتقبونه ! .. اف ! شد ما ابغض هـذا الميدان »

ـ هلا ركبنا عربة وذهبنا الى ميدان كليفلاند ؟

ـ اجل .. سوف آتى معك قليلا

وعندما استقرا فى المنزل قال نيجل : « انني احب ان اشكر لك زيارتك لمسز تشبستو » .. ولفظ هذه العبارة بسرعة مباغتة ، شأن الرجل الذى يظل مدة من الوقت معتزما ان يقول شيئا ، ولا يلبث فجأة - فى شيء من العناء - ان يؤدى ما اعتزم .. وهتف الطبيب : « ولماذا بحق السماء تود ان تشكرنى ؟ » ، فاجاب : «لأننى سألتك ان تزورها» .. فقال ايزاكسون : « اما زالت مسز تشبستو فى لندن ؟ » . وكان جواب نيجل : « بلى .. وقد رايتها اليوم .. انها تتحدث عن الذهاب الى مصر لقضاء الشتاء »

ـ فى القاهرة على ما اظن ؟

ـ احسبها قد ملت الاقامة فى المدن !

ـ اذن فستذهب شمالا فى مجرى النيل ؟

وكان ينهض بين الرجلين حاجز من التحفظ ، احس به كل منهما حادا ، صلبا .. وما لبث نيجل ان قال : « لسوف اعنى بها اذا ذهبت ، وان لم يكن هذا محققا » .. ولم يقل ماير ايزاكسون شيئا . وبعد صمت ثقيل ، غير نيجل موضوع الحديث ، ثم ما لبث ان انصرف بعد قليل . فما ان مضى لشانه حتى عاد ايزاكسون الى حجرة الجلوس بالطابق الأعلى ، واشعل نرجيلته ! .. كان قد اطفأ جميع المصابيح الكهربائية الا واحدا .. ولما كان يجلس وحده فى الحجرة الصغيرة الخافتة الضوء ، ممسكا بخرطوم النرجيلة الطويل الثعبانى بين يديه الرقيقتين ، اللتين كانتا تشبهان أيدى الفنانين ، لاح كانه يهودى من الشرق ، ولو انه وضع طربوشا فوق رأسه ، لانسلت اوروبا من عروقه قطرة فقطرة ! .. حتى تعبيرات وجهه تراءت شرقية كاملة ، فى ذكائها الأسمر المتالق ، وفى صبرها الناشىء عن دهاء !

« لسوف اعنى بها ! » .. ان هذه العبارة اذا ما صدرت عن امراة كمسز تشبستو ، من رجل فى شباب نيجل ارماين وقوته وعاطفته الجياشة ، فلن يكون لها سوى احد معنيين : ان تصبح هذه المراة خليلته ، او ان تغدو حليلته !.. فاى المعنيين كان يقصـد ؟.. وحاول ايزاكسون ان يستدل على ذلك من لهجة نيجل او مسلكه : لقد كان صديقه يبدو حائرا مضطربا ، بل لاشك فى انه كان حائرا مضطربا ! ولكن ربما كان ذلك ناشئا عن شيء فى مسلكه هو - اى ايزاكسون - او هيئته ! .. ومع ان نيجل كان شديد الاندفاع وراء عواطفه ، صلب العزيمة ، الا انه لم يكن بالذى يغفل عما يدور فى ذهن شخص يحبه ويعجب به .. فلعله شعر بتجرد ايزاكسون من

العاطفة نحو تلك المرأة ، بل بعدائه السافر لها .. أو لعله ـ من ناحيــة اخرى ـ كان حائرا مرتبكا بسبب احساس من التخاذل والضعف ألم به .. فكثيرا ما يتكلم الرجال عن السمو بالآخرين ، وهم أنفسهم يوشكون على التردى .. أفكان نيجل يزمع انشاء علاقة آثمة مع هذه المــرأة التى كان يشفق عليها ؟ .. وهل كان يشعر بالعار مقدما ؟

ان الزواج قد يكون جنــونا صارخا ، ومع ذلك فقــد كان فى نفس ايزاكسون شىء راح يرجو اذ ذاك أن يكون نيجل قد فكر فى الزواج .. ولم يكن ذلك الشىء سوى اعجابه الخفى بالفضيلة الكامنة فى صديقه ، اذ ان عملا كهذا يتلاءم مع خلق نيجل ، أما العلاقة الآثمة .. ومــع ذلك فان نيجل ليس قديسا !

وفكر ايزاكسون فيما قد يقوله الناس ، فتبين فجاة حقيقة عاطفته نحو صديقه .. فلقد آلمته فكرة القيل والقال ، بل لقد روعه التفكير فى الأقاويل والحقائق المرة ! ان علاقة آثمة كهذه لن تجلب سوى الاشمئزاز او ضحكات السخرية من العاطفة الحيوانية المسيطرة على الرجل ، اذ تتبدى سافرة فى نيجل ! .. أما الزوج ، فسيكون فى نظر الناس « مجنونا أرعن » ! .. ولم يستطع عقل ايزاكسون ان ينكر ان مثل هذا الحكم سيكون منطويا على عدل .. ومع ذلك ، فمنذا الذى لا يحب ـ فى دخيلة نفسه ـ المكافح الذى يحتضن القضايا الخاسرة ؟!

« سوف أعنى بها ! » .. ان العبارة كانت أصدق تعبيرا عن الطريقة الفجة الدنيئة لامتلاك هذه المرأة .. اذ يبدو ان الرجال قد خلقوا ليسقطوا !

وانتهى الطباق من النرجيلة ، ولكن ايزاكسون ظل جالسا فى مكانه .. انه لن ينتقد نيجل قط ، مهما يحدث .. فان الجذوة القدسية فى الرجل سوف تلتهم النقد .. وكان ايزاكسون يعرف ذلك ، بل كان يحب أن يعرف ذلك ، على نحو ما ! .. ومع ذلك ، فكم من دموع وراء ذلك .. دموع من اجل القضاء الذى لا سبيل لتفاديه ، والذى لا يجلب سوى الأسى ! .. وخيل اليه انه يسمع من جديد السيمفونية التى استمع اليها مع نيجل فى تلك الليلة .. نبض الحياة الذى لا يكف ، وجمال رتابته وبشاعتها معا ! .. خيل اليه انه يسمع خفقات الحياة الدائبة ، كأنها خفقات قلب حزين ، لا يملك أن يكف عن الوجيب !

وطرق النافذة وابل من أمطار الخريف الدافقة ، فبارح ايزاكسون مكانه واوى الى فراشه

الفصل العاشر

• **قلما** كان ماير ايزاكسون يسمح لقلبه بأن يناضل ما كان العقل يمليه عليه • وكان الاكثر من ذلك ندرة ان يعضد قلبه متعمدا فى معركة كهذه ، وهو يشرف عليها كأحد آلهة الأساطير الأقدمين •• ولكن الرجال جميعا تعترض حياتهم أوقات يخادعون فيها أنفسهم ، وقد لا يكون بعض هذه المخادعات متسما بالحذق ، ولكنه لا يخلو من النبل •• وكانت احدى هذه المخادعات هى التى قادته فى اليوم التالى الى الكتابة لمسز تشبستو يسألها موعدا للقاء ، قائلا : « هل لى ان أراك على انفراد ؟ » •• ووافاه الرد فى المساء :

« عزيزى الدكتور : لقد ظننت انك نسيتنى تماما ••وانى لأحتفظ بذكرى سارة لزيارتك لى فى الصيف ، فالحق انها جعلتنى أدرك للمرة الاولى ان يوما مثل « يوم عطلة البنوك فى أغسطس » يجب ان لا يكون بطبيعته يوم حزن وضغينة واكتئاب ! •• فأرجو ان تعاود مثل هذه الزيارة •• ولعلمى انك مشغول دواما فى اقناع الناس بأنهم يتمتعون بصحة كاملة ، فليكن حضورك يوم الاحد القادم لتناول الشاى فى الخامسة •• وسوف أبعد عنى جمهور الهتافين الصاخبين حتى نستطيع ان نناقش معا أى أمر ذى شأن يمكن ان يعرض لنا — المخلصة : روبى تشبستو »

كان ذلك فى يوم الأربعاء •• وراح ايزاكسون يقرأ الرسالة ويعيد تلاوتها مرة بعد أخرى •• وشد ما أسف على الايام التى يجب ان تنقضى قبل أن يحل يوم الاحد ، فقد خشى ان يندم على مخادعته نفسه ! •• ولم تقض هذه الرسالة على خوفه وخشيته ، اذ تملكه الندم أكثر من مرة •• ثم قدر له ان يلتقى بنيجل ، فتعمد — مرة أخرى — ان يؤازر قلبه فى معركته مع العقل ، فلم يقل لنيجل شيئا عن الزيارة الموعودة ، ولم يقل له نيجل شيئا عن مسز تشبستو • وعجب ايزاكسون لهذا

التحفظ الذى بدا له غير طبيعى فى نيجل ·· وألفى نفسه ـ أكثر من مرة ـ يفكر فى أن نيجل قد ندم على ما قاله عن احتمال زيارة مسز تشبستو لمصر ·· ولكنه لم يكن واثقا من ذلك !

وفى يوم الاحد ، وصل الى فندق سافوى بعد الخامسة ببضع دقائق ، فاقتيد الى حجرة مسز تشبستو · وكانت ظلمة الخريف قد أطبقت على لندن ، فلما دلف الى الحجرة ـ التى كانت خالية ـ وجد الستائر مسدلة على النوافذ ، والنور يسطع باهرا ، والنار تتأجج فى المدفأة ، وقد مدت بالقرب منها مائدة الشاى ، بجانب أريكة كبيرة أقيمت بعيدا عن الجدار ، وفى زاوية متعامدة معه ·· وكانت باقات من القرنفل الأبيض تملأ الزهريات المتناثرة : فوق المدفأة ، وعلى منضدة الكتابة ، وفوق البيانو الصغير ·· وكان المعزف مغلقا ، ولا أثر يبدو لنوتة لحن « جيرونتيوس » !·· ووقف ماير ايزاكسون لحظة ينظر حواليه ، ويتنسم جو الحجرة ، أو يحاول على الاقل أن يحس به ·· **ألم تكن فى الصيف تبدو متسمة بشىء من العزلة والوحشة ؟ لقد كانت اذ ذاك حجرة يبتغى المرء الفرار منها ـ برغم مافيها من أثاث مريح وألوان جميلة ـ أما فى هذه المرة فكانت تبدو زاهية ، أنيقة ، توحى بالامل والرجاء !·· نعم ، لقد اشتم فيها جوا ملؤه الامل !**

وانبعث صرير الباب ، ودخلت مسز تشبستو ·· وكانت ترتدى ثوبا وردى اللون يغطى صدرها ، وله أكمام ضيقة تغطى جزءا من ساعديها ، فتزيد من رقتهما الجذابة ·· وكان الثوب بسيطا ، محكما على قوامها الجميل · ولم تكن ترتدى قبعة ، ولكن ايزاكسون لم يسبق له ان فطن من قبل الى طولها الفارع كما فوجىء به فى هذه المرة ·· كانت ـ وهى تدخل الحجرة ـ تبدو مفرطة فى الطول ، كما كان فى هيئتها تغيير واضح ، ظل ايزاكسون برهة لايدرى ماهو ··وما لبث

ان رأى انها قد مست وجنتيها مسا رفيقا بطلاء أحمر ، فبدل ذلك من هيئتها تماما ، وأظهرها أصغر سنا ، وأكثر تألقا ٠٠ ولكنه جعلها فى الوقت نفسه تبدو أقل احتشاما !

وابتسمت فى اغتباط وهى تصافحه ، وسرعان ما غمرته بجو من البهجة والانشراح ، جعله يقف ذاهلا مشدوها ٠ وبينما كانت تمسك بيده ، ضغطت زر الجرس ، ثم قادته الى الأريكة فأجلسته فوقها فى نوع غريب من المداعبة والألفة ٠٠

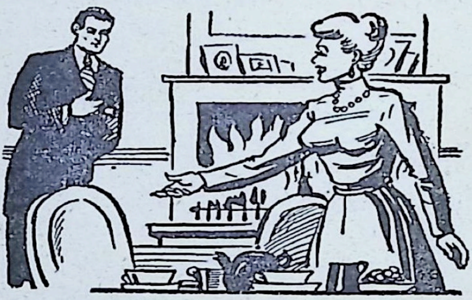

وقالت : « هذا خير من يوم عطلة البنوك القائظ ٠٠ وانى لأعلم انك قد أشفقت على يومذاك ، وكنت تعجب كيف أستطيع أن أحتمل ذلك الجو ٠٠ ولكنى قد حجبت منظر النهر اليوم ، ويسرنى انك لم تحضر ثانية الا بعد أن تيسر لى أن أحصل على النار والنور ٠٠ اننى أحب الشتاء الانجليزى ، ألست مثلى ؟ فالمرء يضطر فيه الى أن يدبر هذه الأشياء اللذيذة التى يبعد بها التفكير عنه فى الشتاء ! أما فى الأماكن الحارة فى الخارج ـ تلك التى يهفو الناس اليها دائما ـ فليس فى وسع المرء على مدار العام أن يحظى بحجرة كهذه ، وساعة كهذه ، بجوار نار متأججة ، وستائر مسدلة ٠٠ وصديق ! »

واذ كانت تنطق بهذه الكلمة الأخيرة ، خالطت صوتها

نغمة حلوة حقا ٠٠ نغمة لا شك فى جمالها لما كانت تحتويه أو توحى به من عاطفة صادقة ! ٠٠ **وكانت هذه النبرة وحدها تنم عن قدر من الصداقة لا يستطيع مقـــال كامل من مقالات « ايمرسون » أن يصوره ! كانت جاذبية هــذه المرأة أشبه بكتاب تقلب صفحاته – واحـدة بعد الأخـــرى – من أجل ايزاكسون ٠٠ وكان صـــوتها أقوى ألوان هــذه الجاذبية – المتعددة الألوان – وأشدها أثرا !**

وأتى الساقى بمعدات الشـــاى ، فلما انصرف ، صار فى وسع الطبيب أن يتكلم ، ولكنه لم يكن يدرى ماذا يقول ، فقلما أصابه الاضطراب وتزعزت سيطرته على نفسه بمثل ما ألم به اذ ذاك ٠٠ فلقـــد أحس بأنه فى موقف خاسر ٠٠ وذلك الانقباض الذى كان يجثم فوقه أخيرا – ولعله انقباض جسمانى قبل كل شىء – والذى ازدادت حدته فى الحفلة الموسيقية ، ازداد فى ذلك اليوم وطأة وبعث فى نفسه شعورا بالضآلة ، بينما كان اغتباط مســز تشبستو يبدو كالطـود الشامخ بجانبه ! ٠٠ **لقد بدت مسز تشبستو للحظة من الزمن وكأنها تسمو عليه وتشرف عليه من عل ، من جميع النواحى ٠٠ حتى طول قامتها بدا أشبه بانتصار عقلى ، أو كأنه كان انتصـــار ارادتها على ارادته !** ٠٠ وأخـــيرا قال : « ولكنا لا نزال فى الخريف ! » ٠٠ فقالت : « نستطيع أن نزعم انه الشتاء ! »

وناولته قدح الشاى بنفس الحركة التى سحرت نيجل يوم زارها للمرة الأولى ٠٠ ثم قدمت اليه طبقـا به بعض شرائح الليمون ، وهى تقول : « ألا ترى اننى عرفت أذواقك ؟ فأنا أعلم أنك لا تتناول اللبن قط ! » ٠٠ وكانت معاملتها ترغمه على الشعور بالشكر نحوها ، ومع ذلك فان شيئا فى أعماقه كان يتوق الى رفض شرائح الليمون ٠٠ ذلك الشىء الذى لم يكف لحظة عن اتهامها واساءة الظن بها ! ٠٠ ولكنه نطق بما جرى العرف به ، فقال : « ما أرق شعورك اذ تتجشمين هذا العناء

من أجلى » ٠٠ فقالت : « أو لم تتجشم أنت الآخر العناء من أجلى ، وفي يوم راحتك ؟ ٠٠ ألا تعتقد اننى شاكرة لك هذا الصنيع ؟ » ٠٠ ولم يكن فى صوتها شائبة من التهكم أو السخرية ، فقد كانت سخريتها فى ذلك اليوم خافية مكبوتة ، ولكنه كان يعلم علم اليقين انها مستعرة كالنار التى تستر ألسنتها بعناية ٠ وكان استتارها هذا يثير حنقه ٠٠ كان ساخطا على هذه المهزلة التى كانا يلعبانها ، وهذا النفاق الذى كانت تقوده اليه وهى تبتسم ٠٠ كانت أذكى من أن تتصور انها وفقت فى خداعه ، بل انها أكثر دهاء من أن تفكر على هذا النحو ٠٠ اذن فما جدوى ذلك كله ؟ ما جدوى أن تدفعه ـ وتستبقيه ـ فى موقف لا يلائمه ؟!

وقدمت اليه الكعك ، فاذا هى تكرمه وكأنها تدلله ! ٠٠ **ومن جديد عاد يحس بالامتنان٠ فالرجال مسوقون الى الشعور بما فى المرأة من فتنة حقيقية ، حتى فى أشد حالات كراهيتهم لها ! ٠٠ ولم يكن ايزاكسون يعرف كيف يتعامى عن الجمال فى أى شىء ٠٠ ولو أن الشيطان هو الذى أتاه ملاطفا ، لوجب أن يقول فى نفسه : « ما ألطف الشيطان وما أرق شمائله ! »** ٠٠ ومن ثم فقد فتنته هذه المرأة برعايتها اياه ! ومع ذلك كله ، فانه كان رجلا حديدى الارادة وشديد الاخلاص ـ بوجه خاص ـ لذلك استجمع شتات عزيمته الصلبة ، وقال : « لا ، ما أحسبك شاكرة لى ٠٠ فلست أظنك تلك المرأة التى تعرف الشكر لأحد ، لغير داع أو علة » ٠٠ وأردف فى سريرته : « بل ولو وجد الداعى والعلة ! » ٠٠ فقالت : « ولكن ها هى ذى العلة ! » ٠٠ ولمست طرف كمه ، واذ ذاك تلاشى فجأة ـ وبسبب هذه اللمسة ـ كل ما كان لها عليه من سحر ٠٠ بل لقد غضب منها عندما رآها تتجرأ على معاملته كما تعامل أولئك الغلمان الذين كانوا يحيطون بها ، وتتجرأ على التفكير فى التلاعب بأسوأ ما فيه من حواس ! ٠٠ وقال :

« أخشى أن تكونى مخطئة ، فلست أصلح علة لشكرانك ! »
وبدت طبيعية ، ودودا أكثر من ذى قبل ، وهى تقول : « بل أعتقد انك جدير بعرفانى حقا ، لأنك فى الواقع لا تميل الى ، ومع ذلك تاتى لزيارتى ٠٠ وهذه غاية الايثار ! » ٠٠ فقال : « هذا اذا افترضنا صدق ما تقولين ، وكنت أنت تميلين لى »

ـ واننى لأميل اليك بالفعل !

قالت ذلك فى بساطة تامة ، دون تلاعب بألفاظها ٠٠ ومن ثم فقد بدت الكلمات صادقة ٠٠ بدت له ، هو بالذات ! ٠٠ ومضت المرأة فى حديثها قائلة : « قد تعرف ذلك يوما من الأيام » ٠٠ فهتف : « ولكن ٠٠ ولكنى لا أصدق ما تقولين »

وكان قد أفاق من الطعنة التى تلقاها من أخطر أسلحتها وأمضاها : صوتها ! ٠٠ بينما كانت هى تقول : « هذا لا يهم ٠٠ انما المهم هو الواقع ، وليس ما يفكر امرؤ ما فى وجوده أو عدم وجوده » ٠٠ فقال : « أجل ٠٠ ان الواقع هو المهم حقا ! ولقد حضرت الى هنا ، لا فى زيارة رسمية ، ولا فى زيارة ودية ، وانما ٠٠ لعلنى حضرت لأرتكب سفاهة ! » ٠٠ فحركت رأسها مبتسمة ، وأجابت وهى تقدم له علبة سجائرها : « لا ٠٠ انك لا تقدم قط على شىء من هذا القبيل ! »

وتردد قليلا قبل أن يتناول اللفافة ، ولكن عينيها المتألقتين كانتا تسخران منه جهارا ، وكأنهما تقولان : « ان سيجارة واحدة لن ترغمك على شىء أو تحول بينك وبين شىء » ٠٠ وقد استطاعت أن تعرف حقا كيف تجعله يشعر كأنه غلام غرير أبله ! ٠٠ أم ان شعوره بالارهاق فى العمل والانقباض الجسمانى هو الذى كان يجرده من أسلحته اليوم ؟ ٠٠ وتناول السيجارة وغمغم يقول : « شكرا » ٠٠ ثم أشعلها ، فأشعلت

هى الأخرى سيجارة وهى محتفظة ببشرها وسعادتها ! ٠٠ ومضى يقول : « من أين لك هذا اليقين ؟ » ٠٠ فأجابت : « اننى ألمسه »

وضحكت ضحكة خفيفة ذكرته بما سبق ان قاله عن النساء، فقال : « انك مخطئة ٠٠ فانى عازم على ارتكاب تلك السفاهة » ٠٠ وكان ردها : « ولكن ٠٠ هل تظن حقا انها سفاهة منك ؟ » ٠٠ وطغى عليه نفوره من التدخل فى شئون الناس ، ولكنه سرعان ما تغلب عليه بما يشبه الغضب وقال : « لست أدرى ، ولكنك ربما كنت تدرين ! مسز تشبستو ، لقد كنت للتو تشيدين بمباهج الشتاء الانجليزى ! » ٠٠ فقاطعته قائلة : « بل بالاعتكاف عن الناس »

ـ لماذا ترغبين اذن فى الفرار من هذه المباهج ؟

ـ من الذى قال انى فاعلة ؟

ـ ألست ذاهبة الى مصر ؟

فاعتدلت فى جلستها واستقرت فى ركن الأريكة ، قائلة : « هل ترى ان الجو غير ملائم لصحتى هناك يا دكتور ايزاكسون ؟ » ٠٠ وضغطت على كلمة « دكتور » ، فقال : « لست أتكلم كطبيب » ٠٠ فتساءلت : « كصديق اذن ٠٠ أم كعدو ؟ » ٠ فأجاب : « **كصديق ٠٠ له** » ٠٠ فهتفت : « لمن ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « **لنيجل ارماين** »

ـ ألأنه يعمل فى الفيوم ، لا ينبغى لى أن أذهب الى أعالى النيل ؟

ـ اذا ذهبت الى النيل فلن يبقى ارماين فى الفيوم !

ـ أتراك قلقا على عمله فى استصلاح أراضى الصحراء ؟ ٠٠ ترى هل استثمرت شيئا من أموالك فى مشروعه هذا ؟!

فاستبد به الغيظ حين لمح رنة المعرفة فى صوتها ، وقال ; « أفتحسبيننى لا أعنى الا بالمال فحسب ؟ ما الذى تعرفينه

عنى ؟ » • فتساءلت : « وأنت •• عنى ؟ » • وكانت لا تزال تتكلم فى خفة وابتسام ، ولكنه تذكر تلك الخفقات التى لا تكف •• نبض الحياة •• الحياة والعزيمة والاصرار على البقاء كما شاءت فلسفتها !

ـ لست أريد أن أتكلم عن أية معرفة يمكن أن تكون لدى عنك ، ولكن •• دعى نيجل فى الفيوم !

ـ هل قال اننى ذاهبة الى مصر ؟

ـ لقد تحدث عن ذلك مرة واحدة فقط •• قال انك قد تذهبين !

فتساءلت : « وهل قال شيئا آخر ؟ » • وأجاب : « لقد قال انه سيعنى بك اذا ذهبت » •• وأصغت اليه فى صمت •• فلما كف عن الكلام ، قالت أخيرا : « ولم لا ؟ »

ـ لقد عنى الكثيرون قبله •• بأمرك !

ولم تتبدل قسمات وجهها ، بل قالت : « أو لا يعرف ذلك ؟ » •• فقال : « ولكنه لا يشبه الآخرين » •• وردت قائلة : « اننى أعرف نوعه » •• وأحس آيزاكسون حين قالت ذلك بأنه يمقتها •• يمقتها لما كان فيها من سلطان المرأة وقدرتها على الفهم ، وسيطرتها ـ عن طريق هذا الفهم ـ على الرجال ! •• وقال :

ـ ما الذى يقصده من « العناية بأمرك » ؟

وكان يتكلم فى عبوس ، وهو يكاد لا يحس بذلك ، وقد فاض وجهه بالازدراء •• فقالت بدورها : « وما الذى كنت تقصده عندما قلت ان «الكثيرين» قد فعلوا ذلك ؟ » ، فهتف : « اذن فالأمر كذلك ! » • ولم يكن ايزاكسون يرمى الى النطق بهذه الكلمات ، ولكنها انطلقت من بين شفتيه انطلاق الأسير عند فكاك أسره •• ولم تلح فى عينيها بارقة من الفهم للمعنى الذى كان يكمن وراء هذه العبارة •• فقد كان عقله يقول : « يا للرجال ! يا للرجال ! حتى ارماين ؟! »

ـ أتراك خائفا على الفيوم ؟!

فقال : « أوه ! يا مسز تشبستو ! » ٠٠ وأمسك عن الكلام وقد تملكته سورة نمت عن افلات زمام أعصابه ٠٠ وكان وراء هذا الصمت فيض جارف من الكلمات : كلمات تشرح طبائعها وطبائع ارماين ٠٠ طريقتها فى الحياة ، وطريقة ارماين ٠٠ ما تستحقه هى ، وما يستحقه هو ٠٠ كلمات كانت خليقة بأن ترسم لمسز تشبستو الخير الكامن فى نفس صديق ايزاكسون٠٠ ليس هذا فحسب ، بل انها كانت كفيلة بأن تبين لها الخير الكامن فى نفس ايزاكسون كذلك ، والذى بدت معالمه فى حبه لخير صديقه ، وحرصه على أن يقيه الأوحال ! وهذه الطيبة الكامنة فى ايزاكسون هى ذاتها التى منعته من متابعة حديثه ٠٠ اذ انه لم يطق اظهار طيبته لهذه المرأة ! وما من ريب فى انها كانت تعرف بغريزتها ، وتقدر ، ما قد يكون فى فطرته من سذاجة ٠٠ فليدعها اذن قانعة بتلك المعرفة ٠٠ انه لن يهبها الخير الذى فى نفسه ، وحتى لو انه فعل ، لما كانت لذلك أية جدوى !

وكانت تجلس على الأريكة منتصبة الظهر ، وقد بدا عليها فضول ودهشة عجيبان ، فقالت تستحثه : « نعم ؟ » ٠ واذ ذاك قال : « اذا كنت راحلة حقا الى النيل ، فانى أرجو لك شتاء سعيدا ! » ٠٠ كان قد أصبح مرة ثانية ذلك الطبيب المسيطر على حواسه ، والذى تميل اليه نساء كثيرات ! ٠٠ وأجابت المرأة وهى تردد صدى لهجته الباردة ، على الرغم مما كان يبدو فى كلماتها من قلق ولهفة : « لسوف أعرف كيف أسعده ، اذا أنا ذهبت ! »

ونهض عن مجلسه ، فقد كره فيها معرفتها الحقة بالرجال ٠٠ كان يكرهها الى الحد الذى يتوق معه الى الابتعاد عنها والفرار من صحبتها ٠٠ لماذا يمكن ان يسمح لها بأن تأخذ حياة شخص مثل ارماين بين يديها القذرتين ، حتى اذا كان

فى وسعها أن تسعده فترة من الزمن ، بمقدرتها الفائقة كأستاذة فى فن الخداع ؟!

ومس أناملها مسا خفيفا وهو يقول : «وداعا» ٠٠ فقالت : « وداعا ٠٠ اننى جد شاكرة ، وانك لتعرف السبب »

وأرسلت اليه ثانية تلك الابتسامة الودود ، فلما فارقها كانت تقف بجوار المدفأة ، والوهج المنبعث من النار يرسم أطيافا على ثوبها الوردى ٠٠ وكانت تتجه برأسها الجميل نحو الباب لترقب انصرافه ، وقد أمسكت بيدها السيجارة التى كانت تدخنها ، بينما كانت حلقات الدخان تطوف حولها ، رقيقة خفيفة ، ثم تدور حول نفسها وتنتهى فى خيوط تصعد حتى سقف الحجرة الدافئة المتلألئة بالأنوار ٠٠ وكان قوامها ، ورأسها ،و عيناها ، تبدو كلها جميلة محببة ٠٠ كانت لا تزال « بيللا دونا » ٠٠ « ست الحسن » التى طالما تحدث الناس عنها ! ولكنه اذ كان يمضى خارجا ، لمح الغضون الرقيقة بالقرب من عينيها ، والخشونة الخفيفة عند عظام وجنتيها ، والارتخاء السافر عند ركنى فمها ٠٠ **ولكن ارماين لم ير كل هذه العيوب ، لا ولم يكن فى وسع ايزاكسون أن يجعله يراها ، فما كان ارماين يرى فيها سوى محاسنها ومفاتنها ٠ وكان تهالكه على التفكير فى هذه المحاسن والمفاتن يعمى عينيه سريعا عن غيرها ! ٠٠ ومع ذلك فحتى ارماين له ناحيته البشعة ٠٠ فقد غدا ايزاكسون يعتقد فى وجود علاقة آثمة بين صديقه وبين مسز تشبستو !**

ولم يعلم الا بعد ثمانية أيام ، وبعد ان أبحر نيجل ومسز تشبستو الى الاسكندرية ، انهما قد تزوجا !

الفصل الحادى عشر

◆ **ما ان تمت مراسم الزواج فى مكتب التوثيق حتى رحل نيجل وزوجته**

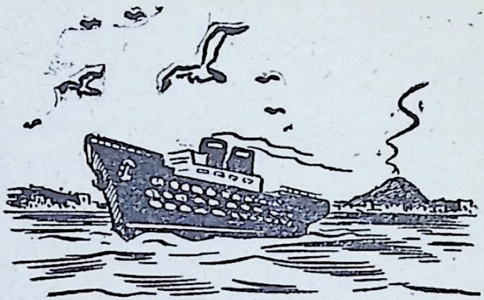

مباشرة الى نابولى ، ومعهما وصيفة للسيدة ، وقدر كبير من الحقائب المختلفة الأشكال والأحجام • ومن هناك ابحرت بهم الباخرة « هوهنزلرن » الى مصر ، حيث كان نيجل قد استاجر « فيلا اندروود » ، على شاطىء النيل - بالقرب من الاقصر - لقضاء الشتاء

وكان نيجل سعيدا ، ومع ذلك فانه لم يكن خاليا من القلق تماما ، ولو انه حرص على اخفاء هذا القلق عن زوجته •• بل لقد كان يود احيانا لو أنكر وجوده لنفسه •• ذلك لأنه عندما ابرم هذا الزواج انما كان يستجيب لصوتين راحا يهتفان فى أعماقه : صوت الجسد ، وصوت الروح •• وما كان يدرى - على وجه التحقيق - ايهما كان أوضح رنينا •• بل انه لم يكن يدرى اى الرغبتين كانت اقوى سيطرة عليه : الحنين الى المتعة الشخصية ، ام الرغبة الملحة فى أن يسبغ السعادة والدعة على حياة سودتها الأيام ولطختها بالوحل ! •• قد يكشف له المستقبل عن الحقيقة ، اما فى الآونة الراهنة ، فقد وضع نيجل نصب عينيه هدفا واحدا عظيم القيمة : أن يكون مثال الزوج الكامل !

ومع ان الوقت كان فى شهر نوفمبر ، ولم يبدأ بعد اندفاع الناس نحو (النيل) ، الا أن الباخرة كانت مكتظة بالمسافرين ، حتى انه عندما ذهب ارماين وزوجته الى قاعة الطعام لتناول الغداء - والباخرة تتحرك من نابولى - كانت الأماكن فيها مشغولة كلها •• وقال نيجل لرئيس السقاة وهو يدس شيئا فى يده : « أعد لنا مائدة وحدنا على السطح العلوى ، فاننا نفضل ذلك كثيرا » •• ذلك لانه لمح عددا من الوجوه الانجليزية كانت تحملق فيهما وقد بدا على بعضها اكثر من مجرد تعرفها على مسز ارماين ••

وأجاب الساقى البروسى المتورد الوجه - وهو يدس « الشىء » فى جيبه

بحركة آلية - فى لكنة المانية ظاهرة : « ساعد لكما مائدة عند قمة الدرج يا سيدى . ولكنى لا استطيع ان اعدك بان تظلا وحدكما ، فلن يكون هنالك مفر من السماح لأى قادمين آخرين بالجلوس معكما » . فقال ارماين : « ليكن .. قدنا الى هناك ! » .. وان هى الا لحظة ، حتى كانا يجلسان جنبا الى جنب على اريكة بيضاء ملاصقة للباب المفتوح المفضى الى سطح الباخرة ، عند قمة الدرج الرئيسى .. وقال نيجل لزوجته : « ادعى الله ان يكون لنا هذا المكان وحدنا طوال الرحلة يا روبى ! »

على انه لم يكد يتم كلامه ، حتى ظهر احد الخدم مسرعا ، وهو يقود الى مائدتهما شابا طويل القامة عريض المنكبين ، انحنى لهما فى تحية تقليدية ، ثم جلس تجاههما فى هدوء وتؤدة .. وكان جميل الهندام الى درجة ملحوظة ، فى ثياب لا بد انها كانت من صنع ترزى انجليزى ! وكان يرتديها فى غير اعتناء - يكاد يكون انجليزيا ايضا - ولكن فى رشاقة غير متكلفة لا يعرفها سوى الأجانب ! .. وكان نحيلا ، له كتفان قويتان ، وصدر مقوس ، مما ينم عن قوة بدنية جبارة .. وكانت رقبته تبدو قوية كرقبة الثور ، وقد استقر فوقها راسه الصغير نوعا فى جراة وزهو .. وكان شعره اسود مجعدا ، وجبينه عريضا ، وانفه قصيرا مستقيما محدد المعالم ، ذا فتحتين كبيرتين واسعتين .. وبدت شفتاه - تحت شاربين صغيرين كثيفين - غليظتين ، وكانه يقلبهما ازدراء ! وكانت ذقنه بارزة قليلا الى الأمام كانها خلقت للهجوم ، وعليها آثار شعر حديث الحلاقة . وكان لون بشرته صافيا رغم سمرته ، كما كانت فى بشرته نعومة واضحة .. اما يداه السمراوان العريضتان المكتنزتان ، فكانتا تحويان اصابع قوية تنتهى الى انامل مدببة قليلا ، وكانت عيناه واسعتين سوداوين ، قد حلتا فى راسه متقاربتين الى حد يكاد يكون فريدا ، يعلوهما حاجبان ينحدر طرفاهما نحو الانف وترتفع نهايتاهما حتى الصدغين .. وكان هذان الحاجبان يسبغان على العينين الجاثمتين تحتهما - بل على الوجه كله - مظهرا مميزا عجيبا ، ينم عن عزم صريح يستوقف النظر ، ويبدو جذابا او منفرا حسبما يكون عليه مزاج صاحبه !

وتناول المسافر قائمة الطعام وراح يدرسها من اولها لآخرها فى عناية واضحة ، وما لبث ان اصدر اوامره فى فرنسية رائعة الى الساقى ، الذى انصرف مسرعا لتنفيذها ، واذ ذاك اخذ الشاب يسوى شاربيه ، وراح يتطلع الى رفيقيه فى هدوء .. لا فى فضول ، وانما فى ادب تخالطه قلة اكتراث ، وكانه لم يكن ينظر اليهما الا لمجرد انهما قريبان منه ! وكانت مسز ارماين تبدو غافلة عن نظراته المتفحصة ، بينما بادر نيجل الى التحدث اليه ، مبديا بعض الملاحظات - بالانجليزية - عن السفينة ، فاجاب الغريب باللغة ذاتها ،

ولكن فى لكنة أجنبية صارخة ٠٠ وبدا انه شديد الرغبة فى تبادل الحديث ، اذ اقبل يعتذر عن اقتحامه خلوتهما ، وقال انه لم يكن مخيرا فى الأمر ، اذ كانت قاعة المائدة ممتلئة بأكملها ٠٠ فقال الاثنان انهما كانا على تمام الاستعداد لاشراك أى امرىء فى مائدتهما : نيجل فى انعطافه المرح العادى ، ومسز ارماين فى تلطف تقليدى كان يخفى وراءه - او هكذا خيل لزوجها - ظلا خفيفا من النفور ٠٠ وحدس نيجل انها كانت تفضل كثيرا لو انهما انفردا بمائدة خاصة ، ولكنه حين قال لها ذلك - أثناء تناولهما القهوة على سطح السفينة وحدهما بعد ذلك - أجابت : « كلا ، اذ اية قيمة لذلك ؟ لن نلبث حتى نكون فى منزلنا ٠٠ حدثنى عن « الفيلا » يا نيجل ، وعن الاقصر ، فانت تعلم اننى لم أرها قط ! »

وهكذا استطاعت ، بكلمات قلائل ، وفى حذق باهر ، أن تطوح بالاجنبى خارج دائرة حياتهما ، وكأنها قد ركزت تفكيرها كله فى نيجل ، فأحس بان قوتها كانت كتيار مائى قوى غزير ، يتدفق فى المجرى الجديد ٠٠ المجرى الذى حفره لها ٠٠ ومن ثم تمشى معها ، فراح يحدثها عن مصر ٠٠ واذ كان يتكلم ويرقب اصغاءها اليه ، بدأ يحس للمرة الاولى بالتغيير الحيوى الذى طرأ على حياته ، وبشىء فى أعماقه يتراقص طربا ، كأنما ترتل رجولته اناشيد الحب !

وانقضت الرحلة خفيفة سريعة ، يلفها طقس جميل ، هادىء ، بهى الاشراق، أزرق الأفق ٠٠ جو من شأنه أن يطلق الانسانية من عقال الكآبة والانقباض ، الى عالم مرح ٠٠ غير ان الرحلة ، بالنسبة لأسرة ارماين ، لم تخل من حادث مكدر ٠ فقد كان بين المسافرين زوجان - هما اللورد والليدى هايمان - كان نيجل ارماين يعرفهما ، كما كانت مسز ارماين تعرفهما عندما كانت لندن تحبها وتهش فى وجهها ٠٠ وكان من المستحيل الا يلتقيا بهما ، ومن المستحيل كذلك ألا يلحظا الارتباك والفتور اللذين كانا يشوبان كل لقاء ، وتتبدى مظاهرهما فى تشاغل اللورد وزوجته بالتحديق فى الأمواج المتدفقة ، والآفاق الخاوية ٠٠ كان سوء فهمهما للموقف من الجلاء بحيث وجد نيجل نفسه مضطرا الى مواجهة اللورد هايمان ذات يوم فى قاعة التدخين ، والى أن يطلعه على الحقيقة ٠٠ فغمغم النبيل ، وقد استحالت عيناه الكستنائيتان الى بئرين مترعتين بالعجب الساخر : « اننى أهنئك ٠٠ أهنئك بالتأكيد ٠٠ اخبر زوجتى للتو ، فما كنا نعرف شيئا عن ذلك قط » ٠٠ ثم انصرف مسرعا ، وبين اسنانه سيجار يحتضر ٠٠ ولا ريب فى انه اطلع الليدى هايمان على النبأ ٠٠ فقد كانت بعد ذلك تحنى رأسها تحية لنيجل ، ولكن فى حركة قوية تنم عن النفور ، وتعبر بما فيه الكفاية عن استنكارها الممزوج بالازدراء ٠٠ أما مسز ارماين ، فكانت تبدو غير حافلة البتة بهذه المظاهر ، وكان تعليقها

الوحيد بشان الليدى انه من العجيب حقا « فى هذه الأيام » ان يوجد انسان يرتدى اللونين الاحمر القانى والقرمزى معا ، لا سيما اذا كان لبشرته لون بشرة الليدى هايمان !.. وكانت دهشتها لاجتماع هذه الالوان الثلاثة من البساطة والصراحة بحيث توحى بانها صادرة عن مجرد ذوق فنى !

والأرجح ان اسرة هايمان قد اذاعت نبأ زواج نيجل بين الانجليز المسافرين على ظهر الباخرة ، اذ ان الوجوه التى كانت تحملق فيهما من حول موائد الطعام ، ظلت تتعقبهما بالحملقة على سطح السفينة ، ولكن مع اختلاف طفيف فى التعبير المرتسم على اساريرها .. فقد انقلب من مجرد فضول متبلد الى ذلك الاهتمام المشوب بالسخرية ، الذى يبديه الشخص العادى ممن يجرى فى عروقهم الدم الانجليزى نحو زوجين حديثى عهد بالزواج !.. ولقد اثارت هذه النظرات المتفرسة غضبا فى اعماق نيجل ، وايقظت فيه قدرا عظيما من الحنان العجيب نحو زوجته ، مبعثه ازدياد تقديره فجاة للقسوة التى عانتها فى الأعوام الأخيرة من اضطهاد المجتمع وتجنبه لها ونشره اقاويل السوء عنها !.. لقد اصبح لها - بعد طول العناء - من يحميها ويدفع عنها الأذى ، ويحيطها قلبه باجنحة عريضة !.. على ان نيجل غدا يصبو الى التحرر من الناس الذين لم يكن ثمة مهرب منهم على سفينة تمخر البحار .. واصبح وزوجته لا يخاطبان احدا اثناء رحلتهما سوى ذلك الشاب الذى اعتاد ان يشاطرهما مائدتهما .. اذ سرعان ما توطدت بينهما وبينه أواصر الصلات التى تربط زملاء السفر .. الصلات التى لا تورط المرء فى شىء فى المستقبل ، بعد بلوغ البر !.. ومع انه كان يشبه الرجل الانجليزى فى ثيابه ، ويضع على راسه قبعة من القش نقش بداخلها اسم «سكوت» ، الا انه لم يلبث ان انباهما بان اسمه «محمودبارودى» ، وان مسقط راسه فى الاسكندرية ، وانه مزيج من العنصرين اليونانىوالمصرى ، وانه رجل وافر الحمية والنشاط ، قوى العزيمة ، يهتم بمشاريع عديدة ، ويدير الكثير من المؤسسات

وكان يتكلم دائما فى شىء من عدم المبالاة ، والجراة المهذبة ، وكانه لا يعنى اقل العناية بما يحدثه حديثه من اثر فى نفوس الغير .. كما كان يلقى بالمعلومات التى يذكرها عن نفسه ، فى لهجة فاترة ، وبغير اكتراث ، مما كان ينم عن شخصيته وخلقه !.. فاشار الى رفعة مركز والده ، والى ثرائه الفاحش ، تلميحا لا تصريحا .. على انه كان - اذا تحدث عن المراكز التى يضطلع باعبائها - يتخذ لهجة اكثر تحديدا ، واقوى تبيانا عن شخصه .. وأدرك نيجل أنه ولا بد من رجال الأعمال المجدين ، اذ لم يكن فيه شىء من طباع الشرقى الكسول ، الذى يحب ان يجلس فى الشمس ، وينتظر مشيئة الله ، وان يملأ الأعوام بالأحلام والأمانى ! .. كما ادرك انه هادىء الطبع ، ثاقب الفكر ، مفعم بتلك الكفاية التجارية الملحوظة التى تميز اليونانى الحديث!

ولكن نيجل لم يعلم ان كانت هذه المقدرة يخالطها شيء من الدهاء الملتوى الذى يتميز به الشرقيون .. وما كان بوسعه ان يتبينه حقا ، فكل ماقاله بارودى، انما قيل فى جلاء ، وفى تحديد دقيق ، سواء أكان حديثه عن مشكلة الأراضى، ام عن مشروعات الرى على النيل ، أم عن التضخم المالى العظيم الذى حدث فى عام ١٩٠٦ والذى تجمعت فيه ثروات هائلة ، أم عن صناعات السكروالقطن التى كان مساهما فيها . وكان الطابع الذى أحدثه فى نفس نيجل يتمثل فى انه رجل خلق لينجح فى كل ما يضطلع به ، وانه فى اية صورة من صور النشاط يستطيع أن يكون حليفا بارعا أو خصما بارعا كذلك ! .. وسرعان ما ظهر أنه كان مولعا بالرياضة ، فقد راح يتحدث فى حماس - كان يختلط دائما بشيء من الرصانة غير المتكلفة - عن الخيول التى كان يربيها والسباقات التى فاز بها فى (الاسكندرية) و (القاهرة) ، وعن رياضة اليخوت ، وعن صيد الوحوش بأعالى النيـــل - جنوبى الخرطوم ، فى بلاد الشلوك - وعن صـيد البط والحمام والأوز والثعالب فى الفيوم وعلى بحيرة قارون المقدسة !

ووجد فيه نيجل شخصا ممتازا .. كان اوفر من التقى بهم - من الرجال ذوى الدم الشرقى - حمية ونشاطا ولطفا .. أما مسز ارماين فكانت أكثر اعتدالا فى حديثها عنه ، كأنه لم يثر فيها اى اهتمام ، فوجد نيجل فى انعدام اعجابها به ما يؤيد فكرة كانت قد خطرت له عنه .. اذ خالجه الظن بأن بارودى كان رجلا لا يحفل بالنساء الا كملهاة عابرة ذليلة لساعة خالية من المشاغل تقضى فى « الحريم » !.. وكان الشاب جم الأدب مع مسز ارماين ، ولكنه كان اذا ما تحدث تحول - فى حركة غريزية - موجها الحديث الى نيجل .. وفى مرة او اثنتين كانت مسز ارماين تتركهما وحدهما مع قهوتهما وسيجاراتهما ،فكان يخيل لنيجل - اذ ذاك - أن صاحبه انقلب رجلا آخر ، اذ يتبسط فى مرح ، ولا يصر على الامعان فى سيطرته على نفسه ، وان لم يكن يتخلى عن هذه السيطرة، وانما يغدو أكثر حبورا ، وأكثر ودا ، وأكثر استعدادا للألفة .. ولعله كان متأثرا بالفكرة الشرقية عن المرأة كجنس أقل شأنا من الرجل ، وكان عاجزا عن مسايرة المساواة التامة والبساطة المألوفتين فى علاقة الرجل الانجليزى بالمرأة ..

★ ★ ★

◆ وعندما أشرفت الباخرة على ميناء الاسكندرية ، نزل بارودى الى حجرته ، ثم عاد يرتدى الطربوش !.. وتبادلوا جميعا تحية الوداع فى الميناء ، مع ذلك الرجاء المبهم المألوف ، فى لقـاء قادم ، مما يوحى به الواجب فى مثل هذه المناسبات ، وينتهى عادة الى هباء !.. وبدت مسز ارماين جذلة للخلاص من ذلك الرجل ، والانفراد بزوجها ، فقالت لهذا : « لا تستبقنا فى الاسكندرية او

القاهرة ، فانى أريد أن أذهب الى أعالى النهر ٠٠ أريد أن أكون فى فيلا اندروود » ٠

وبعد ليلة قضياها فى فندق «شبرد» ، سافرا نحو (الاقصر) ٠٠ أو بالأحرى الى (قنا) ، حيث خرجا فى الصباح المبكر لزيارة معبد (دندرة) ، ثم استأنفا السفر فى قطار تال ، فبلغ بهما (الاقصر) قبيل المساء ، فى اللحظات التى كانت فيها اشعة الغروب الذهبية تسترق الخطى الى السماء ، وتضفى على النهر رواء وجلالا

وكانت مسز ارماين متعبة من الرحلة ، ومن اليوم الطويل الذى أمضياه فى (دندرة) ، والذى كانت تخفى ضيقها منه وبرمها به ٠٠ وراحت تتطلع من نافذة مقصورتهما بالقطار الى سهول الذرة الخضراء ، والى الرجال السمر أشباه العراة وهم ينحنون فى حركات توقيعية على الشواديف ، والى الأطفال راكبى الحمير ، والى النساء وقد وقفن مشدوهات يحملقن فى القطار ، ويضعن أطراف ثيابهن القذرة بين أسنانهن ! وخيل لمسز ارماين انها لا تزال ترى الساحات المعتمة فى بيت «هاتور» ـ بدندرة ـ ولا تزال تسمع صيحات الخفافيش الضخمة التى تسكنه !٠٠ وعندما وقف القطار أخيرا ، نهضت من مكانها فى تثاقل ، وتركت نيجل يساعدها فى الهبوط الى الرصيف ٠٠ وبينما كانت تنظر الى الحشد من المصريين ذوى العيون المحملقة ، قالت : « هل الفيلا بعيدة عن هنا ؟» ٠٠ فقال : « لا ٠٠ اننى أحب أن تمشى اليها ، فهل يضايقك ذلك ؟ »

وكانت عيناه تناشدانها كلمة «لا» ، فاعطته اياها فى لطف بالغ كان ينبغى ان يدون لحسابها بقلم الملاك المسجل للحسنات والسيئات !٠٠ وانطلقا يمشيان الى الفيلا ٠٠ وفيما كانا يخترقان البلدة الصغيرة راح نيجل يشير الى «المعالم» المتباينة : حوانيت العاديات ، حيث يمكن أن تشترى الخواتم والعقود والأحجبة و «خدم الموتى» الخضراء والزرقاء ، والجعارين ، والأقراص المجنحة ، وتوابيت المومياء ٠٠ ثم المسجد ، وكنيسة قبطية ، والمقاهى ، وحديقة فندق الأقصر ٠٠ وكان نيجل يحيى ـ فى طريقه ـ عددا من الأصدقاء المتواضعى المكانة ، كالحلاق الزنجى الذى كان يسمى نفسه «مستر هوايت» !٠٠ و«اهرى احمد» ـ مهرج الاقصر ـ الذى كان يرقص ويتمتم بين يدى مسز ارماين ويصيح مرحبا بها فى عدة لغات ٠٠ و«حسن» عازف الناى الأعور ٠٠ و«حمزة» المكارى المصلى ،الذى كان فى الشتاء «يسرق» أصحاب الملايين جميعا من زملائه ، رغم احتجاجهم ، ويجلس فى الصيف مع الدراويش فى ظلال المسجد الوارفة !

وقالت مسز ارماين فى صوت يشوبه الغموض نوعا ما : « انك تبدو هنا «فى بيتك» ووطنك كما تكون فى لندن !»٠ فقال فى حرارة : « بل أكثر من ذلك بعشر مرات يا روبى ، وهكذا ستكونين انت عما قريب ٠٠ اننى احب المكان الصغير » ٠٠ فهتفت : « احقا؟!» ٠٠ وبعد أن تمهلت قليلا أضافت : « هل توجد فيلات كثيرة هنا ؟ » ٠ فأجاب : « اثنتان فقط على شاطىء النيل ٠٠

احداهما يملكها رجل ألمانى .. وفيلتنا هى الثانية »
فقالت لنفسها : « اثنتان فقط ! واحداهما يملكها رجل ألمانى ! » .. ثم تساءلت كيف يقضيان الشتاء ، فأجاب نيجل : « سيكون على ـ اذا ما فرغت من تهيئة وسائل الراحة والاستقرار لك هنا ـ أن أسرع الى الفيوم لأرى كيف يسير العمل ، ولأدبر لك شيئا يروق لك ، اذ اننى أود ان آخذك الى هناك عاجلا .. ولكن المكان موحش حقا ، فلم أشأ ان آخذك اليه مباشرة .. وفضلا عن ذلك فقد خشيت ان تشعرى بالسأم والشقاء اذا لم تتوفر وسائل الراحة اللازمة لك ، وانا أحب أن تكونى سعيدة حقا! » .. وكان فى صوته قلق يخالطه التمنى . واستطرد يقول كغلام متلهف : « لكم أود ان تحبى مصر !» فقالت : « اننى واثقة من اننى سوف أحبها يانيجل .. أظن انه لا يوجد كازينو هنا ؟ »

ـ يا اله السموات ! كلا ، وما حاجة المرء الى كازينو هنا ؟

ـ آه ! انهم يقيمون واحدا أحيانا ، حتى فى مثل هذه الأماكن .. وقد اخبرنى صديق لى ذهب الى (بسكرا) بأنه وجد كازينو هناك !

ـ انظرى الى هذا ياروبى !.. انه خير من اى كازينو .. الا تظنين ذلك ؟
وكانا قد عرجا ـ فى طريقهما ـ الى اليسار ، وبلغا شاطىء النهر
كان النيل كله قد اكتسى غلالة من الذهب ، تتخللها دوامات صغيرة ذات لون بنفسجى فاقع ، وتتراءى فيها من بعد تموجات متتابعة ذات حمرة شبيهة بالحمرة التى توشى جناح طير العشروس .. وكانت السماء الصافية البهية تشرق بضياء ذهبى باهر خفاق ، وكأنها كائن حى ينبض بانفعال رقيق .. وكانت أشجار النخيل تتمايل على البعد ، والشواطىء العالية تحف بمجرى النيل فى ترامية نحو الجنوب ، والطيور تمرق فى الفضاء متجهة جنوبا هى الأخرى ، وفقا لاتجاه النسيم ، والخفافيش تدور وتدور كالعجلات حول أعمدة المعبد العظيمة ، والقوارب ذات الأشرعة المثلثة تنتشر سابحة نحو الجنوب مع الطيور ، كأنما هى احجار كريمة سوداء ، ساكنة ومتحركة ، على الصفحة الذهبية المهتزة .. وكانت جبال ليبيا المحصنة ، فيما وراء (طيبة) ومقابر الملوك ، تقف كديدبانات من الأشباح ترابط فى مراكزها حتى ينتهى هذا الموكب البهيج !

وهتف نيجل : « أليس هذا رائعا ياروبى ؟ » ، فأجابت : « بلى .. غاية فى الروعة ! » .والفت المنظر رائعا بالفعل ، ولكن الغبار الذى تخلل شعرها وثيابها ، والاعياء الذى لاح مخيما على البدن الذى احتضن روحها الكليلة ـ كما يخيم نسيج العنكبوت على الأشجار ـ أثقلا تحمسها عن أن يجـارى تحمسه .. ولعلها ادركت ذلك ، وأرادت أن ترضيه ، اذ أردفت وهى تشيع نبرة حارة فى صوتها : « يا له من منظر شائق ! .. بل انه اعظم الأشياء التى

رايتها سحرا »
ولمست خمارها وهى تتكلم ، ثم وضعت يدها على شعرها القابع تحته .. وسمعت اثنين من الفرنسيين يتحدثان بنبرات عالية وهما يمران بهما . وكان احدهما يقول فى تلك اللحظة : « ما رايت الغروب فى اى مكان بمثل هذه الروعة ! » .. وكانت لا تزال تتحسس شعرها ، وهى تشعر كما لو كانت ترتدى ثيابا من التراب .. وفى لهفة المراة المتانقة التى لم تدخل حجرة زينتها منذ اربع وعشرين ساعة ، راحت تهفو الى التخلص من الغروب ومن الرجل معا ، فتساءلت : « اين الفيلا يا نيجل ؟ » ، فقال : « انها لا تبعد أكثر من عشر دقائق » .. وتاوهت روحها فى اعماقها .. ولكنها مضت تمشى الى الأمام فى عزم أكيد ، حتى مرت امام فندق «ونتر بالاس » فهتفت : « ياله من فندق ضخم ! ولكنه ليس مفتوحا ! » ، فقال : « سيفتح عما قريب .. فلنعرج الآن يمينا ! »
وكانت بعض الفيران الكبيرة الحجم تلعب على الأحجار الوعرة الملاصقةللنهر، بينما كان ينبعث من كوخ قريب خوار لاهث كليل ، صادر عن احدى الآلات، فهتفت : « الى أين نحن ذاهبان بحق السماء يا نيجل ؟ ماهذا الا درب لسير الحمير ! » ، ولكنه قال : « لا باس .. اصبرى دقيقة واحدة فقط . هاهو ذا قصر الألمانى ، ودارنا تليه مباشرة .. اترينني أسير بسرعة لا تلائمك ياروبى ؟ » .. فقالت : « كلا ، كلا ! » . وراحت تسرع فى سيرها ،على حين كان جسدها كله يصيح شوقا الى حمام ساخن - أذيب فيه عطر خاص - وبديل لجوربيها وحذاءيها ، وثوب منزلى للشاى ، واريكة بجانبها مائدة الشاى ،ومائة وواحد من الأشياء التى لاتحلم بها رجولته ! .. ومالبث ان قال : « هانحن اولاء قد وصلنا اخيرا ! »

★ ★ ★

◆ وظهر أمامها فجاة غلام طويل القامة ، مليح ، فى ثوب فضفاض ذهبى اللون ، وقد امسك ببوابة خشبية مفتوحة اجتازاها الى حديقة .. وصاح نيجل: « اهلا يا ابراهيم ! » ، فرد الغلام التحية ، وهو ينحنى بجسمه نحو مسز ارماين ، لامسا طربوشه بيده : « اهلا بك ياسيدى .. اننى ياسيدتى ابراهيم احمد ، الخادم الخاص - الذى يسمونه ترجمانا - لسيدى ارماينيجل !.. اننى استطيع قراءة الهيروغليفية ، واعيش دائما فى شباب ومرح » . وتناول يد نيجل فقبلها ووضعها على جبهته بسرعة ثلاث مرات متعاقبة ، وابتسم وهو يشيح بنظراته جانبا نحو الأرض .. وعاد يردد فى صوت حالم رقيق : «واعيش دائما فى شباب ومرح ! »
وقطف وردة حمراء من احدى الشجيرات ، فوضعها بين اسنانه الناصعة

البياض ، ثم تحول يقودهما صوب المنزل الأبيض القائم وسط الحديقة ، على بعد نحو مائة ياردة منهما .. فقالت مسز ارماين : « ياله من فتى لطيف ! » .. فعقب نيجل : « لقد كان ترجمانى من قبل .. هاهى ذى مملكتنا الصغيرة!»

ورات مسز أرماين رقعة فسيحة من الطين الأسمر الذى شققته الشمس ، مجردة تماما من الحشائش ، ومقسمة فى بداوة الى احواض منخفضة ضمت بعض شجيرات البرتقال و «الست المستحية» ، والورد ، والجيرانيوم (الحبيرة الافرنجية) والبونسيتياس .. وكانت تحيط بها من ثلاثة جوانب جدران من الطين ، ويحدها النيل من الناحية الرابعة . وقال ابراهيم : « اليس هذا مكانا جميلا يامس ؟ » . فشرعت مسز ارماين تضحك قائلة : « انه يعدنى من العوانس ! ترى هل هذا اطراء لى ؟! » .. ثم مست ثوب الفتى ، وقالت : «هلا اعطيتنى هذه الوردة يا ابراهيم » .. فصاح : « سيدتى ! لسوف اعطيك كل ماتريدين !»

كانت قد خلبت لبه .. فلما تناولت الوردة التى قدمها اليها مع «السلام» التقليدى ، بدا المرح يسرى فى اعطافها .. واستطرد ابراهيم يقول فى رصانة: « لا بد لك من كل ماتبتغين » . فقال نيجل : « انه يقرا افكارى ككل شرقى أصيل !» .. وهنا قالت مسز ارماين وهى تتشمم الوردة : « ان ما ابتغيه الآن هو .. الحمام ! » .. فقال نيجل : « نعم ، بمجرد ان نلقى نظرة اخرى على النيل من حديقتنا ! » .. ولكنها وقفت أمام المنزل وقالت : « ليس بوسعى ان استحم فى النيل .. الى اللقاء يا نيجل ! »

وقبل ان يقول كلمة واحدة ، عبرت شرفة صغيرة ، وتوارت خلف ابوابها العريضة ، حيث اختفت داخل الفيلا .. فابتسم ابراهيم ورفع راسه ثم غمغم: « ان زوجة سيدى ارماينيجل لم تعد تريد ابراهيم .. ولا تريد النيل .. كل

ماتريده هو ان تخلو الى نفسها »٠٠ وراح يهز راسه ـ الذى تدلى فوق عنقه الأسمر الطويل الرقيق ـ ثم تاوه وهو يردد كانما يخاطب نفسه : « تريد ان تخلو الى نفسها ! » • فقال نيجل : « لندعها وحدها قليلا ، وندهب فنشاهد الذهب ! »

وفى تلك اللحظة كانت مسز ارماين داخل المنزل تنادى وصيفتها فى صبر نافد • وهرعت الفتاة اليها • وفيما كانت ترشدها الى غرفة نوم فسيحة ، راحت السيدة تقول : « بحق السماء ، اخلعى عنى ثيابى ٠٠ اننى كتلة من الغبار ، وما ابشع مظهرى ! هل اعددت الحمام ؟ » • ولم تكن الوصيفة هى تلك الوصيفة ذات العينين الحمراوين التى قابلها نيجل فى سافوى ٠٠ وهزت الفتاة كتفيها الصغيرتين ، وبسطت يديها الدقيقتين قائلة : « انه معد يا سيدتى ٠٠ ولكن الماء ٠٠ اوه ، لا ٠٠ لا ! » ٠٠ فتساءلت مسز ارماين : « ماذا هناك ؟ ما الذى تعنينه ؟ » • فقالت الفتاة : « ان الماء فى لون شيكولاتة الصباح التى تشربها سيدتى ! » • واذ ذاك هتفت مسز ارماين فيما يشبه الياس : «اوه !»

والقت بنفسها على احد المقاعد ، ، وهى تستوعب بنظرة واحدة كل صغيرة وكبيرة فى الحجرة التى كانت مؤثثة ومنظمة بمعرفة رجل فرنسى غنى اصيب بالسل ، وكان يعيش هناك مع خليلته ، ثم مات فى القاهرة منذ عهد قريب ٠٠ وقالت السيدة اخيرا : « احضرى الى المرآة من حقيبة الزينة ، وانزعى عنى هذا الثوب ! » ، فاسرعت مارى لاحضار المرآة ٠٠ وراحت مسز ارماين تنظر فيها طويلا ، وفى لهفة بالغة ، بعد ان نزعت الدبابيس الطويلة والقبعة والخمار عن راسها ٠٠ وقالت الوصيفة : « لا يوجد هنا خدم من النساء يا سيدتى !» ٠٠ ولم تنبس مسز ارماين ببنت شفة ، فاستطردت مارى : « كل الخدم هنا من الرجال ياسيدتى ٠٠ وكلهم سود فى لون الجلد الأسود ! » ٠٠ فقالت السيدة : « اغلقى الباب المؤدى الى حجرة السيد ، ولا تثرثرى كثيرا ٠٠ فان راسى يكاد ينشق !»

. . . .

ـ ماهذا الذى تفعلينه ؟ ان المرء ليظن انك لم ترى مشدا (كورسيه) فى حياتك من قبل ! لا تتسكعى هكذا ، واذا تسكعت بعد ذلك فسوف «اشحنك» الى باريس باول قطار فى صباح الغد ! والآن ٠٠ اين الحمام ؟

فغضت مارى انفها الذى كان يبدو كعلامة الاستفهام ، ثم سارت امام سيدتها تقودها الى الحمام حيث اشارت الى الماء ، قائلة فى تجهم : « هاهوذا ياسيدتى» • فهتفت مسز ارماين : « يا الهى ! » • وراحت تردد هتافها وهى تحملق فى الماء ، فقالت الوصيفة : « مما يثير الحزن ان يفكر المرء فى ان السيدة ٠٠٠ » ، ولكن مسز ارماين قطعت عليها حديثها متسائلة : « هل وضعت فيه عطر ماء النعيم ؟ » ، فاجابت الفتاة : « يقينا ياسيدتى » • فهتفت السيدة وهى تغوص

فى الحوض : « بديع جدا .. ولكن .. اف ! » .. وارتعدت فى اشمئزاز عندما بلغ ماء النيل الأسمر - الغنى بالطمى - صدرها ثم ذقنها ، وغمغمت تقول : « منذا الذى يصدق انه كان يبدو ذهبيا عندما كنا نقف على الشاطىء ! »

الفصل الثانى عشر

◆ ما ان حانت الساعة الثامنة والنصف من ذلك المساء ، وخيمت الظلمة على النيل وعلى حديقة «الفيللا» الصغيرة ، حتى انهمك خادم نوبى طويل القامة يرتدى قفطانا أبيض وحزاما قرمزى اللون فى بسط سجادتين صغيرتين على أرض الشرفة ، تجاه البابين المؤديين الى حجرة الجلوس ، ووضع فوقهما منضدة صغيرة للقهوة ومقعدين كبيرين من نوع «الفوتيل» .. وكان قد وضع المقعدين متباعدين فى بادىء الأمر ، ثم اخذ ينظر اليهما فى تفكير ، وما لبث ان وضعهما متلاصقين ، وعندئذ لانت أساريره فى ابتسام .. وقبل ان تختفى الابتسامة من وجهه ، سمع خلفه - فوق «الباركيه» - حفيفا خفيفا لثوب نسائى ، فاستدار الخادم النوبى وراح يحدق فى مسز ارماين ، التى وقفت تجيل بصرها فى حجرة الجلوس .. وكانت حجرة يسودها اللونان الأبيض والأصفر ، ذات أثاث أنيق بسيط ، ينسجم تماما مع ذلك الجمال الناصع البياض الذى بهر الرجل الأسود واستهواه !

كان يراها بارعة الحسن ! وكان شحوب وجهها ، والبريق الهادىء المنعكس من شعرها قد سيطرا على حواسه .. فلما لمحته ، ابتسمت له ، وهى تتأمل - بنظرات صريحة الاعجاب - التناقض بين عمامته التى كانت فى بياض الثلج ، وحزامه وخفيه القرمزيين ، وبشرته السوداء اللامعة .. بينما راح هو يقارن سرا بينها وبين الهلال الذى كان يضىء ليل الشرق ! وما لبث ان خرج الفتى

فى خفة ليحضر القهوة ، بينما خطت هى الى الشرفة .. ووقفت فى بادىء الأمر ساكنة بلا حراك ، تتفرس فى ذلك الجزء من الحديقة الذى تكشف لها فى الظلام ، وفى التربة الجافة ، وفى شجيرات الورد التى لم تهذب فروعها فبدت برية موحشة ، وفى أشجار « الست المستحية » الصغيرة التى لاحت غير واضحة المعالم وكأنها أطياف جميلة ! وانسل من جوف الليل كلب نحيل داكن اللون ، ذو عينين تتالقان فى صفرة فاقعة ، فوقف بالقرب منها وهو يرتعد ويرقبها خلسة .. ولم تكن قد رأته بعد ، اذ كانت تحملق فى السماء التى ازدحمت بعشرات الألوف من النجوم .. تلك النجوم ذات البريق الثاقب التى تشرف على الأرض من السماء الافريقية . ووقف الكلب الأسمر يرتعد ويطرف باجفانه ، وعيناه متعلقتان بها ، ثم اشاح ببصره جانبا الى اسفل ، وما لبث ان عاد ينظر اليها من جديد .. ومن النهر المتوارى ، انبعثت اصوات الملاحين من بعد باحدى اغنيات النيل التى تشيع فيها الحرارة والحزن معا ، والتى يعشقها الملاحون النوبيون !

ولمحت مسز ارماين الكلب ، فراحت تطرده فى غضب : «اش..اش..اش!» وهى تشير اليه بيديها متوعدة ، مما جعله يتراجع عائدا الى الظلمات ثانية .. واذ ذاك هتف صوت قوى من عل : « ماذا هنالك يا روبى ؟ » . فاجفلت وقالت : « اوه ! أهذا انت يانيجل ؟ » . وجاءها جوابه : « نعم ، ماذا هنالك؟»

ــ انما هو كلب بشع الشكل ! ماذا تفعل هناك فوق الفيللا ؟

ــ كنت اتامل النجوم .. اليست عجيبة الليلة ؟

وكانت فى صوته نبرة من حماس حار يكاد يكون صبيانيا ــ بدأت تالفه ــ فقالت : « أجل ، رائعة ! آه ! ها هو ذا الكلب ثانية ! اش .. اش ! » .. فصاح نيجل : « سوف أحضر اليك واطرده » .. وان هى الا لحظة حتى كان معها ، وهو يقول : « اين هذا الوحش الصغير ؟ » .. فقالت : « لقد ذهب ثانية ، اذ انك اخفيته .. آه ! هل أحضرت لى معطفا أيها الانسان الواسع الفكر ! » ، واستدارت ليطرح المعطف على جسدها ، فلما شرع يحكمه حولها ، ومست يداه ذراعيها وكتفيها ، اومضت عيناه وتوردت وجنتاه السمراوان .. ومالبث بعدئذ ان تبدلت تعبيرات وجهه ، ولاح انه كان يكبح شيئا فى نفسه ويصده ! ثم جذبها فاجلسها فى أحد المقعدين ، واتخذ مجلسه بجانبها فى سكون ..

واحضر النوبى القهوة ، ثم انصرف مبتعدا فى خفة والابتسامة على شفتيه ، فصبت مسز ارماين القهوة بينما اشعل نيجل سيجارا .. ودفعت قدح القهوة صوبه وهى تقول : « قهوة تركية لمولاى وسيدى ! » .. ثم اردفت : « احسب اننى ينبغى ان أتعلم كيف اصنعها » .. فاخذ يتاملها وهو يمد يده ليتناول القهوة ، ثم سألها : « هل بدأت تالفين المكان ؟ » . فاجابته : « لم ينقض

بعد سوى وقت قصير جدا ايها الملهوف العزيز !٠٠ تذكر اننى لم اغمض بعد جفنا هنا ، ولكني واثقة من انى سوف آلف المكان ٠ وانت ؟ ما هو الشان معك ؟ » ، فاجاب : « اننى لا اكاد اعرف ما اشعر به ! »

وراح يرتشف قهوته فى بطء ، ثم استطرد يقول : « انه تحول عظيم ، فقد مكثت وحدى طويلا ٠٠ ان لى بطبيعة الحال كثيرا من الأصدقاء ، ولكنى مع ذلك كنت كثيرا ما اشعر بالوحدة ، كما كنت انت تشعرين ياروبى ٠٠ اليس كذلك ؟» ٠٠ فكان جوابها : « اننى قلما شعرت بغير ذلك » ٠٠ فهتف : «والليلة ؟» ٠٠ فقالت فى تؤدة : « آه ، الليلة ! ان كل شىء جد مختلف الليلة ٠٠ وانى لأعجب ٠٠ » ، وتريثت دون ان تتم عبارتها ٠ وكانت تسند ظهرها الى المقعد وتتكىء براسها على احدى الوسائد ، وهى تنظر اليه وفى عينيها ، وعند زاويتى فمها ، ابتسامة خفيفة شبه ساخرة ٠٠ ثم اردفت : «ترى ما الذى سوف يخامر ماير ايزاكسون ؟ » ٠٠ فتساءل : « بصدد زواجنا ؟ »

- نعم ٠ هل تعتقد انه سيدهش له ؟

- انا ؟! كلا ٠٠ لست اعتقد ذلك البتة !

- انك لم تشر اليه فى احاديثك معه ٠٠ اليس كذلك ؟

- لم اقل شيئا عن اى زواج ، ولكنه كان يعرف شيئا عن شعورى نحوك !

- مهما يكن من أمر فانى اعتقد انه سوف يدهش للأمر ٠ متى يصل الينا اول بريد من انجلترا ليحدثنا عن راى الدنيا العزيزة الشفوق الطيبة القلب ؟

- ومن الذى يهتم لما يفكر فيه اى امرىء او يقوله ؟

- ان الرجال كثيرا ما يأبون ان يعترفوا لنا بهذه الميزة ، ولكننا معشر النساء ، كقاعدة عامة ، شديدات الحساسية الى حد مروع ٠٠ اشد حساسية مما قد تتصور ٠٠ لكم اود ان ياتى يوم يحاول فيه قومك ان يحبونى !

فتناول يدها بين راحتيه ، ومضى يقول : « ولماذا لا يفعلون ؟ لماذا لا يفعلون؟ ولكننا سوف نعتكف فى هذا الشتاء لنفسينا ، فنتعلم كيف يتعرف كل منا الى الآخر ، ونتعلم كيف يثق كل منا فى الآخر ، ونتعلم كيف ٠٠ كيف يحب كل منا الآخر باطيب واجمل صور الحب !٠٠ لقد اشتريت هذه الفيلا ياروبى لأننى فكرت فى انك قد تحبينها ، وانها لا باس بها كاول منزل لنا ٠٠ ولكننى عما قريب اود ان تاتى معى الى (سنورس) ٠٠ وعندما تنقضى الخمسة عشر يوما التى خصصتها لشهر العسل هنا ، فسوف اتغيب عنك بضع ليال ، لأرى كيف يجرى العمل هناك ، ولأدبر ما يلائمك ٠٠ سوف اشترى افخم خيمة اجدها فى القاهرة ، فانى اريدك فى المعسكر معى ، حيث الموقع اشد عزلة من هنا ، واكثر وحشة ، واقل تحضرا ٠٠ ان الانسان يتجه هناك نحو الطبيعة الخالصة ! وعندما كنت فى لندن - قبل ان اسالك الزواج منى - كنت

اتصورك فى (سنورس) •• لقد اعتدت أن اقيم معسكرى بالقرب من الماء • وفى الليل ـ عندما ينام الرجال ملتفين فى البطاطين وقطع الخيش ، وحيث تجثم الجمال صفا واحدا ووجوهها متجهة نحو خيمة الرجال ، وهى لا تكف عن المضغ ـ اعتدت أن أخرج وحدى واصغى الى نقيق الضفادع •• انه اشبه بانغام مزمار تظل اللعينة تعزف عليه طول الليل !•• سوف تخرجين الى جانب ذلك الماء ، وتستمعين اليها معى •• انه لأمر عجيب حقا ان يثير شىء صغير كهذا خيـــال المرء ! •• آه ! ان مجرد التفكير فى تقاســـيم الناى المصرى أثناء الليل •• » • ثم أمسك عن حديثه ، مطلقا صوتا لم يكن ضحكا خالصا ، وانما كان ضحكا يخالطه شىء آخر ! ثم استطرد : « امامنا ـ والحمد لله ـ شتاء عظيم ياروبى ، نقضيه معا بعيدا عن العالم »

فرددت كلماته فى بطء : « بعيدا •• بعيدا عن العالم ! » • ثم اردفت وقد تغيرت نبراتها : « اننى فى حاجة الى المزيد من القهوة » •• فقال : « حذار، والا عز عليك النوم ! » •• فهتفت فى لهجة حافلة بالمعانى : « نيجل •• هل تريدنى أن أنام الليلة ؟ » •• فرمقها دون ان يجيب ، بينما استطردت قائلة : « وحتى اذا كنت لن استطيع النوم بسبب القهوة ، فلا بد لى من مزيد منها •• وفضلا عن ذلك فانى عادة اسهر الى وقت متأخر » •• فقال مشفقا : « ولكنك الليلة متعبة » ، فقالت باصرار : « لا باس •• سوف اشرب القهوة ! »

وصبتها فى قدحها ، ثم شربتها •• بينما كان يقول : « أعتقد انك تعيشين كثيرا فى الحاضر » •• فقالت : « وانت •• انك تعيش كثيرا فى المستقبل ! »

ـ أنا ؟ ما الذى يجعلك تظنين ذلك ؟

ـ ان غريزتى تنبئنى بهذه الحقيقة •• وبحقائق اخرى عنك !

ـ اذا لم تخففى من غلوائك فستجعليننى اشعر وكاننى صنعت من زجاج !

ـ عش قليلا فى الحاضر •• عش فى الحاضر الليلة !

وكانت فى صوتها رنة من الالحاح ، وفى عينيها الزرقاوين الوضـــاءتين ـ اللتين راحتا تتالقان خلال الظلال المرسومة التى كانت تحيط بهما ـ لمحة من الالحاح كذلك •• بل لقد كان هذا الالحاح واضحا فى يدها البيضاء النحيلة الدافئة وهى تضعها فوق يده وتردف قائلة : « ولا تشغل بالك بالمستقبل » •• فابتسم قائلا : « اننى لم أكن مشغولا به •• ولكنى كنت أتطلع اليه ! »

ـ لماذا ؟ اننا هنا الليلة يا نيجل كى نعيش وكاننا لن نعيش الا الليلة ! •• انك تتحدث عن (سنورس) ، ولكن من الذى يدرى ما اذا كنا سنرى (سنورس) قط ، او نسمع الارغول المصرى بجانب الماء يوما ؟ انا لا ادرى ، وانت لا تدرى •• ولكنا معا نعلم اننا هنا الليلة ، الى جانب النيل !

وكانت تحاول بكل قواها ـ ولكن فى استتار ـ ان تدمر فيه ذلك الطموح

الروحى الذى كان عنصرا من عناصر طبيعته ، والذى استطاعت ـ عن طريقه ـ ان تكسبه زوجا لها ·· فقد بدات تشعر بان ذلك الطموح بعينه اصبح لا يجد لذاته شاغلا سوى ان يثيرها ويضايقها ويقف فى طريق رغباتها ، فيسد المسالك فى وجهها ·· وقال نيجل وهو يتنهد فى عمق : « أجل ·· اننا هنا الليلة الى جانب النيل ، نسمع الملاحين وهم ينشدون ··· »

وكان المنشدون البعيدون قد اخلدوا الى الصمت منذ دقائق ، ثم لم تلبث اصواتهم ان سمعت من جديد ، وهى تقترب من الحديقة ، كما لو كانوا فوق عائمة تنحدر مع النهر تحت النجوم اللامعة ·· وكانت الموسيقى من القرب والدنو بحيث استطاعت مسز أرماين ان تسمع كلمة واحدة ، يصيح بها صوت منفرد : « الله ! الله ! الله ! » ·· وكانت تصاحب الصوت همهمة عميقة رتيبة، كما كان المغنى يدق على « دربكة » يضعها بين ركبتيه ، وقد صاحبه (كورس) من الأصوات المنبعثة من الانوف ، فى حرارة بدائية خالية من الفن ·· حرارة كان فيها شىء من الحزن والأسى ، وكان فيها شىء آخر ينبض بين الحين والآخر ـ رغم قسوته وصلابته ـ بالحنين ·· اشبه بقسوة العالم ، التى يخالطها ذلك الحنين الأبدى الى شفاء ما احدثته من جراح !

وعاد نيجل الى حديثه مرددا عبارته الأخيرة : « ·· نسمع الملاحين وهم ينشدون ويتغنون بالله ، وبالله دائما ·· الله ، اله النيل ، والهنا ·· نحن الاثنان الجالسان على ضفاف النيل ! » ·· فهتفت : « اش ، اش ، هاهو ذا الكلب قد عاد ! انني اريد حتما ·· » ، وكان صوتها قد بدا يرتفع فى هياج عصبى ، واندفاع فجائى يكاد يكون وحشيا ، ولكنها استعادت سيطرتها على نفسها للتو، واستطردت تتابع فى هدوء : « الا يستطيع البستانى ان يمنعه من الدخول ؟ ·· » ، فقال نيجل : « لعله كلب البستانى ·· ساذهب لأرى ما فى الأمر ·· لن اغيب أكثر من دقيقة ! » ·· واندفع قائما يتبع الكلب الذى كان يزحف على بطنه مبتعدا الى داخل الحديقة ، وهو يتلفت حواليه بعينيه الصفراوين فى وجل ، ليرى ما اذا كان الخطر يقترب منه ·

★ ★ ★

◆ الله ! الله ! الله ! ·· فى أعماق الليل البهيم ! ·· ما درت مسز ارماين ان هذه الأنشودة التى راح يرددها ملاحو النوبة ، ستصبح ـ فى ايام مقبلة لم تكن تحلم بها ـ جزءا لا يتجزأ من وجودها على ضفاف النيل ·· لا ، ولكنها رغم ذلك اخذت تصغى فى انتباه توترت له اعصابها حتى غدا مؤلما !

« الله ·· الله ! » ·· وقالت مسز ارماين لنفسها : « ومع ذلك فمن المحتمل الا يكون هناك اله ! بل كيف يمكن ان يكون ؟ اننى واثقة من أنه

لا يوجد ! » .. واذ ذاك خيل اليها فجاة ان ماير ايزاكسون قد مثل امامها في الظلام ، وراح يتفرس في عينيها كما كان يفعل في حجرة الاستشارة بعيادته ، عندما نزعت خمارها واستدارت بوجهها نحو الضوء واغمضت عينيها ! ما الذى دعاها الى ان تفكر فيه الآن ؟ ولماذا تمثلته امامها ؟.. وترامى الى سمعها حفيف خافت انبعث من جوارها ، فاجفلت ، وفتحت عينيها .. وعند احد ابواب الشرفة ، كان « ابراهيم » الترجمان يقف ساكنا بلا حراك ، وهو ينظر اليها في امعان ، وقد وضع زهرة بين اسنانه .. فلما تبين انها قد راته ، راح يتقدم الى الامام في رشاقة وهو يبتسم ، مطاطئا راسه وكانه يستغفر عن وجوده في ذلك المكان .. فسالته : « ما اسمك الذى ذكرته لى ؟ »

فتناول الزهرة من بين اسنانه ، وقدمها اليها ، ثم اخذ يدها فقبلها واحنى راسه حتى مس جبينه ظهر راحتها ، وقال : « ابراهيم احمد يا مولاتى » ..

فنظرت الى ثوبه القصبى اللون ، والى سترته الأوروبية ، ثم الى ذلك المنديل الاخضر - ذى الحواف المذهبة - الذى كان يعقده حول طربوشه ، والذى غطى عنقه وتهدل على صدره .. ثم قالت في استحسان :« شكلك بديع جدا ، ولكنى لا احب هذه السترة ، فانها تبدو انجليزية الى حد بعيد ! » .. فقال : « انها هدية من لندن يا مولاتى ».

« الله ! » .. كان غناء الملاحين يزداد قوة باطراد ، ويبدو اكثر حرارة ، واكثر الحاحا ، وكانه ابتهالات دينية غريبة تطرد ارتفاعا في الليل البهيم .. فقالت مسز ارماين : « اين هؤلاء الناس الذين يغنون يا ابراهيم ؟ » . وثبتت الزهرة في صدر ثوبها ، بعد ان فتحت معطفها لتفعل ذلك ، ثم استطردت قائلة : « لكانى بهم يقتربون شيئا فشيئا .. اقادمون هم من جنوب النهر الى الشمال ؟ »

فقال : « اعتقد انهم فى « فلوكة » يا سيدتى ٠٠ انهم نوبيون ، وهم دائما ينشدون هذه الانشودة ٠٠ انها أنشودة جميلة ! »

وراح يحرك رأسه فى رفق ، متتبعا ايقاع الموسيقى ٠٠ ومن خلال اطراف منديله الحريرى ، الخضراء والمذهبة ، كانت عيناه السمراوان الرقيقتان لا تكفان عن التفرس فى مسز ارماين التى قالت : « نوبيون ؟! ولكن الاقصر ليست من بلاد النوبة » ٠٠ فرد قائلا : « ان بلاد النوبة تقع جنوبى أسوان ٠٠ والمسلات تأتى من هناك ٠٠ سأريك المسلات غدا يا مولاتى ، فما من ترجمان يفهم كل شىء عن المسلات مثل ابراهيم ! »

فقالت : « اننى واثقة من انه لا يوجد مثلك ٠ ولكن ٠٠ » ٠ وكانت أصوات البحارة المنشدين هذه قد بدأت تسيطر على تفكيرها ، فقالت : « وهل كل البحارة نوبيون اذن ؟ » ٠٠ فاجاب فى لهجة لندنية مباغتة : « كلا ! »

ـ ولكن هؤلاء الذين يغنون ؟

ـ لقد قلت انهم نوبيون يا سيدتى ٠٠ انهم رجال محمود بارودى النوبيون !

فاعتدلت مسز ارماين فى مقعدها وهى تقول : « بحارة بارودى ! » ٠٠ واردفت بعد لحظة : « ولكن محمود بارودى ليس هنا فى الاقصر ؟٠٠» ٠٠فاذا عينا ابراهيم اللطيفتان تكتسبان حدة وبريقا فجائيين ، وقال : « وهل تعرفين محمود بارودى يا سيدتى ؟ »

ـ لقد قابلناه على الباخرة قادما من نابولى ٠

ـ انه كبير جدا ٠٠ كبير كرمسيس الثانى ٠٠ كتمثال الملك نفسه الذى ترينه امامك فى معبد الرامسيوم !٠٠ وعيناه واسعتان كعينى ، والشعر الكث يحف بهما هكذا !

ورفع يديه السمراوين الى أعلى ، مقلدا حاجبى « بارودى » العجيبى الشكل ٠٠ فاومأت مسز ارماين برأسها ، بينما مد ابراهيم يديه نحو النيل قائلا : « هؤلاء هم رجاله النوبيون ، وهم قادمون من « دهبيته » التى تنتظره فى الاقصر الآن ٠٠ انهم الليلة بلا عمل ، ولذلك فهم يقبلون على شىء من اللهو !»٠ فتساءلت السيدة : « وهل هو قادم الى هنا ٠٠ الى الاقصر ؟ » ٠٠ فاومأ ابراهيم برأسه فى هدوء وقال : « أجل ، انه قادم الى الاقصر يا سيدتى ٠٠ وهو رجل لطيف جدا ، ورجل طيب جدا ! انه كبير كرمسيس الثانى ، وغنى كالخديو ! ولديه من المال مثل هذا القدر ! » ٠٠ وطوح بذراعيه فى الفضاء كأنه يرسم عالما كبيرا او محيطا شاسعا ٠ ثم اسقط ذراعيه فجأة وهو يضيف : « ها قد جاء سيدى ! »

وبرز نيجل من ظلمات الحديقة قائلا : « أهلا يا ابراهيـم ! » . فاجاب الترجمان : « أهلا بك يا سيدى ! » .. فعاد نيجل يقول متلطفا : « هل جئت تؤنس وحشة سيدتك فى غيابى ؟ أحسنت يا بنى ! » . واذ ذاك ابتسم ابراهيم ثم ابتعد متمهلا نحو شاطىء النيل ، وتلاشى ضياء ثوبه الذهبى بين جذوع أشجار البرتقال الصغيرة .. بينما قال نيجل وهو يجلس فى مقعده ويتنهد فى رضى وارتياح : « لقد تحققت من أنه كلب البستانى نفسـه .. وقد ألزمته باطعام الحيوان المسكين ، اذ أوشك أن يموت جوعا ، وهذا ما كان يأتى به الينا » .. فقالت فى وهن : « فهمت ! »

وغمغم نيجل : « الله ! » .. وكان فى نطقه بها كرجل من الشرق .. ثم نظر فى عينيها ، وراح يقول : « انها الكلمة الاولى التى تسـمعينها - فى الليل - من مصر يا روبى ! انها تحية ليل مصر اليك .. وكثيرا ما سمعت هذه الأنشودة فى أعالى النهر ، عند بلاد النوبة ، ولكن .. اوه ! شد ما تبدو لى الآن مختلفة ! »

وكانت مسز ارماين فى تجاربها الطويلة - خـلال حيـاة معقـدة وحافلة بالتقلبات - قد سمعت صوت الحب من أفواه الرجال ، مرات عديدة .. ولكنها لم تكن قد سمعت قط - حتى هذه اللحظة - صوت الحب من نيجل ، زاخرا مليئا .. وتبينت فيه شيئا لم تعرف كيف تتجاوب معه ، وهى التى كان لها من غريزة الغانية اللعوب ما يمكنها من التجاوب الكامل التام مع رغبـات الرجل الذى دبرت بنفسها أمر ارتباطها به .. لقد كانت مدينة له بهـذا ، ولكن ما أكثر ما كانت مدينة به لشىء آخر فى أعماقها ؟! .. ان ثمة جـوعا كان يعوى فى أعماق نيجل ، ولم يكن لديها قوت له !.. فلماذا أظهر لهـا هذا الجوع ؟.. لقد طالما ضاقت نفسها بمظهر هذا الجوع ، أما الليلة فانها تحس بأنه يشحذ كل كيانها ويرهف حسه .. ومع ذلك ، فقد عقدت العزم على أن لا تدع نيجل يرى انفعالها .. ومن ثم فانها أجابت فى هدوء بالغ : « اننى أسمع هذه الأغنية للمرة الأولى معك .. لذلك فسوف تظل مقترنة بك فى نفسى ! »

فدنا منها قليلا .. وفهمت ، واستطاعت أن تجيب النداء الذى استثار هذه الحركة .. فهتف يقول : « يجب أن نشرب ماء النيـل معا يا روبى .. ماء النيل بأشكاله المختلفة .. وسوف آخذك الى مقابر الملوك والى بهو الأعمدة ، بينما تكون الشمس موشكة على المغيب .. وعندما يشرق القمر ، سـنذهب الى الكرنك .. وانى لواثق من أنك ستحبينها جميعا ، كما أحبها أنا .. من الطبيعى أن المرء لا يستطيع أن يعرف مدى مشاعر غيره ، ولكن .. هـل تظنين أنك ستحبين معى كل هذه الأماكن ؟ »

وكانت تخالط الحرارة والرغبة فى صوته نبرة تنبىء بالقلق وبذلك الشك النفسى الذى يصاحب الحب فى أنواع معينة من الطبائع البشرية .. وقالت المرأة : « اعتقد أننى احبها جميعا .. معك » . وتركت يدها تسقط فى يده ، فلما اطبقت راحته عليها تحركت غرائزها .. كان فى نيجل شىء يجذب جسدها اليه ، بشدة وقوة فى بعض لحظات معينة ، فكان عليها ـ فى حياتها المقبلة ـ ان تطرد ما قد يتعارض مع هذه الجاذبية !

واستطرد نيجل فى حديثه قائلا : « ويوما ما .. يوما ما سآخذك لترى الليل وهو يهبط على أبى الهول ، اعجب ما فى مصر ، بل ما فى العالم بأسره ! .. نستطيع ان نفعل ذلك عندما يكون حتما علينا ان نمر بالقاهرة ، فى ذهابنا الى الفيوم او سفرنا منها ، بمجرد أن اعد لك أسباب الاقامة هناك ! »

ـ انك تفكر فى كل شىء يا نيجل !

ـ اولا تحبين أن تكونى موضع التفكير ؟

ـ ما من امراة على ظهر البسيطة لا تحب ذلك !

وضغطت يده فى رفق ، ثم رفعتها فوضعتها على ركبتها .. وعندئذ رأته يتطلع الى النجوم ، فايقنت انه كان يربط بينها هى وبين النجوم .. ويفكر فيها كشىء مثالى ، او انه ـ ان لم يكن الأمر كذلك ـ يفكر فيها كشىء يمكن ان يغدو مثاليا فى الوقت الملائم ! وقالت : « انني لست نجما ! » .. ولكنه لم يحر جوابا البتة ، فعادت تقول : « نيجل .. لا تكن من الحماقة بحيث تفكر فى كنجم من النجوم ! » .. فالتفت اليها فجاة وقال : « ماذا تقولين يا روبى ؟ » .. فاجابت : « لا شىء ! »

ـ ولكنى سمعتك تتكلمين ؟

ـ لابد انها كانت اصوات الملاحين المنشدين .. لقد كنت اتطلع الى النجوم .. تالله ما اعجبها !

وفيما كانت تقول ذلك اتت بحركة خفيفة جعلت معطفها ينفرج بحيث بدا نحرها الناصع ، وهى تردف : « ما ابدع هذا الدفء الجميل ! » .. فنظر الى نحرها ، وتنهد ، وبدا عليه التردد لحظة .. ثم انحنى فجاة كما لو كان يهم بتقبيله !.. ومزق السكون فى تلك اللحظة الصوت الأخن ، المنبعث من انف الملاح الذى كان يردد الهتاف المنغوم « الله ! » وهو يتزعم المنشدين ، قادما الى الحديقة من النهر ، بينما كانت دقات « الدربكة » تدوى عاليا .. عندئذ رفع نيجل راسه دون ان يقبلها ، وقال : « ان هؤلاء الملاحين قريبون من الحديقة ! » .. فالتفت مسز ارماين فى معطفها فجاة ، بينما كان ماضيا فى حديثه قائلا : « هل تحبين ان نهبط الى النهر ونراهم ؟ » ، فاجابت : « نعم ، دعنا نذهب .. ينبغى ان اراهم ! » .. ونهضت من مقعدها فى حركة

سريعة رشيقة ، كانت مليئة بدافع من التحمس الملتهب ، فى حين كانت عيناها تلمعان فى ضراوة ، كانهما تجيبان على اصوات الملاحين الضارية !

وجذب نيجل ذراعها فتابطها ، وانحدرا على الممر الرملى الصغير امام اشجار البرتقال الساكنة ، حتى بلغا ضفة النهر ٠٠ وكان ابراهيم واقفا هنـــاك ، يدخن سيجارة ، ويسترق النظر ساهما ، من خـــلال دثاره ذى الأهـــداب (الشراريب) ٠٠ فقال نيجل : « أين الملاحون يا ابراهيم ؟ » ٠٠ فبـــادر مجيبا : « ها هم اولاء قادمون يا سيدى » ٠٠ وعلى الظلمة الرجراجة المترامية التى لفت النهر ، كانها طريق رحبة من مسالك الليل تمتد موغلة نحو اصقاع افريقية نائية ، وهى تحتضن ضفتى النهر بسياج من الأشجار المعتمة ٠٠ على هذه الظلمة اقبلت « الفلوكة » وهى تتالق بالمصابيح ٠٠ والمجاديف تضرب صفحة الماء مختلطة باصوات الرجال ، الذين بدوا كأشباح مبهمة ، بعضـــها جاثم ، وبعضها منتصب ، وبعض ثالث انحنى مطلا على النهر الذى تخللتـــه خيوط من الضوء ، اخذت تتساقط فيها قطـــرات متالقة من الماء العـــالق بالمجاديف المرفوعة ٠ واذ تكشف هذا المنظر للمتفرجين الواقفين فى الحـــديقة، هتف ابراهيم : « ها هم أولاء النوبيون قادمون » ٠٠ فقال نيجل : « ترى ما الذى يفعلونه هنا ؟ ولماذا يصعدون فى النهـــر الليـــلة ؟ رجال من هؤلاء يا ترى ؟ »

وفتح ابراهيم شفتيه ليجيب ، ولكن مسز ارماين نظرت اليه ٠٠ وعنـــدئذ اطبقهما دون ان ينطق بكلمة واحدة ! بينما هتفت : « صه ! اننى اريد ان اسمع غناءهم » ٠٠ فقد لاح لها ذلك وكانه حفل موسيقى ليلى (ســـيريناد) من الشرق ، اقيم ترحيبا بمقدمها الى مصر ٠٠ او كانه صوت افريقيا العظيـــمة السوداء يتحدث اليها وحدها من ثنايا الليل ٠٠ يخاطبها فى نداء قـــوى ، ويتحداها ان تستطيع الاغضاء عن الاصغاء اليه ، او الاستجابة الى دعواته البدوية !٠٠ وثار فى اعماقها لون من الخيال الحيوانى ، فبدات تحس بانفعال قوى ينهشها ٠٠ ولم تعد تسمع اسم « الله » ٠٠ وحتى لو سمعته ، فانهـــا لم تعد تربط بينه وبين الاله الذى يعرفه المسيحيون ، او الاله الذى يعـــرفه نيجل ، وانمـــا بينه وبين تلك الأصنام الغريبة القائمة فى المعابد المعتمة ، حيث تختلط الجريمة بالعبادة ٠٠ لقد ثار خيالها فجاة ، واستجمع كل نشاطه ، ثم اندفع يعدو جامحا !

وظل القارب واقفا امام الحديقة ، فراحت تحدث نفسها : « لعلنى المقصودة بهذا ٠٠ بل اننى المقصودة به حقا ! » ٠٠ وادركت من تلك اللحظة على وجه التحقيق ان هذا القارب قد اتى الى الحديقة لأنها كانت تقيم فى هذه الحديقة ، وانه تمهل حتى تستوثق من ان الغناء كان موجها اليها ولم يكن لأحد ســـواها

.. انه لم يكن لها ولنيجل معا .. اذ لا شان لنيجل به ، وما هو بالذى يفهم مغزاه ! .. وما لبث القارب ان تحرك الى الأمام ، واخذت المجاديف المتلألئة تحت الأضواء تتارجح فوق الماء مبتعدة ، والأصوات تحلق تحت النجوم سارية ، الى ان طواها الليل فى احضانه .. واستحوذ غموض مصر – الذى لا يغفل ولا ينام – على الضوء والغناء !

وعندئذ قال نيجل فى تهيب ، وقد خامرت صوته رجفة : « هل نعود الى الفيلا يا روبى ؟ » .. فلم تحر جوابا لحظة . وما لبثت ان قالت : « اجل .. احسب ان الوقت قد حان للذهاب الى الفراش » .. فتابط نيجل ذراعها ثانية .. ومضيا متجهين نحو المنزل ، بينما كان ابراهيم يرقبهما والابتسامة على شفتيه !

الفصل الثالث عشر

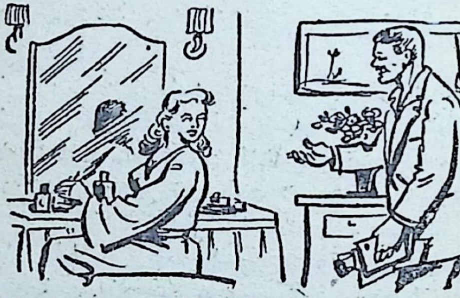

• قال نيجل بعد أسبوعين – وهو يلج مخدع زوجته عقب رياضته الصباحية التى كان يتمشى خلالها على ضفة النهر بعد استحمامه فى النيل : « روبى .. من تظنيننى قد قابلت لتوى فى الأقصر ؟ » .. وكان ممسكا فى يده بحزمة من الخطابات والصحف ، اذ كان البريد قد وصل منذ قليل .. وكانت مسز ارماين فى ثوب منزلى (روب) طويل أبيض اللون ، لا يبرز تقاطيع جسمها ، وقد تهدل شعرها اللامع خلف عنقها ، وجلست أمام منضدة الزينة .. فالتفتت من

فوق كتفها قائلة : « أهو شخص تعرفه نحن الاثنان يا نيجل؟» . فأومأ برأسه موافقا .. واذ ذاك قالت : «ماأحسبك تعنى القرمزى والأحمر القانى ؟ » .. فقال : « آل هايمان ؟ كلا ، ولو اننى أعتقد انهما هنا فى فندق ونتر بالاس » .. فغمغمت عابسة : « غفر الله لهما ! وهل الذى قابلته رجل أم امرأة ؟ » ، فأجاب: « بل رجل ! »

واستدارت دفعة واحدة ، فى حركة حادة فجائية ، وقد تشبثت يداها بمسندى المقعد وهتفت قائلة : « رجل ! ما أحسبه ماير ايزاكسون ؟ »

ـ ايزاكسون ؟ يا اله السموات ! انه لا يأخذ اجازة قط الا فى شهر اغسطس . ياللصديق العزيز الحميم ! كلا ! بل هو شخص لا أهمية له بصفة خاصة ، ولكن لا بأس به ! ماهو سوى .. بارودى !

فتهاوت ذراعا مسز ارماين عن مسندى المقعد ، وهى ترتد الى المرآة ، ثم قالت وكأنما هذا الاسم لا يعنى شيئا بالنسبة لها : « بارودى ! لماذا تثير شغفى للاشىء يانيجل ؟ » . وتناولت ناثرة « البودرة » ، وهى تستطرد : « هل تعنى ذلك الرجل الذى رأيناه على الباخرة ؟ ما شأنه بنا ؟ »

فعبر نيجل الحجرة ، ثم جلس على مقعد بجوار منضدة الزينة ـ فى مواجهة زوجته ـ ممسكا فى حجره بحزمة الخطابات والصحف ، وقال : « أفكنت تتوقعين شخصا آخر يا روبى ؟ » .. فقالت : « كلا ، لأننا لا نريد أحدا ! ولكنك أثرت لهفتى وترقبى ، ثم ألقيت عليه رشاشا باردا ! يا لك من شخص مزعج ! » .. وكان فى صوتها نوع من السخط المكبوت ، ولكن عينيها وشفتيها كانت تبتسم وهى تمر بناثرة المسحوق على وجهها .

واستند نيجل بذراعه الى منضدة الزينة وقال : «روبى !» ، فهتفت متسائلة : « نعم .. ماذا هنالك ؟ » . وتوقفت عن نثر

البودرة على وجهها ، بينما قال : « كم أود ألا تفعلى كل ذلك !» .
فسألته فى دهشة : « كل ماذا ؟ »
ـ كل الذى تفعلينه بوجهك ، فأنت جميلة .. وبودى لو تركت وجهك على سجيته !
ـ اننى أفعل ذلك فى الواقع ، ولكننى أحاول أن أقى بشرتى حرارة الشمس ! ولا ريب فى انك لا تريد منى ان أبدو كزوجة واحد ممن يسميهم ابراهيم « الفلاحين » .. أليس كذلك ؟
ـ انما أريد أن تظهرى طبيعية بسيطة كشأنك معى دائما ، ولست أعنى طبعا انك بسيطة العقل ، وانما أقصد أسلوبك وطريقة حياتك !
ـ يا عزيزى نيجل .. من ذا الذى يتصنع فى هذه الأيام ؟ ولكننى مضطرة الى أن لا أظهر كنساء الفلاحين .. ان ذلك يصدم ابراهيم ويفجعه !
ومع ذلك فقد وضعت ناثرة المسحوق جانبا ، بينما قال نيجل : « انك لاتثقين فى جمالك الحقيقى يا روبى ! » . فاضطجعت فى مقعدها وراحت تنظر اليه فى رصانة ، وكأن ملاحظته هذه قد أثرت فيها تأثيرا قويا .. ثم تطلعت الى المرآة ، وعادت تنظر اليه من جديد قائلة : « هل تظن اننى ينبغى أن أكون من الحكمة بحيث أثق فيه كما هو الآن ؟ » .. فهتف متحمسا : « لا ريب فى ذلك » .. ووضع يده فوق يدها ، ثم استطرد : « **انك تزدهرين هنا فى مصر .. ولكنك لا تكادين تمكنين المرء من ادراك ذلك عندما تضعين هذه الأشياء فوق وجهك** »
وعادت تحدق النظر الى المرآة فى صمت . وأخيرا قالت : « هل هناك خطابات لى ؟ » ، فأجاب : « اننى لم أنظر اليها بعد ، فقد كنت أتمشى مع بارودى على الشاطىء ، حيث لحق بدهبيته ، وسيذهب بها الى (أرمنت) ليشرف على أعماله فى صناعة السكر هناك » .. فغمغمت : « آه ! » ، بينما استطرد

نيجل قائلا : «وأظنه لن يبقى الا الى الغد أو الى يوم الأربعاء .. وقد دعاني للذهاب الى يخته والتفرج عليه بعد الظهر ! » .. فسألته : « وهل انتويت الذهاب ؟ » .. وكان جوابه : « لقد قلت له انني لن ألبث ان أخبره .. فهل أذهب ؟ » .. وأجابت متسائلة بدورها : « أو لست تريد أن تذهب ؟ »

ـ انني أحب أن أرى العائمة ، ولكن .. انت تعلمين انه نصف شرقي ، ولعله لم ير من الصواب ان .. ولكن ...

ـ تقصد أنه لم يدعني معك ؟ ولماذا ينبغي أن يفعل ؟ اذهب يا نيجل ، فأنت في حاجة الى صحبة الرجال أحيانا ، وما ينبغي أن تجلس دائما بجانبي ! وفضلا عن ذلك فانك موشك على السفر الى (الفيوم) ، ويجب أن تتعود الوحدة بين ساعة وأخرى !

فضغط على يدها في رفق ، وقال : « لسوف أعود من الفيوم سريعا .. وسريعا سوف تذهبين معي الى هناك » .. فهتفت : « انني أحب هذا المكان .. أهناك خطابات لي ؟ » .. واذ ذاك فك الخيط الذي كان يربط رزمة الخطابات ، وراح يتصفحها ، ثم ناولها ثلاثة أو أربعة خطابات ، فقالت : « والآن اذهب واقرأ خطاباتك بعيدا عني .. فانني لا أستطيع أن أفعل شيئا عندما تكون في حجرتي ، لأنك تستحوذ على انتباهي كله ! وسوف ألحق بك تحت بعد بضع دقائق» ، فقبلها وانصرف، ملبيا رغبتها

وعندما بلغ حجرة الجلوس الصغيرة ، ألقى بالصحف على احدى المناضد في غير اهتمام ، ودون أن يفض أغلفتها ـ اذ قلما نظر في صحيفة منذ أن قدم الى مصر ـ فقد كانت لديه أشياء أخرى لابد له من أن يفعلها .. أشياء شغلته عقلا وجسدا .. اذ كان نيجل ، ككثير من الرجال الذين خلقوا وبهم حماس حيوي عظيم، يعيش أحيانا وعلى جانبي وجهه مثل رفاريف الحصان ، التي تحجب عن ناظريه تماما كل مافي العالم عن يمينه ويساره .. كان في وسعه أن يركز حواسه في أمر واحد الى حد يدعو للدهشة . وقد ركزها ـ منذ قدم الى مصر ـ في زوجته وفي حياته الخاصة من

حيث علاقته بها ٠٠ ولم تكن تزعجه شئون الأمم والدنيا كلها ٠٠ الا أنه اعتاد أن يقرأ خطاباته وبعض أشياء أخرى الى جانبها، ومن ثم فقد تناول الرسائل التى وصلته هذا الصباح ، ومضى خارجا الى الشرفة ليلقى عليها نظرة فى الشمس الساطعة ٠٠ وكانت الرسائل تتضمن فواتير ومطالبات ، ورسالة من وكيله فى (اتشنجهام) ، وحوالة من رجل الأعمال الذى يعامله فى القاهرة ٠٠ ثم ـ مرحى ! ـ خطاب من أخيه هارويتش !٠٠ ولم يوح له هذا الخطاب ببهجة كبيرة ، فقد سبق أن تلقى عدة خطابات عائلية لايلوح فيها الابتهاج بزواجه ٠٠ لكن أهله لم يضايقوه الى الحد الذى كان يخشى من قبل أن يفعلوه ٠٠ ولم يكن يتوقع أن ينظر أقرباؤه أو العالم الى الأشياء بعينيه هو ، أو أن يفكروا فى « روبى » بشىء من الرفق أو التسامح من أجل ماضيها ٠٠ كان يعرف دنياه بحيث لم يكن يتطلب منها أمرا لايقبله العقل ، ولكن « هارويتش » سبق أن عبر عن رأيه بحريته المعتادة ، ولا يبدو ان ثمة سببا معينا يجعله يعاود الكتابة اليه سريعا على هذا النحو !

وفتح نيجل الخطاب وقرأه فى سرعة ، ثم أعاد قراءته ، وبعدئذ وضعه على ركبتيه وجذب قبعته المصنوعة من التيل فوق عينيه ، ثم مكث فترةطويلة بلاحراك ، ممعنا فى التفكير٠٠ فقد حمل اليه خطاب أخيه ان «زوى» زوجة أخيه هارويتش ، قد وضعت غلامين توأمين ، وانهما كانا « فى صحة جيدة الى حد يكاد المرء يذهل له ٠٠ مرحى ، مرحى ! » ٠٠ وكان المرح البالغ الذى أبداه هارويتش فى خطابه طبيعيا تماما ، ومن الجائز أن يؤخذ على انه منبعث من المشاعر الأبوية التى حظى بها ، غير أن ابتهاجه انطوى على بارقة من الزهو لم تغب عن فطنة نيجل ، وهى التى جعلته يمعن فى التفكير الآن ٠٠ لقد كان هارويتش مبتهجا لأن ظفره بالنسل قد حجب نيجل وزوجة نيجل عن الميراث ، ولأن مسز ارماين ـ كما أصبح فى وسع

المرء أن يرى ـ لن تكون البتة « ليدى هارويتش » !

ولم يبال نيجل بالامر قط بالنسبة لنفسه ، فمع أن هارويتش كان يكبره بعشر سنوات ، الا انه لم يفكر البتة فى ان يرثه ، ولم يتمن قط ان يرثه ! وعندما تزوج من«روبى» كان يعلم ان زوجة أخيه سوف تنجب طفلا ٠٠ كان يعلم ذلك ، ولكنه لم يخبر روبى به ! ٠٠ ولم يتعمد اخفاء الأمر ، وانما ٠٠ كل ماهنالك أنه لم يخطر بباله أن يخبرها عنه ! أما الآن فان لهجة خطاب هارويتش جعلته يسائل نفسه : هل يسوؤها الأمر ؟!

وسمعها اذ ذاك قادمة الى الحجرة خلفه ، ثم اجتازتها وانتقلت الى الشرفة ، وهى تقول : «نيجل ! هل أنت نائم ؟» ، فهتف : « نائم ؟! فى هذه الساعة ؟ » ٠ وللمرة الأولى خالجت صوته نبرة غير طبيعية ٠٠ كان يغتصب لهجة مليئة بعدم الاكتراث ٠ وقفز من مقعده ، فتناثرت الخطابات على الأرض ٠٠ فهتفت : « أو لم تقرأ خطاباتك فى هذا الوقت كله ؟! » ٠٠ فقال : « لا ٠٠ لم أقرأها كلها ٠٠ حتى الآن على الأقل ! »

وانحنى يلتقط الخطابات من الأرض ، وهو يستطرد : «لقد شغلت بقراءة خطاب من أخى ٠٠ من هارويتش » ٠٠ فرمقته بنظرة حادة ، وقالت : « من اللورد هارويتش ؟ أهى أنباء سيئة ؟ هل اللورد هارويتش مريض ؟ » ، فأجاب : « كلا يا روبى »

ـ ماذا فى الأمر اذن ؟

ـ الأمر ؟ لا شىء ! بل انها على العكس أنباء سارة !

وكانت عيناه ، على الرغم منه ، تحدقان النظر اليها فى تفرس شديد ، بسبب القلق الذى انتابه ٠٠ واستطرد : « لقد ظل اللورد هارويتش المسكين ينتظر طويلا ٠٠وها هو ذا أخيرا قد حصل على ما كان يتوق اليه ! » ٠ فتساءلت : « وما هو ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « طفل ٠٠ أعنى طفلين ، توأمين ! » ٠٠

وران الصمت عليهما لحظة ، وبعدئذ قالت مسز ارماين ، فى ابتسام : « اذن فهذا هو الأمر ! »٠٠فقال : «أجل يا روبى !» ٠٠ وتساءلت : « أبنتان هما ، أم غلامان ، أم بنت وغلام ؟ » ٠٠ وأجابها : « بل غلامان معا » ٠٠ فقالت : « **هنئه نيابة عنى عندما تكتب اليه !** ٠٠ والآن ، اقرأ بقية رسائلك ٠ أما أنا فسأذهب لأتجول فى الحديقة »

وفيما كانت تقول ذلك ، رفعت مظلتها وانطلقت تخطر نحو النيل ، متوقفة بين آن وآخر لتتأمل زهرة أو شجيرة ، أو لتمسك بوردة ريثما تشمها ثم تفلتها فى تراخ وفتور٠٠وساءل نيجل نفسه : « ترى هل يسوؤها الأمر حقا ؟ يا للعنة ! هل يسوؤها الأمر ؟ » ٠٠ ولم يكن محياها قد اكفهر ، ولا صدرت عنها بادرة غضب رغم ارادتها ، ومع ذلك فقد كان فى هدوئها الظاهر نوع من التحفظ والكبت جعل بدنه يقشعر جزعا !٠٠ لقد كانت من البراعة فى قراءة أفكار الناس بحيث انها ولابد قد أحست بالقلق الذى ملأ قلبه ، والرغبة الحارة فى أن يطمئن ويهدأ جأشه ! ٠٠ **لو انها فقط قابلت الأمر فى صراحة ، ولو انها جاءت اليه ولمست يده ، وقالت : « أيها الصديق الحميم العزيز ٠٠ ما الذى يهمنا من الأمر ؟ ما أحسبك تظن اننى عنيت قط بأن أكون ليدى هارويتش المقبلة ؟» ـ أو شيئا من هذا القبيل ـ اذن لتلاشت شكوكه وانمحت الى غير رجعة ٠ ولكنها تلقت الأمر فى برود غير مألوف ، وأقصت الموضوع عن حديثهما فى تعجل أكثر مما ينبغى ٠ ولعل الخطأ ـ مع ذلك ـ خطأه هو ، اذ كان متحفظا معها ، ولم يقل لها كل ما كان يفكر فيه أو أى شىء كان يفكر فيه !**

وبدافع قوى ، أسرع خلفها حتى أدركها عند ضفة النيل ، وهو يصيح : « روبى ٠٠روبى ! » ٠ ولكنها قالت : « انظر ! » ٠٠ فهتف : « ماذا ؟ أوه ! انها ذهبية بارودى وقد ألقت

مرساها هناك ! نعم ، كنت أعرف ذلك ، فقد أراد الفرار من ضوضاء الاقصر ٠٠ روبى ، انك ٠٠ انك لم تبالى بالأمر ٠٠ أعنى هارويتش والغلامين ؟ » ٠٠ فتساءلت : « أبالى ؟! » ٠ وبدا الغضب واضحا فى صوتها بغتة ، ولاح فى عينيها البراقتين وميض قاس وهى تقـــول : « أبالى ؟ ما الذى تعنيه من ذلك يا نيجل ؟ » ٠٠ فقال : « الواقع ٠٠ انك ترين ان ذلك يحدث اختلافا كبيرا فى مركزى من وجهة النظر الدنيوية » ٠٠ وكان ردها : « وهل تظنننى أهتم لذلك ؟ لقد حدست ان هذا ما جال ببالك ٠٠ ولقد أدركت تماما ما الذى كنت تفكر فيه على الشرفة ! »

وكانت فى صوتها نبرة تنم عن الاستياء لما أصاب كرامتها من جرح ! وما لبثت أن أضافت فى نوع من الهدوء والمرارة البالغة : « ولكن ٠٠ أى شىء آخر كان ينتظر أن يخطر لك أو لسواك ؟ » ٠ فهتف بها : « روبى ! » ٠ وحاول أن يمسك بيدها ، ولكنها لم تدعه يفعل ، بل صاحت : « كلا يا نيجل! لا تمسنى الآن ! اننى ٠٠ اننى خليقة بأن أمقتك لو مسستنى الآن ! » ٠٠ وكان وجهها يتقلص فى أسى ولوعة ، والدموع تتردد فى عينيها ، وهى تستطرد : « لست ألومك قيد شعرة ٠٠ ولابد أن أكون حمقـــاء اذا توقعت من أى شخص ـ حتى

انت ـ أن يثق بى ، بعد كل ذلك ٠٠ كل ذلك الذى حدث ! ٠٠ ولكن من الصعب ، بل انه من الشقاء المروع أحيانا ، أن يحتمل المرء هذا الجمود والكفر بامكان وجود أى خير أو نزعة طيبة فى نفسه ! »

واستدارت تبتعد فى عجلة ، ولكنه هتف بها فى رقة وحنان : « روبى ! » ٠ فقالت : « كلا ، كلا ، دعنى وحدى قليلا ! » ٠٠ ثم صاحت به اذ رأته يتبعها : « قلت لك اننى أريد أن أنفرد بنفسى ! » ٠٠ فظل جامدا مكانه فى ممر الحديقة ، يرقبها وهى تمضى حتى دخلت المنزل ، وراح يقول لنفسه : يا لى من حيوان ! لست الا وحشا ضاريا ! ٠٠ وشدد الضغط على قبضتيه ٠٠ كان فى تلك اللحظة يمقت نفسه ، ويتوق الى أن يصارع هذه النفس فيصرعها ويصرع الرجال جميعا معها ٠٠ **أولئك المرتابين فى وجود الخير ، المتشككين والمكذبين للفضائل ٠٠ انهم عوامل التدمير لكل ماهو طيب ونبيل !**

* * *

◆ **أما** مسز ارماين فقد مضت الى حجرتها رأسا ، وأوصدت الباب دون وصيفتها ، ثم استسلمت لعاصفة عنيفة من الحزن والأسى ، كان مبعثها تلك الرغبة العمياء التى دفعت نيجل الى أن يكون صريحا ، وجعلته يلح فى تتبع الأثر الذى خلفته أنباؤه عن هارويتش ٠٠ ذلك لأنها ـ بما أوتيت من دهاء عبقرى قل أن فارقها ـ كانت قد أخضعت طباعها لخدمة الخداع والمخاتلة ، فلما تبينت أن سيطرتها على نفسها قد فارقتها وانه ما من سبيل الى اخفاء سخطها وحنقها ، مضت تربط غضبها بسبب آخر غير السبب الحقيقى٠٠سبب خليق بأن يثير عطف نيجل وحنانه نحوها ٠ **اذ انها ـ فى الوقت الذى كانت تشعر**

فيه نحوه بالمقت والكراهية ـ كانت تلقنه كيف يحبهـا ٠٠ تلقنه ذلك عن عمد وتدبير ! ٠٠ أما عندما خلت الى نفسها ، فقد فارقها تدبيرها ، ولم تعد تبـالى بما قد يحـدثه الحزن والغضب من آثار فى وجهها وهيئتها ، فاستسلمت لهما ٠٠ وكان استسلامها كاملا !

ولم تهبط فى ساعة الغداء ، ولكنها قبيل موعد الشـاى ظهرت ثانية في الحديقة ، وقد بدت عليها السكينة والهدوء ، وان كانت بادية الاعياء الى حد يبعث على الاشفاق ، وفى عينيها لمحة من اللطف ، والتفكير العميق ٠٠ وعندما اقترب نيجل ليستقبلها فى قلق وندم ولهفة ، سألتـه : « متى تذهب الى الدهبية ؟ » ، فأجاب : « ما أظننى سأذهب البتة ٠٠ فلست راغبا فى الذهاب ، بل اننى سأبقى هنا وأتناول الشاى معك » ٠٠ ولكنها ردت قائلة : « لا ٠٠ ليس لك أن تفعل ذلك ، فانى أحب أن أتناول الشاى بمفردى اليوم » ٠٠ وكانت تتكلم فى رفق بالغ ، ولكن مسلكها وعينيها وكل كلمة قالتها ، كانت تأنيبا له وعتابا ! ٠٠ فأجاب : « اذن فسأذهب ٠٠ اذا كنت تفضلين ذلك ! » ٠٠ وغض بصره وهو يستطرد قائلا : « لقد حضر رجال بارودى بالفعل ليصحبونى الى هناك » ٠٠ فقالت : « لقد سمعتهم من حجرتى وهم ينشدون ٠ هيا اذهب ٠٠ ولا تجعله ينتظرك طويلا ! »

وكانت تبدو ـ وهى تنطق بكلماتها الأخيرة ـ كما لو كانت تبذل جهدا واضحا ٠٠ وكأنها كانت تحـاول أن تنهج منهج الغانية اللعوب ، عندما تتلطف فى تدلل آمر الى الرجل الذى تطمئن الى انه يعبـدها ٠٠ ولكنها فى الوقت نفسـه جعلت شفتيها ترتجفان ، بحيث يشعر انها كانت تتصنع موقفهـا تصنعا ! ٠٠ على أنه لم يجرأ على القول بأنه أدرك ذلك ، وانما مضى يجتاز الحديقة الى ضفة النيل ، واستقل « الفلوكة » التى

كانت تنتظره ، وأعمل ملاحوها المجاديف متوغلين فى النهر !
وما كاد يذهب حتى نادت مسز ارماين ابراهيم وأمرته بأن يضع لها مقعدا ومنضدة فى ظل سياج الحديقة الملاصق للحاجز الحجرى الممتد الى داخل النيل ، والذى أقيم ليحول دون تآكل أرض الشاطىء عند الحديقة ·· وقالت : « سأتناول الشاى هنا يا ابراهيم ، فاخبر « حسن » بأن يحضره بمجرد أن تبـــدأ الشمس فى الغــــروب » · فأجاب الفتى ـ « الدائم الشباب والمرح » ـ قائلا : « سمعا وطاعة · وهل يعود ابراهيم ويمكث معك ؟ » ·· فهزت رأسها وهى تنظر فى رفق الى الفتى ، الذى كان قد بدأ يعبدها ، شأن جميع النـــوبيين الذين كانوا فى الفيلا ، وقالت : « ليس اليوم ياابراهيم ، فاننى أحب أن أخلو الى نفسى »··فأحنى قوامه الطويل النحيل وأجاب فى رصانة : « لك كل ماتشائين يامولاتى » · فصاحت به فى حدة مفاجئة : « لا تنادنى اليوم بلقب : مولاتى ! »
ولاح ابراهيم متحيرا ، مبهوتا ، وقد آلمته لهجتها··وعندئذ لمست جبينها وهى تستطرد : « لا بأس يا ابراهيم ! ان رأسى يؤلمنى اليوم ويجعلنى أغضب دون داع ! » ·· فدس احـدى يديه فى ثوبه الذهبى وأخرج منه قنينة من الزجاج مليئـــة بنوع من العطر الأوربى الرخيص ، وقال : « لسوف يشفيك هذا يا مولا ·· يا مس ·· دلكى به رأسك ، فان له رائحـــة جميلة ·· ان رائحته جميلة حقـــا ! » ·· فتقبلت العطر فى ابتسامة شاكرة ، بينما انصرف الفتى مهموما ، ليأمر باعداد الشاى ، وقد ترك رأسه يميل نحو كتفه اليسرى ، وبدا أشبه بكلب أمين يجد نفسه فجأة ـ وعلى غير انتظار ـ غير مرغوب فيه من سيدته ! ·· أما مسز ارماين فقد جلست ساكنة بلا حراك ، وقد قطبت جبينها !
وكان بوسعها أن تسمع غناء أتباع بارودى النوبيين ، وهم

ينحنون فوق مجـاديفهم القوية ، ولكنهم لم يكونوا يرددون أنشودة « الله » التى كانوا يحيونها بها عند وصولها ، والتى يحتمل أن يكونوا قد حيوها بها تنفيذا لرسالة ما أرسلها اليهم سيدهم من الاسكندرية .. كلا ، وانما كانوا يرددون — فى هذه المرة — أغنية خافتة غامضة ، تكاد تشبه همهمـة بعض الأرواح فى النيل ، وتبدو كما لو كانت تعبر تعبيرا غريبا عن حزن أصاب الشمس ! .. فكأنما كانت تكمن فى قلب ذلك البهاء الذهبى قرحة خفية ، كتلك القرحـة من التشكك التى تكمن فى لب كل فرح انسانى ! .. وما لبث النهار أن أخذ فى الاحتضار ، وتلاشت أصوات الملاحين . وأحضر حسن الشاى لسيدته فى الحـديقة — تنفيذا لأمر ابراهيم — فلما فرغ من اعداد المائدة وقف بالقرب منها لحظة ينظر عبر الماء الى دهبيـة بارودى الكبيرة البيضاء ، التى كانت ترسو الى الشاطىء ، على بعد قليل من الحديقة ، عند منحدر النهر .. وكانت تنبعث من عينيه أضواء صفراء ! .. فقالت مسز ارمين : « ماذا تفعل يا حسن ؟ » .. والتفت النوبى الطويل نحـوها قائلا : « ان محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! » .. وعاد يرمق الدهبية من جديد ، ثم تحول الى المائدة الصغيرة ، فحرك أحد الأطباق ، وسوى ثنية فى غطاء المـائدة ، ثم انصرف لشأنه متمهلا فى سيره ..

وراحت مسز ارماين ترشف الشاى وما زال العبوس يعلو أساريرها ، وتتأمل النهر وقد بدأ يفقد لونه الأسمر رويدا رويدا ، فيتألق بادىء ذى بدء بلون الذهب الشاحب ، ثم بذلك الذهب الذى يومض ويلمع كوهج النار .. وكانت دوامات الماء — وراء حاجز الأمواج — ذات لون بنفسجى رقيق ، تبدو وكأنها تختلج بالحياة ! وكان ثمة اشراق عجيب ، يجمع بين البهـاء الروحى والبهاء الحسى ، ويبدو كما لو كان مـؤلفا من عناصر

الروح والمادة معا ٠٠ وكان هذا الاشراق يشع على الدنيا ويضفى عليها وشاحا وضاءا من الحسن ٠٠ وبينما كان لون الذهب يزداد عمقا ، أخذ ينتشر على صفحة النهر ، متجها نحو الاقصر ، زاحفا من البر الغربى للنيل حتى البر الشرقى ، ومن « دهبية » بارودى حتى قدمى مسز ارماين !

« محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! لماذا قال حسن ذلك ؟ وما شأنها هى به ؟ ونظرت عبر النهر الى مركب بارودى العظيمة البيضاء ، التى كانت وقتئذ تتحول الى جوهرة سوداء على ذهب النهر الرجراج ، فخيل اليها أنه كان ساحرا بارعا أدرك حقيقة طبيعتها ، فحاول ان يواسيها ويطيب خاطرها ، بأن ينثر الذهب نحوها نثرا ! ٠٠ وكان ذلك وهما سخيفا بلا شك ، فما لبثت هى نفسها أن ابتسمت منه فى مرارة ! ٠٠ وكانت تكاد تمقت نيجل فى ذلك اليوم ٠ بل انها كانت تكرهه بالفعل – عندما غادرته فى الحديقة قبل الغداء – لما بدا منه من بعد عن روح رجل الدنيا ، ومن سذاجة الأطفال ومكرهم ٠٠ فما من ريب فى انه كان يعلم ، بل لابد انه كان يعلم ان زوى هارويتش كانت حاملا ٠٠ لابد انه علم بذلك عندما خرج مع أخيه للصيد فى الخريف ٠٠ ومع ذلك فانه لم يقل لها كلمة واحدة عنه ، وها هو ذا الآن قد أقصى عن الميراث ٠٠ ولعله ماكان ليرث أخاه البتة ، ولكن الفرص كانت فسيحة لأن يرثه ، ولأن يأتى اليوم الذى تتبوأ فيه المجد ، بوصفها : « ليدى هارويتش » ! ٠٠ وكان هذا الأمل هو الذى مال بها الى ناحيته ، وهو الذى كان له أكبر الشأن فى الدور الذى لعبته فى لندن ، لتكسب نيجل زوجا لها ! ولو ان ما أصبح الآن حقيقة واقعة كان حقيقة واقعة منذ أسابيع قليلة ، فهل كان يخطر ببالها قط أن تدبر الخطط للزواج منه ؟ وهل كانت مثل هذه الصلة « تستحق منها العناء » ؟!

ألا ما أعظم فرحة الليدى هايمان وعشيرتها بأجمعها ! تلك العشيرة التى دللت واحتفت بمسز تشبستو يوما من الأيام ، وقلدتها لقب « بيللا دونا » ‥ (ست الحسن) ! ‥ أجل ما أشد فرحتهم اليوم ! انها تكاد تسمع الآن ـ وهى فى مجلسها هذا على ضفة النيل ـ ما يقولونه : «شكرا لله ان خاب فأل هذه المرأة وراح سعيها هباء » ! ‥ « ما أشد غيظها وسخطها الآن وقد رزق هارويتش بغلامين ! » ‥ « ما أشدها لطمة على وجهها بعد أن اقتنصت نيجل ارماين الأبله ! » ‥ لا ريب فى ان مئات من النساء يبتسمن فى هذه اللحظة لخيبة رجائها البشعة ‥ وربما ابتسم مئات الرجال كذلك . فما كان فى وسع أى أحد أن يصدق انها تزوجت نيجل لشخصه ، ولأنها أحبته بصدق واخلاص وعاملته فى صراحة وأمانة ‥ كان من الطبيعى انها لم تشغف به حبا ، فالواقع انه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذى يمكن أن تهيم به امرأة فى مثل طبيعتها ومزاجها ! **صحيح انها مالت اليه قبل أن تتزوج منه ، بل وأحست نحوه بجاذبية جسمانية ، ولكن هذه الجاذبية الجسمانية ـ وهى مجرد نزوة عابرة لامرأة متقلبة الأهواء عظيمة الخبرة ! ـ سرعان ما فقدت طعمها وبهجتها ، ولسبب لو عرفه نيجل لكان طعنة نجلاء فى قلبه !**

وما كانت لتستطيع احتمال حبه للمثل العليا ، وغريزته فى البحث عن الخير المكنون فى الرجال والنساء ، ورغبته الخفية ـ فيما يتعلق بها بصفة خاصة ـ فى التقدم الخلقى والمعنوى ! ‥ ولقد كانت تدرك ان هذه الصفات قائمة فيه ، ومن ثم كان فى وسعها أن تبغضها ، ولكنها كانت عاجزة حقا عن فهمها رغم ذكائها ‥ فقد كان هذا الذكاء من نوع يفهم الرذيلة على نحو أوفى وأتم من فهمه للفضيلة ‥ **ومع انها كانت تستطيع أن تنتحل الفضيلة ـ كما أثبتت فى لندن بمسلكها الذي مكنها**

من اقتناص نيجل ـ الا انه لم يكن فى وسعها أن تتعلم كيف تفهم حسن هذه الفضيلة أو تنعم بدفئها ونورها ٠٠ فقد كانت ـ من الناحية الخلقية ـ عاجزة ! ٠٠ وكانت الهـوة الواسعة التى تفصل دائما بينها وبين زوجها ، هى أنه لا يعترف مطلقا بوجود عجـز خلقى ٠ ومن ثم فلا بد من أن يسىء فهمها الى الأبد ، لأن براعته فى قراءة الشخصية والأخلاق كانت أقل ارهافا من براعته فى الحب ! ٠٠ هذا فى الوقت الذى كانت تضم فى أعمق أغوار نفسها تلك الرغبة التى لابد من وجودها ـ نشيطة أو خاملة ـ فى كل المخلوقات الآدمية ٠٠ الرغبة فى أن تكون مفهومة لدى الغير ، وأن تكون معروفة على حقيقتها ٠ أجل ، كانت لديها هذه الرغبة ، برغم انها كانت على استعداد لأن تمثل أى دور من أدوار الغش والخداع ، وبرغم انها كانت نادرا ما تظهر على حقيقتها !

لقد كان نيجل على علم بأن «زوى هارويتش» كانت ترتقب مولودا ، ومع ذلك فانه لم يطلعهـا قط على ذلك ! ٠٠ راحت هذه الحقيقة تتردد فى ذهنها مرة تلو الأخرى ، وهى جالسة تتأمل الغروب ٠٠ بل انها لم تكف عن التردد منذ الصباح ، ولم يقو غضبها العنيف على أن يخمد الصوت الملحاح الذى لم يكل عن ترديدها ٠٠ بل ان هذا الصـوت عمد فى اللحظات الأولى لغضبها وشعورها بالمرارة الى أن يضـيف : « وسوف يدفع لى نيجل ثمن هذا ! » ٠٠ ولكنه كف عن اضافة هـذه العبارة الآن ، ولعل ذلك كان راجعا الى ان غضبها الضـارى خلف بها اعياء ٠٠ وفطنت الى انها كانت تدفع بهذا الاعياء ثمن غضبها المشبوب ، وان نيجل قد يضطر الى أن يكفر عن ذلك ! ٠٠ فلقد كان راحلا الى (الفيوم) بعد يومين أو ثلاثة ٠٠ وشد ما تمنت أن يكون رحيله الليلة ، وأن لا تضطر الى مصاحبته ، ولا تحتاج الى أن تمثل دور المرأة الطيبة أو المرأة

التى تولدت الطيبة فى نفسها ، بعد أن أنهكها الضنى وأرهقها الغضب !

وكان الشاى قد أمسى أسود اللون لطول بقائه ، فصبت لنفسها قدحا آخر شرعت ترتشفه دون أن تضيف اليه شيئا من اللبن أو السكر ، فاذا به لاذع ، قابض ، كريه المذاق فى فمها .. ولكنه أزال ما بها من كلال ، فكأنما أزاح الأستار عن شبح واضح المعالم يخطو الى الضوء عاريا .. انه نفسها على حقيقتها ، فى غير كلال أو حياء ! .. لسوف يدفع نيجل حساب ذلك كله يوما !

وكان اللون الذهبى قد انحسر عن النهر فى تلك الأثناء ، فتحول لون الماء الى لون الفضة المذابة ، ثم الى لون الفولاذ .. وانبعث من « الدهبية » ـ التى بدأت تبدو وكأنها تتباعد متراجعة أمام مسز ارماين ـ أضواء حمراء وزرقاء .. وكانت أصوات الفلاحين السمر لا تزال تنبعث حارة ـ غير كليلة ـ وهم عاكفون على الشواديف ، على امتداد النيل .. وكانت أذنا مسز ارماين قد ألفتا هذه الأصوات فى الأيام الأخيرة ، الى درجة جعلت من العسير عليها أن تصدق انها ـ منذ زمن قصير ـ لم تكن قد سمعتها قط ، ولا أحست بتأثيرها العجيب ، وقوتها الجارفة التى تمتزج بقوى أخرى من الشمس والهواء ، فتثير نفوس الرجال والنساء نحو الرغبة فى مباهج خشنة ، بل ـ فى بعض الأحيان ـ فى ملاذ قاسية وحشية ! .. أما وقد أخذ ضوء النهار فى الذبول والتلاشى ، فان تلك الأصوات القوية البدوية الحزينة لم تعد تبدو منبعثة من حناجر المصريين الكادحين المكدودين ، وانما بدت منبعثة من حنجرة هذه الأرض التى كانت تجمع بين الخرائب والذهب ، حيث انبسطت الخضرة اليانعة الى جانب الرمال الصفراء ، وحيث كانت القنابر تصيح فى الصباح بينما يعوى ابن آوى بالليل !

ظلت مسز ارماين تصغى طويلا ، وهى جامدة فى مقعدها بلا حراك ، ولكنها تململت فجأة ، ثم انبعثت قائمة وانفلتت مسرعة نحو المنزل ٠٠ كان نيجل عائدا أدراجه ، اذ انها سمعت أصوات ملاحى بارودى النوبيين ، مختلطة بأصوات رجال الشواديف ٠٠ وما أن بلغت المرأة المنزل ، حتى بادرت بالصعود الى مخدعها توا ، وأغلقت بابه خلفها ، ثم وقفت الى جوار نافذة مفتوحة تطل على شرفة فى مواجهة النيل ٠٠ وكانت أصوات رجال الشواديف قد صمتت تماما ، فقد حان وقت راحتهم مع هبوط الليل السريع ، ومن ثم أسرعوا الى ارتداء جلابيبهم التى امتزجت فيها الحمرة بالزرقة وانصرفوا يمشون الى قراهم ٠٠ بينما اقتربت الأصوات الأخرى رويدا ، وهى تردد أنشودتها الدينية فى همهمة عميقة أكثرمنها شدواً وغناء بينما قامت المجاديف بدور « ضابط الايقاع » !

وخيم الظلام ، وسكنت الأصوات ٠٠ ومالت مسز ارماين الى الأمام ، وهى تستند باحدى يديها على اطار النافذة ، وأسنانها الناصعة تتألق فوق شفتها السفلى ٠٠ فقد سمعت فى الحديقة صوتين يتحدثان وهما يسيران نحو المنزل ٠٠

وما لبثت مسز ارماين أن ارتدت عن النافذة ، وهتفت : « مارى ! مارى ! » ٠٠ فأقبلت الوصيفة تعدو ، وهى تقول : « هأنذى يا سيدتى ! ماذا تريد السيدة ؟ » ٠٠ فأجابت مسز ارماين : « أريد أن أبدل ثيابى » ٠٠ فتساءلت : « هل تود السيدة أن ترتدى ثوب السهرة ؟ » ٠٠ ولكن السيدة قالت : « لا ، فلن نتناول العشاء قبل ساعتين » ٠٠ فتبدت الحيرة على الوصيفة وقالت : « اذن ٠٠ يا سيدتى ؟ » .

ـ لا تتكلمى كثيراً ٠٠ احضرى لى ثوبا أبيض ٠٠ ذلك الثوب من التيل الأبيض الذى اشتريته من محال (باكان) ، ولم أرتده قط ٠٠ واحضرى لى ٠٠٠

و مضت تصدر أوامرها بشأن الجوربين والحذاءين ، ثم ذهبت الى حجرة الزينة حيث وقفت أمام المرآة تتفحص وجهها فى عناية وامعان ٠٠ وما لبثت أن خلعت القبعة التى كانت تضعها على رأسها ٠ ثم هتفت بعد لحظة : « أوصدى باب حجرة النوم والباب المؤدى الى حجرة السيد » ٠٠ فقالت الوصيفة : « حسنا ياسيدتى ! » ٠٠ وراحت توصد الأبواب ، وهى تغمغم : « رباه ! هل أصابها جنون ؟! ماذا دهاها ؟ لا يوجد أحد هنا ، ولن يأتى أحد ما ٠٠ ففيم كل هذه الجلبة ؟ » ٠٠ وعادت السيدة تقول : « اخرجى القبعة البيضاء ، وباقة القرنفل الأبيض الصناعية ! » ٠٠ وغمغمت الوصيفة : « آه ، يا الهى ! »

ـ هل سمعت ؟ القبعة البيضاء و ٠٠٠

ـ لقد سمعت يا سيدتى ، لقد سمعت ! ٠٠ أوه ، لا ٠٠ لا!

فصاحت مسز ارماين : « اذن فعجلى ! » ٠٠ فقالت الوصيفة : « سمعا يا سيدتى ٠٠ حسنا جدا ! » ٠٠ وانطلقت تعدو لتحضر القبعة ، بينما أشعلت مسز ارماين جميع الشموع ، وجلست أمام المرآة ٠٠ وتذكرت رغبة نيجل التى أبداها اليها فى صباح اليوم ذاته اذ سألها أن تكف عما «تفعله بوجهها» ٠٠ حسنا ! ستستجيب الى رغبته على هذا النحو : ففى مهارة وعناية بالغتين ، مضت تذر «البودرة» على وجهها ، وتظلل عينيها ، وترسم حاجبيها الرفيعين فى براعة ! ٠٠ وأقبلت الوصيفة عند باب حجرة الزينة قائلة : « كل شىء معد يا سيدتى ! » ٠٠ واذا بها تنتفض مجفلة ، وتدور على عقبيها : فقد طرق باب حجرة النوم فجأة ، وانبعث صرير المقبض وهو يدور ٠٠

وأسرعت مسز ارماين تقبض على ذراعها فى شدة ، وتهمس : « صه ! لا تنطقى ! » ٠ فوقفت الفتاة فى مكانها جامدة بلا

حراك ، تحملق فيما أمامها وتعجب مما يدور حولها ، على حين ذهبت سيدتها فى هدوء الى حجرة النوم ، دون أن يند عنها أى صوت ، وجلست على الجانب الاقصى للفراش ، ثم اضطجعت الى الخلف حتى شارف رأسها الوسائد ، وهى تحرص كل الحرص على ألا يمسها ٠٠ وانبعث صوت من خارج الباب :
« روبى ! روبى ! »
ـ ماذا جرى ؟ من هناك ؟ من هناك ؟
وكان الصوت الذى أجاب خافتا ، تنطق نبراته بالدهشة :
« أنا ٠٠ نيجل ! » ٠ فاستوت مسز ارماين جالسة ، وقالت :
« ماذا جرى يا نيجل ؟ اننى نائمة ! »
ـ آه ! اننى ٠٠ اننى آسف اذا كنت قد أزعجتك ٠ ولكن ٠٠ ما أحسبك مريضة !
ـ كلا ، اننى أستريح قليلا ٠٠ ماذا هناك يا نيجل ؟
ـ لقد أحضرت بارودي الى هنا ليراك ويرى الفيلا ، وليتعشى معنا الليلة !
فهتفت : « أوه ! حسنا » ٠٠ وكأنما اشتم فتورا فى ردها ، فتساءل : « ما أحسبك تتضايقين يا روبى ؟ » ٠٠ وكان صوته المتسلل من خارج الباب قد غدا شديد الخفوت ٠٠ فهمست بدورها : « اهبط اليه ، واعن به ٠٠ سوف آتى حالا ! » ٠٠ وانبعث صرير المقبض من جديد وهو يتركه من يده ٠٠ ولكن لحظة انقضت دون أن ينبعث خلالها لقدميه وقع ينم عن ابتعاده ٠٠ وما لبث صوته أن عاد هامسا : « اسمعى يا روبى ٠٠ اذا ٠٠ » ٠ ولكنها صاحت : « اذهب الى الطابق الأسفل ، وسأحضر للتو ! »
فمضت الخطوات نحو الدرج ٠٠ واذ ذاك هتفت مسز ارماين بوصيفتها : « البسينى الثوب حالا ٠٠ لا ، انتظرى ، ابدلى الجوارب أولا ٠٠ » ، فركعت مارى سريعا على الأرض ، واذ أحنت رأسها ، أخذت تبتسم ٠٠ فلقد بدأت تفهم !

الفصل الرابع عشر

◆ عندما دخلت مسز ارماين حجرة الجلوس الصغيرة وجدتها خالية ، ولكنها اشتمت رائحة السيجار ، وسمعت غمغمة الأصوات فى الخارج بالقرب من الشرفة .. وكان من الجلى ان الرجلين يمشيان ذهابا وجيئة فى الحديقة ليستمتعا بنسيم المساء الرقيق .. فلم تخرج اليهما للتو ، وانما وقفت وهى تنصت الى صوتيهما

آه ! انهما يتحدثان عن الفيوم .. فلا شك اذن أنهما يناقشان بعض شئون الزرع والغرس وفلاحة الأرض ! .. وكان يخيل اليها ان وجهها فى هذا المساء قد احتفظ فى بشرته بأثر من آثار انفجارها العاطفى فى الصباح ، كأنما تحول الجفاف والخشونة من طباعها الى بشرتها وانتشرا فوق جلدها فافقداه مرونته الطبيعية ! ومع ذلك فانها قبل أن تغادر حجرة النوم مباشرة ، صاحت بها مارى فى نوع من الاعجاب يخالطه التحفظ : « ان السيدة رائعة الليلة ! » .. وراحت تسائل نفسها : هل قالت الوصيفة الحق ! .. فما ان ازدادت الأصوات فى الخارج خفوتا وبعدا لحظة ، حتى مضت لتقف أمام احدى المرايا، وتلقى على نفسها نفس السؤال ! .. وكانت قد انتقت لملبسها ثوبا للخروج بدلا من ثوب استقبال عادى ، اذ كانت تعتقد انها تبدو فيه اصغر سنا ! كما كان قوامها الجميل لا يزال احدى مميزاتها العظيمة ! اجل ، كان قوامها ساحرا ، وكان هذا الثوب يبرزه اكثر فتنة واشد سحرا ! .. وكان السكون الطويل الذى صاحب عيشتها الخاملة فى لندن ، عندما عرفت نيجل – وما تلا ذلك من راحتها النسبية فى جو مصر الجميل – قد اتى بالعجب العجاب فى

شكلها ومظهرها ٠٠ وما من ريب فى انها الليلة ـ برغم ما احدثه استسلامها دون وعى للغضب من آثار ـ تبدو اصغر باعوام كثيرة مما كانت تبدو فى حجرة الاستشارة بمنزل ايزاكسون : كانت الغضون حـول عينيها لا تكاد تظهر ، او هى لم تكن تظهر على الاطلاق ٠٠ كما كانت ناصعة البياض الى حد عجيب ٠٠ والشرقيون يستطيبون البياض الناصع ! وهم دائما يتصـورون الغربيين اصغر سنا باعوام عما هم عليه حقيقة ، اذا كان هؤلاء قد نجحوا فى الاحتفاظ بشىء من سـحر الشباب ! واذن ، فلم تكن مارى قـد جانبت الصواب !

واستدارت مسز ارماين وخطت مغادرة الغرفة الى الشرفة ٠ واذ تقـدم الرجلان للقائها ، قالت فى نوع من التراخى الساحر ، وعدم الاكتراث : « آه ! محمود بارودى ! اذن فقد اتيت الى الجنوب لتعنى بامر ٠٠ ترى ما هو ؟ ذلك الشىء الذى لك ٠٠ السكر الذى تمتلكه ؟ » ٠ فاجاب فى رصانة وهو ينحنى فوق يدها : « السكر الذى امتلكه ٠٠ اصبت يا سيدتى ، وارجو ان تصفحى عن تطفلى ، فقد شاءت رقة زوجك ان يصر على احضارى الآن ، وانا فى هذا الثوب من قماش الفانلا » ٠٠ وكان اعتذاره هادئا رزينا الى ابعد الحدود ، ولكن نيجل كان يبدو منفعلا بعض الشىء ، بل قلقا ، وكان يستجدى بعينيه الصفح عما سببه من مشكلات فى الصباح ! ٠٠ ولكنها لم تكن تبدو راغبة فى ان تمنحه هذا الصفح بعد ٠٠ وهكذا كانت رقيقة معه ، تتحاشى نظراته هذه دون ان تبدو انها قد تحاشتها عن عمد !

واخذوا يتجولون برهة ، ويتبادلون احاديث خفيفة فى غير موضوع معين ، حتى قالت مسز ارماين موجهة الخطاب لزوجها مباشرة للمرة الأولى : «نيجل ! ٠٠ الا ترى من المستحسن ان تذهب وتخبر حسن باننا سوف نكون ثلاثة على مائدة العشاء ، ثم تتحدث قليلا الى الطاهى ! ان لغتك العربية قد تكون اشد تاثيرا على الخدم من انجليزيتى ! وسوف نجلس انا ومحمود بارودى فى الشرفة حتى تعود ثانية » ٠٠ فاجاب نيجل : « اصبت ! » ٠٠ ومضى لتوه ، وتركهما معا ٠٠ فما ان انصرف حتى جلست مسز ارماين فى مقعـد من الخيزران ، ومكثت برهة لا تقول شيئا ٠٠ ولكن اساريرها تبدلت فى هذه اللحظة من الصمت ، فتلاشت البساطة والسمة الطبيعية المتراخية تدريجيا ، لتكشفا عن التوثب والاغراء اللذين تحذقهما الغانية المدربة ! ٠٠ بل ان جسدها لم يخل من التغيير ، فقد غدا اشد حساسية ، واكثر يقظة وشـعورا ، تحت عينى بارودى ! واستيقظت فجاة كل احاسيس المراة فيها ٠٠ تلك الأحاسيس التى كانت حتى الآن ـ عدا القليل من دلائل الحياة العابرة الغامضة ـ ترقد ساكنة جامدة فيها،وراحت تشير فى جراة لتجذب انظار هذا الرجل الذى كان يجلس غير

بعيد عنها ، يحدق النظر اليها فى صراحة ورصانة شرقيتين .. ومع انهمـا تبادلا الحديث قبل الليلة ، عندما كانا على ظهر السفينة ، الا ان هذه كانت اول مرة ينفردان فيها ..

وكانت عينا مسز ارماين - الليلة - تحدثان باردوى فى وضوح بانها قد اعجبت به ، بل انهما كانتا تحدثانه باكثر من هذا .. بان صاحبتهما كانت تريده على ان يعلم ذلك ! ولقد تقبل اعجابها ، فما لبثت أن تلقت منـه ردا جريئا .. اذ سرعان ما فطن الى ان التغيير الذى اصابها كان شبيها بالتغيير الذى اصابه ، فان علائم العزم القوى الصريح التى كانت ترتسم فى وجهه ، والتى كثيرا ما استمالت نيجل اليه ، كانت تختلط الآن بشىء اكثر حـدة - كانه من الدهاء والمكر - وبنوع من الاستهتار الذى كان فى وسعها ان تفهمه وتقدره احسن تقدير ! .. وفيما كانت تنظر اليه فى ظلمة الليل المتجمعة ، تبينت ان فى اعماقه اكثر من رجل .. فهناك بالتاكيد قاطع طريق لا ينطوى على شىء من الخوف ، ولا على كثير من الرحمة .. فمضت تقارن قاطع الطريق هذا بنيجل .. وما لبث الرجل أن سالها : « كيف وجدت مصر يا سيدتى ؟ هل احببت بلدى ؟ »

وانحنى قليلا الى الأمام وهو يحطم اخيرا ذلك الصمت الذى ران عليهما ، فجذبت حركته هذه ومظهره الحالى انتباهها الى كتفيه القويتين العريضتين ووضع راسه الذى يستوقف الأنظار ، ذلك الوضع الذى لو كان اقل جراة مما هو لكان خليقا بان يمس النفس بشهامته !

- هل رأيت كل الأشياء المشرقة فى طيبة والكرنك ؟

- نعم ! لقد كنا سياحا بحق ، فذهبنا الى بهو الأعمدة والمقابر ، والمعابد .. وتعشينا فى ضوء القمر على قمة البوابة فى الكرنك ، وشهدنا غـروب الشمس من الدير البحرى

فسالها : « والشروق ؟ » .. فاجابت : « لم نره من اى مكان .. فانى افضل النوم حتى الضحى » . فعاد يسالها : « وهل تهتمين بكل هذه الأشياء : المقـابر ، والمعابد ، والمومياءات ، يا سـيدتى ؟ هل استمتعت بحياتك فى مصر ؟ »

وتمهلت قبل ان تجيب على هذا السؤال .. انها كثيرا ما استمتعت برحلاتها مع نيجل فى ذلك المرح الوضاء المتدفق الذى يبعثه جو الاقصر الساحر .. رحلات الغداء فى الهواء الطلق ، او بين جدران الخرائب العظيمة ، ونزهات على الأقدام فى الممرات السمراء المستقيمة بين الحقول الخضراء المتماوجة ، التى تصيح القنابر فوقها ، ويطير منها الحمام البرى ليؤلف السحابة الوحيدة فى موكب النصر المكون من الذهب ومن الزرقة ! ثم ذلك التسلق لمسافات طويلة

على المرتفعات – فى ممرات مرقطة كلون النمر – الى القمم العالية ، حيث اتخذت الشمس مملكتها منذ بدء الخليقة ٠٠ ثم الهبوط منها عندما يبدأ النهار فى الاضمحلال ، وعندما يمضى الفلاحون نحو بيوتهم تحت ظلال النخيل الشبيهة بالمخمل الأسود ، والغبار الذى تثيره اقدامهم السمر الحافية ، يتصاعد فى دوامات حلزونية صوب ضوء الفسق الداكن ٠٠ وقد استمتعت مسز ارماين كذلك بالعشاء فى (الكرنك) تحت أشعة الهلال الوليد الباهتة ٠٠ فقد كانت لا تزال تملك القوة على الاستمتاع ، كما كان لديها كثيرا من ذلك النشاط الجسمانى الذى تمتاز به المراة الانجليزية العادية ، التى تالف الهواء الطلق ، وتحس براحتها فوق صهوات الجياد ! وكانت مصر شيئا جديدا كل الجدة بالنسبة اليها ٠٠ شيئا جديدا يجلب الصحة والشعور بالشباب ! ومع ذلك فقد تمهلت قبل ان تجيب !

لقد كانت تحس فى أعماق نفسها ، طوال تلك الأيام التى كانت تتذكرها ، بانها كشخص يمشى فى موكب نصره ٠٠ كانت فى نشوة من الطرب «للصفقة» التى ربحتها فى الوقت الذى كانت فيه حياتها تنحدر نحو خريف العمر ٠٠ نشوة من الطرب للطمة التى وجهتها الى مجتمع كان يحتقرها ويطردها من نطاقه ٠٠ وكانت هذه النشوة قد لونت ايامها بالوان بهيجة ، ولكنها أدركت الآن – بغتة ، وعلى غير توقع – انها كانت تعيش فى نعيم المجانين ، الذى قادها نيجل اليه ! ٠٠ وقد القى هذا الادراك ظلا كثيفا على الأيام التى مرت بها فى مصر ، ومحا اشراق تلك الأيام ، ومرحها ، وتالقها !

وأجابت اخيرا : « كل الاستمتاع ! وهل تهتم انت بمثل هذه الأشياء ؟ »

٠٠ فهز كتفيه العريضتين ، قائلا : « سيدتى ٠٠ ما انا بسائح ! وماذا تريننى فاعلا فى هذه المعابد بين الخفافيش ، وفى هذه المقابر التى يكاد المرء يشم منها رائحة الموتى ؟٠٠ انك لا ينبغى ان تبحثى بيننا نحن المصريين عمن يهتم بهذه الأشياء ، بل اذهبى الى هاته العذارى الانجليزيات العوانس – هل الأمر كذلك حقا ؟ – هاته العذارى اللواتى يرتدين قبعات عالية من الفلين على شعورهن الشيباء المرجلة بهذا الشكل ! » ٠٠ ورفع يديه السمراوين متظاهرا بانه يرتب شعره خلف رأسه ، ثم استطرد : « واللواتى يربتن على راس الترجمان الذى يجلس عند اقدامهن ويخبرهن بآلاف الأكاذيب ! أو اذهبى الى هؤلاء الأثريين ذوى الأجسام النحيلة ، والأنوف الحمراء ، والرؤوس المجردة من الشعر تماما ، الذين يقومون بحفرياتهم بحثا عن المومياءات، بينما زوجاتهم ٠٠ آه ، حسنا !٠٠ ما كان ينبغى أن اقول ذلك ، ولكننا معشر المصريين اوتينا اشياء اخرى خيرا من الذهاب الى ابى الهول والتحديق فى وجهه ! لقد كنا نراه دائما ، ونحن نعلم انه هناك فى موضعه ، وانه لن يركن الى الفرار !

ومن ثم فاننا نفضل ان نستمتع بحياتنا ما استطعنا ، والا نشغل انفسنا بهذه الاشياء ٠٠ فهل تجدين فى مسلكنا ما يستحق اللوم ؟ »

ـ كلا ٠٠ اننى لا الوم احدا البتة على الاستمتاع بحياته !

وكان فى هيئته ولهجته ، بل وفى مسلكه ، شيء ما يكاد يشبه الغطرسة المغلفة بغلالة من قلة الاكتراث ٠٠ ولعلها كانت تستنكر ذلك وتغضب منه ، اذا بدر من شخص اوروبى ٠٠ اما منه هو ، فانها لم تستنكره ولم تغضب منه ٠ وليس ذلك فحسب ، بل انه اجتذبها واستمالها ، فقد كان يبدو ان هذه الغطرسة تنبعث ، بحق ، من قوته العظيمة ، ونظراته الجريئة الصريحة التى تتواثب فى عينيه ، وفى شبابه ، وفى الدم الشرقى الذى يجرى فى عروقه ٠٠ ان مثل هذا الرجل لا بد وان يشعر بعتوه وجبروته ، وان عنى اشد العناية باخفاء ذلك !٠٠ ولماذا لا يظهر لها شيئا من حقيقته الكامنة فى اعماقه ؟ وقبل ان تفكر فى الجواب ، استطرد الرجل يسألها : « ولا على اية طريقة يسلكها للاستمتاع بحياته يا سيدتى ؟ »

وازداد انحناء الى الأمام ، وهو يضع يده الكبيرة على خده ، ثم يهبط بها الى عنقه الجميل ، واضعا اصابعه داخل ياقته الرخوة المزدوجة ، بينما كان يحدق فى عينيها ٠٠ فقالت : « اننى لم اقل ذلك ! » ٠ فسالها : « وهل تبالين كثيرا بما يمكن ان تكون عليه الطريقة اذا ما ادت الى الاستمتاع ؟ » ٠ ولكنها بدلا من ان تجيب سالته : « وهل تبالى انت ؟ » ، فاجاب : « أنا ؟! لا ، بكل تاكيد ! ولكنى ٠٠ اننى لست مثل مستر ارمين ! » ٠٠ واخطا قليلا فى نطق الاسم ٠٠ فقالت : « مستر ارماين ؟٠٠ ما شانه ؟ » ٠٠ فقال : « الا يعتقد ان هناك بعض أشياء يجوز للمرء ان يفعلها ، وان الكثير من الأشياء لا ينبغى له ان يفعلها ؟ ان كل الانجليز كذلك ! آه ٠٠ يا الهى ! لو ان احدا فعل شيئا يرونه خطأ ، فيا ويله ! »

ورفع يده عن عنقه ، ثم هوى بها على ركبته ، وهو يستطرد مبتسما ، وما زالت عيناه تنقبان فى عينيها : « لعمرى ، ان ذنبه اذ ذاك ليبدو اسوأ من اكل لحم الخنزير فى نهار رمضان ، فى نظر الرجل المصرى ! » ٠٠ فسالته : « هل تبغض الانجليز ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « ما الذى ينبغى ان اقوله ؟ » ، فاجابت : « قل الحقيقة ! » ٠٠ واذ ذاك قال : « اما السيدات الانجليزيات فاعتقد انهن لطيفات ! » ٠ فقالت : « والرجال الانجليز ؟ » ٠ واجاب : « آه ! انهم جميعا ٠٠ رفاق طيبون ! » ٠٠ ولفظ الكلمتين الأخيرتين بلهجة من الازدراء الساخر لا يمكن وصفها ، ثم قال : « آه ! انهم جميعا ٠٠ رفاق طيبون ! الا تظنين ذلك ؟ »

ـ ولكن ما معنى هذا ؟

ـ فتيان ظرفاء يا سيدتى !

ثم جلس معتدلا ، ودفع صدره الى الامام وراح يطرقه قائلا : « بولبيف .. بودنج بالبرقوق .. رفاق لطف ، وحكام ! »

ـ لا ينبغى أن تضحك من مواطنى !

ـ اضحك ؟ معاذ الله ! ولكن هل لى أن ابتسم فقط ، بركن واحد من فمي؟!

وكشف عن صفين من الاسنان الصغيرة المستقيمة الناصعة البياض ، التى كانت تبدو من القوة بحيث يمكن ان تعض قضيبا من الحديد ! ثم تابع القول : « ان الرجل الانجليزى يحكمنا فى مصر .. وهو لا يفتا يقول اننا الحكمون ، بينما يظل هو الحاكم الحقيقى ! وهو طالما يحكمنا فانه يحتقرنا يا سيدتى ، ويستخف بنا .. انه يظننا أطفالا بلهاء ، ولكننا احيانا نبتسم له ، ولو انه بطبيعة الحال ـ لا يبتسم لنا البتة ، خشية ان تكون الابتسامة الواحدة كافية لأن تجعلنا نظن فى انفسنا اننا لسنا دونه بكثير ! انه خطا جسيم منا ، ولكن الله يسمح لنا ، بطريقة ما ، بان نبتسم ، وعندئذ ... » ، وعاد ينحنى الى الأمام ، وقد انبعث صريف مقعده فى الظلام ، وهو يستتلى قائلا : « عندئذ نجد بعض النساء الانجليزيات اللواتى يحببن أن يريننا نبتسم ! بل ان البعض منهن يبتسمن معنا خلف ظهر الرجل الانجليزى ! »

كان يتكلم فى هدوء ، وفى نوع من السخرية الغامضة ، ولكن دون اية بادرة من المرارة .. غير انه خفض صوته قليلا وهو ينطق بكلماته الأخيرة : «فهل ترين ذلك خطا جسيما منهن يا سيدتى ؟ ماذا تقولين؟ هل تحتقرينهن؟»

ولم تجب بكلمة ، ولكن شفتيها المصبوغتين المتحركتين كانتا تختلجان ، وكانها كانت تحاول أن تكبح الابتسام ، ولكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح، بينما عاد الرجل يقول : « هل تحتقرينهن اذا كن يبتسمن .. اذا كن يبتسمن .. أليس ذلك مشينا يا سيدتى ؟ » . وكان يبتسم فى عينيها ، فقالت : « انه لعار عظيم ! وانا احتقر النساء المخادعات ! » . فقال : « ومع ذلك فمن ذا الذى لا يخادع ؟ كل انسان ، عدا .. الرفاق الطيبين ! » .. ثم دفع براسه الى الوراء وهو يضحك ، بينما كانت هى تنظر الى عنقه المكتنز .. ثم قالت : « انك ما تحدثت قط على هذا النحو ونحن على الباخرة ؟ » . وكان جوابه : « سيدتى .. اننى لم اكن وحيدا معك قط .. فكيف كان يمكن ان اتحدث على هذا النحو ؟ كنت اذ ذاك اتعرض لأن يساء فهمى ! »

ولقد كان فى مسلكه هذا ، لا فى عينيه فحسب ، وفى اتخاذه هذا النوع من الالفة نحوها ـ وهى الفة استبعد منها نيجل وامثال نيجل ـ قحة بالغة واضحة، تلطم مسز ارماين وتتحداها ، وكانها قفاز القى فى وجهها !.. أتراها كانت تسخط وتحنق من ذلك لو انه حدث بالأمس فقط ؟.. ما كان بوسعها

ان تدرى ، ولكنها الليلة كانت على استعداد للترحيب بهذه الفحة ، اذ كانت الليلة تمقت نيجل وتبغضه •• ومع ذلك فقد كان لبارودى ، بغض النظر عن غضبها الشخصى من زوجها ، تاثير قوى واضح عليها •• وقد أحست ـ وهى التى تدرك دائما بعينيها ـ بما كان فيه من حب السطو وقطع الطريق ! أفلم تكن هى نفسها قطعة طريق ؟ كم من رجال حق بهم الدمار ، كانوا يملكون الاجابة عن هذا السؤال ؟! ولقد كان فى هـذا الرجل نبع لا ينفد من القوة والحمية والنشاط •• كان يشع حوله جوا خارقا للمألوف من القوة البدنية ، المصحوبة بقوة عقلية كأنها ذرات الغبار المتطايرة فى شعاع من النور !

ولقد كانت مسز أرماين امرأة قوية العزيمة ـ كما حدس ماير أيزاكسـون لأول وهلة ـ فذا بها تشعر بان امامها كائنا بشريا أصلب منها عزما ، واشد اصرارا ، واكثر تمسكا •• ولم يكن يقل عنها مكرا وبرودا !•• فكيف يجوز الا يفهم كل منهما الكثير عن خلق الآخر ، بالرغم من انه كان رجلا شرقيـا وهى امرأة غربية ؟! ثم انه شرقى ، والشرقيون قراء أفكار ، ان لم يكونوا قراء نفوس وأرواح !•• وهنا شعرت المرأة براحة بالغة ، وكانما وضع فى المساء بلسم على جراح الصباح !

وفى تلك اللحظة ، سمعا نيجل يهتف : « روبى ! » •• فارتد بارودى الى الوراء فى مقعده ـ فى هدوء ـ وقد بدا ساكنا ، قويا ، عمليا !•• وفى هذه المرة ، لاحظت مسز ارماين أن مقعد الخيزران لم يصدر صريفا ما ، من جراء حركته هذه •• وقالت السيدة : « هل كل شىء على ما يرام بالنسبة للعشاء يا نيجل ؟ » ، فاجاب زوجها : « أرجو ذلك •• ولكن يجب الا يظن بارودى ان لدينا طاهيا كطاهيه ! » • فنهضت مسز ارماين قائلة : « ساترككما برهة وجيزة ، وسيكون العشاء فى الثامنة والربع ! » •• فقال بارودى وهو يقف لها : « شكرا لك يا سيدتى •• وارجو المعذرة للثوب المصنوع من الفانلا الذى ارتديه ! » •• فكان جوابها : « اننى أحب ان ارى الرجال فى ثياب من الفانلا •• أليس كذلك يا نيجل ؟ » •• وكانت تتكلم فى استرخاء يكاد يكون شرودا ، ثم مضت فى تمهل حتى دخلت المنزل •• وهكذا استطاعت فى دهاء ومكر ان تنشر حولها جوا رقيقا من التحفظ والنفور !

★ ★ ★

◆ وكانت الصحف التى أتت فى بريد الصباح ما تزال على المنضدة فى حجرة الجلوس ، لم تفض غلافاتها بعد ، فتناولت واحدة منها أثناء مرورها ، وحملتها معها الى الطابق العلوى ، حتى اذا ما بلغت حجرتها فتحتها والقت نظرة سريعة على اخبار المجتمع •• آه ! ها هى ذى فقرة عن ليدى هاروبتش

جاء فيها : « لقد كان لمولد غلامين توأمين للكونتس هارويتش رنة فرح وابتهاج فى الأوساط الاجتماعية ، لما يتمتع به كل من اللورد والليدى هارويتش من حب وتقدير عام • ويقال ان تعميد الطفلين سيتم فى الهيكل الملكى بكنيسة قصر سان جميس ، وان صاحب الجلالة الملك سيكون اشبينا لهما •• وقد كان الوريث التالى للقب والممتلكات الكبيرة التى تلحق به - حتى هذا الحادث السعيد - هو المحترم نيجل ارماين الذى تزوج اخيرا من مسز تشبستو المعروفة ، وهو أصغر من اللورد هارويتش بعشرة اعوام »

والآن ، وبعد ان رأت الحقيقة الواقعة منشورة فى الصحف ، ازدادت مسز ارماين فجاة - وبطريقة ما - ادراكا وشعورا بانتصار ليدى هارويتش وعصبة هارويتش - وهى تمثل المجتمع كله ! - من ناحية ، وبما يبدو انه هزيمتها الساحقة من ناحية أخرى •• ألا ما اسعد الابتسامة التى ينبغى ان تكون الآن مرتسمة على شفاه المجتمع الراقى •• على شفاه نساء عديدات لسن افضل مما كانت قلامة ظفر ؟!•• والذى اقامها هذا المقام المزرى هو نيجل ، وهو الذى جر عليها ذلك كله !•• وعندئذ زمت شفتيها فى تشاؤم ، وهى تذكر عينى ليدى هارويتش الأمريكيتين الباردتين ، اللتين طالما نظرتا اليها باحتقار المرأة الطاهرة العارفة بما هنالك •• تلك النظرة التى تحرك الشيطان فى النساء غير البريئات ، وفى اللواتى عرفن بانهن لسن بريئات !

وأزاحت الصحيفة جانبا ، ومضت الى النافذة فراحت تتطلع الى الخارج •• وانبعث من الحديقة الىخياشيمها اريج زهرة مستترة كانت تمنحالظلام خير هباتها •• ومن بعيد - الى يمينها - كان وشى زخرفى من النار الملونة يرتسم على صفحة العتمة التى لم تكن فى حلكة السواد الذى كان يملأ العالم فى ناظريها •• كان هذا الوهج ينبعث من « دهبية » بارودى !•• وعادت أفكارها توسوس لها : ان النساء فى لندن يبتسمن ويطربن لسوء حظها ونكد طالعها ! وفيما كانت تحدق فى صفوف المصابيح ، خيل اليها انها صفوف من الأعين الشامتة ! ثم خيل اليها أنها صفوف من الأعين تراقبها وتمعن النظر اليها وتستشف حقيقة نفسها !•• وعندئذ نادت مارى ، وشرعت تبدل ثوبها من جديد •• وفى تلك الأثناء ، صعد نيجل مرة أخرى ، مصطحبا بارودى الى احدى حجرات النوم الخاصة بالضيوف ، ثم جاء يعالج الباب الموصل بين حجرتيهما ، فصاحت به فى استخفاف : « انك لن تستطيع الدخول ! » •• فقال شأن من يكذب ظنه : « ما أراك تبدلين ثوبك ؟ » •• فقالت : « ليس فى وسعى ان أتناول العشاء فى ثوب من التيل ! » •• فقال : « ولكن كلا منا !•• » • فقالت مقاطعة : « انكما رجلان ، اما انا فسيدة ، ولا استطيع أن أتناول العشاء فى ثوب من التيل الأبيض ، اذ ان ذلك يجعلنى احس كأننى

ملاءة سرير او كيس وسادة : امض لشأنك يا نيجل »
وسمعته يغسل يديه ، وما لبثت ان سمعته ينصرف مبتعدا ، فادركت تماما ان لهجة الاستخفاف فى صوتها وقعت كالسياط عليه ، وانه كان يعانى الأمرين !٠٠ وما لبث ان دوى رنين جرس العشاء الصغير ، فنزلت الى الطابق الأسفل فى ثوب سهرة من اللون الأصفر الشاحب ، عالى الخصر ، وقد وضعت على صدرها باقة من الزهور القرمزية ٠ ولم تكن تتحلى بشىء من المجوهرات ، او تزين شعرها بشىء ٠٠ وفيما كانت تدخل الى الحجرة ، انتاب نيجل - للحظة وجيزة - شعور غامض بان امراة غريبة عنه تلج الحجرة ٠ فلماذا كان ذلك ؟ لقد راح عقله يردد السؤال ، بينما كان يحملق فيها بامعان ليستشف سبب هذا الشعور ٠٠ كانت تبدو ناصعة البياض الى حد غريب ، بل الى حد غير طبيعى ٠٠ أتراها قد عاودت - رغم حديثهما فى الصباح - وضع تلك المساحيق على وجهها ؟٠٠ وهل كان بياض لونها انصع من المعتاد ، او ان شفتاها كانتا أكثر حمرة ؟٠٠ او انها فى الواقع لم تضع على وجهها شيئا على الاطلاق ٠٠ اذ انه لم يكن يدرى ما صنعته بنفسها ؟٠٠ ولكنه كان مشغول البال ، قلقا ٠٠ كان يحس بحنين الى ان ينفرد بروبى ، وان يجعلها تصفح عنه لما نالها منه ، من اهانة بالغة فى هذا الصباح ! لقد اصبح يكره هذا الحاجز الذى قام بينهما ، ويشعر بانه هو الذى خلقه بعدم ثقته فيها وجحوده اخلاصها ٠٠ والنساء دواما اشد حساسية من الرجال ٠٠ ومن منهن يمكن ان تكون اشد حساسية من « مريم المجدلية » ، التائبة التى أحاطت بها حلقة من الجحود والسخرية ، والدهشة والعجب ؟٠٠ لقد اصبح يشعر بانه قد تنكر فى الصباح لمبادئه الأساسية ، وكان زائفا مع نفسه ، وانه بسقطته هذه من سماء المثل الأعلى للسلوك ، قد اصاب بلطمة ثقيلة تلك الفضيلة المرتجفة التى كانت تستجمع شجاعتها لتطل براسها وتجازف بالخروج الى النور !
وفى خلال العشاء كان كل شىء ٠٠ كل نظرة ، او نبرة ، او ايماءة ، او حركة معبرة من «روبى» ، تكاد تؤيده فى لومه لنفسه وزجره اياها ٠٠ فمن المحقق انها قد تغيرت ، وان تلك المراة الكليلة الساهمة المستغرقة فى التفكير ، والتى مكثت وحدها فى الحديقة عندما ذهب الى « الدهبية » ، قد اخلت مكانها لامراة أصلب عزما ، واشد تالقا ، واعظم حيوية ٠٠ امراة تستطيع ان تقف موقف النزال دفاعا عن نفسها ، قديرة على ان تكون جريئة الى حد يكاد يشبه التحدى ٠٠ امراة خليقة بان تؤلمه وتوجعه ، ردا على ذلك الألم الموجع الذى اوقعه بها ! وكان الطعام بالغ الجودة ، فان طاهيهما النوبى كان قد تلقى هذا الفن فى أحد الفنادق الكبرى ، بحيث لم يكن على مسز ارماين ان تعتذر عن شىء ٠٠ وقد امتدح بارودى الطعام فى أدب جم ، ومع

ذلك احست ان وراء مديحه هذا تحفظا غير محدود . واذ ذاك تذكرت ذلك الزمن الذى كان فيه طاهيها اشهر واعظم طهاة لندن على الاطلاق.. كان اعجوبة من عجائب فن الطهى ، رشاه عشيق لها من اصحاب الملايين ليترك خدمة اسرة من ارفع الأسرات النبيلة مقاما ، ويضع مواهبه فى خدمتها !.. وقد ذكرت هذه الحقيقة لبارودى ، وكان ذلك أمرا لا يفعله الا السوقة ، فى حين انها لم تكن سوقية فى جوهرها .. ولكن دفعتها الى ذلك رغبتان : فقد شعرت بان فى ضيفها ذلك الاعجاب الغريب - الذى يكاد فى اغراقه ان يكون خياليا - نحو الثراء والرفاهية ، فاحبت ان تستجلب هذا الاعجاب الى شخصها .. وارادت فى الوقت نفسه ان تزيد من عقابها لنيجل !

قالت : « انك تبدو اكولا ذواقة للطعام يا محمود بارودى .. واحسبك قد سمعت عن ارمان كاريير ؟ » .. فتساءل : « احسن طاه فى اوروبا يا سيدتى ؟ كيف لا أكون قد سمعت عنه من أصدقائى فى باريس ؟ » .. فقالت : « لقد لبث فى خدمتى خمسة أعوام » .. وساد الصمت لحظة ، وتورد وجه نيجل فجأة حتى غدا أرجوانيا ، بينما كان بارودى ينقل عينيه الواسعتين فى تثاقل من مسز ارماين اليه ، وما لبث أن قال أخيرا فى هدوء : « اننى اهنئكما معا ، فلا ريب انه كان لديكما كنز نفيس .. ولكن لماذا تخليتما عنه ؟ »

وكان يوجه السؤال لنيجل .. وعندئذ قال نيجل فى خشونة مباغتة .. خشونة انجليزية صميمة تكاد تشبه التعالى والترفع : « انه لم يكن فى خدمتى .. لقد كان ذلك قبل ان نتزوج بوقت طويل »

- آه ! لقد فهمت ! ولكن يا للخسارة ! اذن فلم يتح لك الحظ لتناول أطباقه العجيبة ؟!

- كلا .. اننى لا ابالى بمثل هذه الأشياء !

فلم يزد بارودى على ان قال : « حقا ؟ »

ثم راحوا يتحدثون فى مواضيع شتى ، ولكن نيجل كان قد فقد مرحه ، ولم يعد قادرا على استعادته .. وأبى بارودى ، كمسلم صالح ، ان يتناول شيئا من النبيذ ، حتى اذا ما قدمت الفاكهة نهضت مسز ارماين قائلة : « سأترككما برهة وجيزة ، وستجداننى فى الشرفة . ورغم أن بارودى لا يشرب شيئا ، فاننى واثقة من انه يحب احاديث الرجال خيرا من ثرثرة النساء ! » .. وانكر بارودى ذلك فى ادب ، وان بدا فى نبراته شىء من عدم الاكتراث ، ثم اضاف : « ولكن ماذا تقولان فى قبول ضيافتى لتناول قدح من القهوة ، وكاس من الشراب بفندق ونتر بالاس ؟ فالليلة حفلة الافتتاح لفرقة موسيقية مجرية ، احضرتها انا فى الشتاء الماضى الى مصر ، اذ علمت - وقد

لا اكون خبيرا فى الموسيقى الغربية ـ انها تعزف ببراعة منقطعة النظير !٠٠ ماذا تقولان ؟ ايسرك ذلك يا سيدتى ؟ » ٠٠ فاجابت : « أجل » ٠ ثم التفتت الى نيجل قائلة : « هيا بنا نذهب ! الا نذهب ؟ » ٠ فاجاب : « طبعا ، اذا شئت ٠٠ ولكن هل يمكنك المشى فى هذا الثوب ؟ » ٠٠ فاومات براسها ايجابا ، وهى تقول : « ان الأرض جافة تماما فى الخارج ٠٠ سوف اعود اليكما بعد دقيقة واحدة »

ولكنها غابت عشرا ٠٠ فلما عادت كانت تلتف فى معطف جميل من الفراء الابيض الفاخر ، وتضع على راسها قبعة صفراء صغيرة ، ترتفع فى جانب منها باقة من الريش ٠ وقالت : «اننى متاهبة للخروج» ٠ فقال نيجل : « يا له من معطف جميل ! » ٠٠ فانه لم يكن قد رآه من قبل ! وراح يتحسسه فى رفق باصابعه السمراء ، وما لبث ان نظر اليها ، ثم جذب اصابعه وخطا الى الوراء بحركة تكاد تكون فجائية !

وعندما وصلوا الى الفندق الكبير ،كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعاتها فى البهو ، الذى تناثر فى ارجائه الفسيحة عدد من الناس فى جماعات صغيرة متفرقة ، وكانوا ينصتون اليها وهم يحتسون اقداح القهوة التركية ٠٠ وكان الموسم لا يزال فى بدايته ، ولم يبدأ بعد اندفاع السياح نحو النيل ٠ كما ان الموجودين منهم لم يكونوا قد وطدوا اواصر المعرفة العابرة بينهم ٠٠ ومن ثم فقد كان الناس ينظر بعضهم الى بعض فيما يشبه التساؤل والتحفظ ، او كان بعضهم يتجاهل البعض تماما ، بينما تكاد وجوههم وظهورهم تقول لبعضها بعضا فى صراحة وجلاء : « لن يكون لنا شان بكم حتى نعرف المزيد عنكم ! »

واثار دخول الجماعة القادمة من « فيلا اندروود » اهتماما صرف الناس عما كانوا فيه ٠٠ وما كاد الخدم يرون بارودى حتى سرت بينهم حركة رقيقة سريعة للمبادرة الى خدمته ! وملأ الابتسام وجوه النوبيين الطوال القامة فى ثيابهم البيضاء واحزمتهم القرمزية ، ورفعوا ايديهم الى رؤوسهم بالتحية ، وهم يبدون سرورهم ورغبتهم فى استرعاء انظاره ٠٠ واسرع حارس الباب الالمانى فتقدم الى الامام وعلى اساريره ابتسامة ارجوانية اللون٠اما رئيس الاوركسترا ـ وكان مجريا قحا ـ فقد اخذ يقود الفرقة فى حماس وحمية كانه يعزف من أجله ! وتقدم سيد اسود اللون مهيب الطلعة ، يرتدى ثوبا قرمزيا مقصبا ـ ويبدو كانه امير شرقى ، ولكنه فى الواقع كان يكسب عيشه من صلته الوثيقة بالمصعد المؤدى الى الطابق الاول ! ـ فقادهم الى احدى الموائد ٠٠ وتقبل بارودى هذه اللفتات كلها بغير اكتراث ، وفى جلال خلو من التصنع او التكلف ٠ فلما اتخذ ثلاثتهم مجلسهم حول المائدة ، اصدر امره بطلب القهوة والشراب ، ثم اخذوا يصغون الى الموسيقى ، التى كانت بالغة الجودة ، تحوى تلك الطلاوة

الخاصة التى تجمع بين الحمية والحزن ، والتى تتميز بها الموسيقى المنبعثة من اقواس عازفى الكمان المجريين

وكان نيجل يدخن لفائفه ، ويلوح منصرفا بكل جوارحه الى الموسيقى ، وقد غض ببصره الى الارض ٠٠ اما مسز ارماين فكانت تلوح مستغرقة فى الاصغاء كذلك، بيد انه لم يمض على جلوسها اكثر من خمس دقائق حتى كانت قد رات والمت بكل جماعة من الناس فى جوارها ، وحددت الجنسيات ، وانتقدت ثياب النساء ووجوههن ، واعملت فكرها وانتهت الى قرار حاسم عن الرجال الذين كانوا يصاحبونهن ، وعن الروابط العائلية ، او الغرامية ، التى كانت تربط بين بعضهن البعض او بينهن وبين اولئك الرجال ٠٠ بل انها فعلت اكثر من ذلك ، فقد استطاعت ان تقدر وتزن مبلغ الاهتمام ، او الفضول ، او الاعجاب ، او الغبطة، او الازدراء ، التى كانت هى نفسها قد اثارتها فى نفوس هؤلاء الناس ٠٠ استطاعت ان تقدر وتزن هذه الانفعالات بتلك الموازين السديدة التى للمراة البارعة الخبيرة ، التى عاشت سنين برمتها فى الأوساط الراقية او المتوسطة على السواء ! ٠٠ وعن كثب منهم ، جلس اللورد والليدى هايمان ، مع اثنين آخرين من الانجليز - هما سير جون وليدى ميرشيسون - الى مائدة لم تكن فى محاذاة مائدة مسز ارماين وزميليها ، وانما كانت الى الوراء قليلا ، من الناحية اليمنى ، بحيث كان شاغلوها فى متناول انظار مسز ارماين ٠٠ كانوا ثلة من ابناء الطبقة الراقية الذين يغشون موائد القمار وحلبات السباق ، ويحبون المرح واللهو ، ويبدون فى كل مكان ، فلا يفوتهم حفل هام يذهب اليه ويظهر فيه نظراؤهم ومن على شاكلتهم ! ٠٠ كانت ليدى ميرشيسون حسناء شقراء حقودا ، من ذلك الطراز من النساء اللواتى لا يترددن فى أن يعضضنك اذا لم تدعهن ينلن ما يردن ! وكانت وقتئذ تبتسم فى شراسة ، وتغمغم ببضع كلمات لليدى هايمان ، التى كانت ضخمة الجسم بطبيعتها - ولكنها كانت تضغط جسمها بشدة ! - ذات لون قان دموى لم تفلح المساحيق فى اصلاحه اصلاحا كافيا ، وذات طبع استبدادى لم يفلح اللورد هايمان فى تقويمه بما فيه الكفاية !

كل هؤلاء الناس - وكانت مسز ارماين تعرف ذلك فى قرارة نفسها الى حد اليقين - قد قراوا ما نشرته صحيفة « المورننج بوست » ٠ ٠وهم هنا فى مصر يمثلون (لندن) ، ومن ثم فقد كانت ترى فيهم حكم (لندن) عليها : « لقد نالت ما تستحق » ٠٠ راته فى ابتساماتهم الباردة ، وفى لفتاتهم المباشرة اليها - وكانت لفتات قاسية ، وقحة ، باردة كالفولاذ ! - وفى نظرات الاشفاق الغريبة ، الممتزجة بلون من التشفى الحيوانى - بل الصبيانى - التى كان الرجلان يرمقان نيجل بها !

وما لبثت مسز ارماين ان نقلت انظارها من (لندن) الى (مصر) ممثلة فى بارودى .. لقد كانت بزواجها من نيجل تتوق الى ان تضع « كعبها » على راس لندن التى طالما احتقرتها ، وازدرتها .. وكانت ترجو ان تضع يوما « كعب » الليدى هارويتش على راس اكثر من امراة واحدة من اللواتى عرفتهن قبل ان يلقى بها الى خارج المجتمع .. وكانت - فى قرارة نفسها - تعتمد على ذلك ، وكانه شيء محقق ، شيء ليس عليها الا ان تنتظره .. فقد كان اللورد هارويتش معتل الصحة منهوك القوى ، كما كان رجلا طائشا الى حد بعيد ، تتعقبه الحوادث باستمرار ، ودائما ما يتعرض لتحطيم عظامه واصابة جسمه بشتى الاصابات .. ولم يكن عليها الا ان تنتظر فقط ! .. اما الآن ، فهناك غلامان توامان .. وهناك لندن باسرها تضحك منها !

وعادت تنظر الى بارودى من جديد .. وكانت الموسيقى الحارة الحزينة قد بلغت ذروتها ، واستحوذت عليها ، وامسكت بها فى قبضتها القوية ، وراحت تجرفها الى الامام .. فلما انتهى اللحن ، كانت مسز ارماين تشعر بانها قد حملت بعيدا عن لندن ، وعن تلك الامانى والاطماع القديمة ، الى الابد ! .. وكانت عينا بارودى الواسعتان تستقران عليها ، وكانهما تقرآن افكارها .. واصبحت تحس - للمرة الاولى - بالقلق ينتابها من هذه النظرات المتفرسة ، المليئة بالعزم والتصميم .. وتحس بالرغبة - بل الحاجة - الى الفرار منها والنجاة من هذه الرقابة ! .. وفيما كان العازفون يرفعون ذقونهم عن آلاتهم، ويرخون ايديهم الى جوانبهم ، قالت لزوجها : « هل اكتفيت من الموسيقى يا نيجل ؟ » . فاجفل نيجل وهتف بها : « ولماذا يا روبى ؟ انهم يعزفون فى براعة وحق السماء ! »

ولاحت فى عينيه نظرة اوحت بانه كان كشخص يعود من رحلة طويلة مظلمة تحت الارض الى ضوء النهار .. كانت الموسيقى قد حملته الى جانب تلك الفتاة التى احبها يوما ، والتى قضت نحبها منذ عهد بعيد .. اما الآن ، فقد راح ينظر الى تلك المراة التى تحيا بجانبه ، والتى اتجهت اليها قوته العظيمة على الحب ، وتركزت فيها .. وسالته : « هل يضايقك ان نعود الى المنزل ؟ » ، فاجابها متسائلا : « وهل اكتفيت من الموسيقى الى هذا الحد ؟» ، فقالت : « كلا ، ليس الامر كذلك ، ولكن .. ولكننى متعبة ! » . وفيما كانت تقول ذلك استطاعت ان تحول انظاره فى براعة - ودون ان يبدو عليها تعمد ذلك - نحو الجماعة الصغيرة التى كانت تضم آل ميرشيسون وآل هايمان ، وان تحول مشاعره نحو الاشفاق عليها من نظراتهم ،فيدرك ان ذلك كانسبب رغبتها فى الانصراف .. بل ربما كان ذلك بعض السبب ، وليس السبب كله ، كما اوحت اليه .. وعندئذ قال نيجل فى حنـان : « لســوف اعود

بك الى المنزل توا »
فلما غادروا الفندق ، حيا بارودى الزوجين مودعا ، ودعاهما الى تناول الشاى على ظهر « اللاولية » او اللؤلؤة - وهو الاسم الذى كان يطلق على دهبيته - فى اليوم التالى ، واضاف : « سارحل الى ارمنت فى المساء ، فهل يضايقك الحضور يا سيدتى ؟ » .. وكان يتكلم بادب جم ، ولكن فى غير اكتراث .
واجابته مسز ارماين باللهجة نفسها : « شكرا ، لسوف يسرنى ذلك ! » .. فقال : « طاب ليلكما .. لقد كانت الموسيقى رائعة ! » .. واختفى شبحه الطويل فى الظلام . فلما فارقهما ، كان الصمت يخيم فوقهما .. واتى نيجل بحركة وكانه يهم بان يمسك بيدها ويضع ذراعها تحت ذراعه ، ولكنه لم يفعل! وهكذا راح الاثنان يمشيان جنبا الى جنب بجوار النهر دون أن يلمس احدهما الآخر او يتبادلا كلمة واحدة .. وعلى هذا النحو وصلا الى الفيلا ، ثم الى الشرفة الممتدة امام حجرة الجلوس . وعندئذ تكلم نيجل اخيرا فقـــال : « هل .. هل ستصعدين للتو يا روبى ؟ » .. فاجابت : « اجل » . واذ ذاك قال : « اننى .. هلا ناديتنى من نافذتك بعد قليل؟» .. وكان جوابها أن تساءلت : « ولماذا ؟ »
- عندما تجدين الوقت مناسبا لصعودى اليك .. اذ يجب بعد الذى حدث هذا الصباح ان اتحدث اليك قبل ان ننام .
فنظرت اليه ، ثم نكست بصرها الى الارض ، وهى تريح ذقنها البيضاء على الفراء الأبيض الدافىء ، وأخيرا قالت : «سأناديك» . واذ مضت مبتعدة ، راح يتبعها ببصره وهو يفكر فى مبلغ ماتبدو عليه من الطول الفارع - الى درجـة غريبة - فى هذا المعطف الا بيض الطويل ، وراح يذرع المكان ذهابا وجيئة اثناء انتظاره ، مصغيا مترقبا ان يسمع صوتها .. وبعد فترة خالهـا دهرا طويلا سمعها اخيرا تقول : «نيجل .. لك ان تصعد الآن .. اذا شئت !» .. فاسرع من فوره يرقى الدرج نحو حجرتها ، حيث وجدها جالسة فى مقعد كبير بالقرب من النافذة المؤدية الى الشرفة العليا ، التى كانت مفتوحة على مصراعيها تحتضن ظلمة الليل..وكانت ترتدى ثوبا ابيض هفهافا واسعا من ثياب النوم ، ذا اكمام كبيرة تنسدل حول ذراعيها كالجناحين .. وكان شعرها معقوصا خلف عنقها !
وكانت الحجرة مضاءة بشمعتين صغيرتين تحترقان فوق مكتب صغير ، وبضوء القمر الشاحب الرقيق الذى كان يسترق الخطى الى داخل الحجرة فى حـذر واصرار معا ، زاحفا اليهما من مصر التى كانت تنام دون ان تنبعث لأنفاسها صوت ما ، والتى كانا ياويان اليوم الى احضانها الدافئة ! .. ووقف نيجل امامها برهة ، ثم جلس فوق اريكة صغيرة لم تكن ملاصقة لها ، وانما كانت قريبة منها .. وهتف يقول : « روبى ! » .. فاجابت : «حسنا يا نيجل!».

قال : « لقد كان هذا اول يوم تحس فيه بي منذ زواجنا ! » .. فتساءلت : « تحس ؟! »

ـ نعم .. بسبب هذه السحابة التى نشأت بيننا !

فلم تقل شيئا . وعندئذ استطرد يقول : « على انه علمنى شيئا ياروبى .. لقد جعلنى أدرك مقدار حبى ، وشغفى بك » .. ومال نحوها . وفيما كان يفعل ذلك سرح فكرها الى بارودى فذكرت تماما كيف كانت تبدو كتفاه وعنقه عندما كان يميل نحوها ! بينما كان نيجل يتابع كلامه : «ولا احسبنى كنت ادرك ذلك حق الادراك من قبل . بل اننى واثق تماما من اننى لم أكن أدركه .. ولكن الذى جعلنى أفهم حقيقة شعورى هو ما احسست به عندما وجدت اننى آذيتك واسأت اليك لحظة واحدة .. روبى ! .. لقد تولى ضميرى ومشاعرى عقابى الى حد لااظن معه انك يمكن ان تودى عقابى بأكثر من ذلك ! »

ـ أنا أعاقبك ؟ ولكن أى جرم أتيته حيالى ، وكيف يمكن لى أن اعاقبك ؟

ـ لقد اسأت اليك هذا الصباح عند ماظننت لحظة ...

وكف عن الكلام .. فقد وجد أنه لايستطيع ان يصوغ افكاره فى كلمات واضحة . وما لبث ان اختتم عبارته قائلا : « بشأن هارويتش والغلامين.. »، فقاطعته صائحة : « آه اهو ذلك ؟ .. ولكن الأمر لم يكن بذى بال ! » .. وكانت تتكلم فى برود شديد ، ولكنها كانت تحس بنفسها اكثر انفعالا ، واحر عاطفة مما كانت منذ عهد بعيد ، بل أكثر مما كانت تعلم انها قادرة على ان تحسه ! وعاد يقول : « لا .. لقد كان ذا شأن خطير ! ولكنى لا أحسبنى كنت أعنيه حقا » . فقالت معتدة : « بل انك كنت تعنيه ! » .. فاعتدل فى جلسته، كما يفعل رجل فوجىء بما ازعجه . بينما اردفت هى : « لقد كنت تعنيه وتعتقده .. لاتحاول ان تتملص من ذلك يانيجل ! »

ـ اننى لااحاول ياروبى .. لماذا ؟ ألم أقل .. ؟

ـ لقد كنت تعتقد مايعتقده كل امرىء .. تعتقد اننى امرأة جشعة ، لا روح لى ولا ضمير ،واننى تزوجت منك مدفوعة بمطامعى الشريرة الخبيثة فى ان اصبح يوما من الأيام ليدى هارويتش .. لقد كنت تعتقد ذلك يا نيجل .. كنت تعتقده حقا !

ـ اننى فى لحظة واحدة فقط ..

ونهض من مجلسه فوق الأريكة ، فوقف بجوار النافذة .. كان يشعر بما يشعر به رجل يجتاز أزمة نفسية أدبية .. يشعر بان مايقوله فى تلك اللحظة ، والطريقة التى يقوله بها ، ومبلغ مايضح فيه من اخلاص عميق ، ومرارة قلبية ، ربما كان له ـ بل لابد ان يكون له ـ أثر واضح يحدد مجرى المستقبل ..

واستطرد يقول : « اننى فى لحظة واحدة فقط تساءلت عما اذا كنت قد

فكرت عند ماتزوجت منى فى اننى قد أصبح يوما من الايام لورد هارويتش ! »
.. فقالت : « طبعا »

★ ★ ★

◆ « الله » .. ومن خلال النافذة المفتوحة تسلل ذلك الصوت الأغن ، المنبعث من الملاح النوبى ، وهو يبدأ انشودة النيل على السطح الأسفل من «الذولية» . وتسلل معه الى الحجرة ذلك الوجيب الخافت لدقات « الدربكة » وكانه الصوت المنبعث من بعض الأمواج الطويلة الخفية الأبدية .. امواج الليل !.. ذلك الفيض الغامر من الأسرار الغامضة والحسن المكنون الذى يغرقهما ويغرق العالم كله ! وزادت هذه الموسيقى البعيدة من انفعالها ومن انفعاله معا !

ـ روبى .. حاولى ان تفهمى.احسب انه كان ، الى حد ما ، شعورا وضيعا، ذلك الذى دفعنى الى التساؤل .. لقد كان عسيرا على ان اصدق انك تهتمين بى كثيرا

ـ ولماذا ينبغى لك ، او لأى امرىء غيرك ، ان تعتقد اننى خليقة بان اهتم واحب ؟!

ـ لقد اعتقدت ذلك فى لندن ، واعتقدت ذلك هنا ، وقد كنت دائما اعتقد ذلك .. دائما ! واذا كان بعض الآخرين قد .. قد كفروا بك وكذبوك ، فاننى لم اكن مثلهم البتة .. او ترتابين فى ذلك ؟

وتقدم خطوة الى الامام،ووقف ينظر اليها ، مستطردا : « ان بوسعى ان اثبته لك » . فتساءلت : « آه ! كيف » ؟.. فاجاب : «ان مايز ايزاكسون يعلم ذلك» .. ولم يشر الى زواجه منها كدليل سبق ان قدمه ، لان ذلك قد يعنى شيئا آخر غير ايمانه فى زهدها الدفين ، وفى رغبتها الخفيـــة فى كل ما هو طيب وجميل .. واردف يقول: «وانت ، الا تعلمين ذلك ؟.. حتى بعد هذا الصباح؟»

ـ بعد هذا الصباح .. اننى لاأحب ان اوذى شعورك ، ولكن عليك ، بعد الذى حدث هذا الصباح ان تثبته لى .. تثبته بما لا يدع سبيلا الى الشك ، والا فاننى لن اصدقه !

وضاع صوت الملاح النوبى المنفرد وسط اصوات رفقائه ـ وهم ينشدون معا ـ وقد حومت فوق النيل .. بينما استطردت قائلة : لست احب ان اكون باردة الشعور .. ولست اود ان اكون قاسية ، ولكن المرء لايملك ان يمنع اشياء معينة من ان تخالجه .. لقدكنت مسوقة ، مجبرة ، على الشك والريبة فى كل مايتصل بالرجال..ولست اود ان اجوس ثانية خلال حياتى الماضية ، لا ولا اود ان اعيد على مسامعك ذلك «الكليشيه» القديم « من كان منكم بلا خطيئة» ، وليس فى

نيتى أن ألعب دور المرأة الشاكية الباكية ، فما فعلت ذلك قط من قبل ، واحسبنى على قدر ضئيل من الشجاعة يحول بينى وبين اتيان ذلك البتة !.. ولكن شيئا كالذى حدث فى هذا الصباح ينبغى ان ينمى الشكوك والريب والشبهات فى امرأة مر بها من التجارب ما مر بى !.. ولقد كان من ايسر الأمور لدى أن أرتمى بين ذراعيك ، وأقول اننى قد نسيت كل شيء ، واننى لن افكر فيما حدث ثانية ، وما الى ذلك .. كان من أيسر الامور لدى ان امثل لك دورا فى مسرحية ، ولكنك كنت طيبا معى عندما هجرنى الجميع ، وقد اهتممت بى الى الحد الذى جعلك تتزوج منى ، ومن ثم ، حسنا ، اننى لن افعل شيئا من ذلك ، وانما سوف اخبرك بالحقيقة .. هاهى ذى : اننى لا استطيع ان احول دون ادراكى انك ترتاب فى مقاصدى ، ولست فى الواقع ادهش لذلك قيد انملة.. لست اعرف ان كان لى حق فى ان أشعر بانى قد اوذيت فى شعورى ، او اهنت.. ولكن ، سواء أكان لى هذا الحق ام لم يكن ، فاننى قد اهنت واوذيت فعلا ، ولا بد ان ينقضى بعض الوقت قبل ان اشعر بالأمن والسلامة الكاملين معك .. الأمن والسلامة ! فليس فى وسع المرء أن يشعر بهما الا اذا وجد ان ذلك الشطر الضئيل من الاخلاص الكامن فيه ، يقابل بالتصديق والايمان والثقة !»

وكانت تتكلم فى هدوء ، ولكنه أحس بالانفعال المضطرم خلف هذا الهدوء الظاهرى .. وكانت فى صوتها نبرة من الصلابة انبأته ـ بوضوح ـ بانها تعنى كل ماتنطق به !.. وكان صوت الملاحين النوبيين يعبر النيل اليهما بغير انقطاع.. وقال نيجل : «لست أدهش البتة ان يخالجك مثل هذا الشعور » .. ثم وقف برهة ممعنا فى التفكير ، متاملا .. وما لبث ان جلس ثانية وبدأ يتكلم فى عزم تستحثه العاطفة : «روبى ! احسبنى اليوم كنت كاذبا مع نفسى ، لاننى اليوم كنت خائنا لايالى الحقيقى العميق بك .. ففى لندن ، كنت اعتقد انك اهتممت بى كرجل .. لا لأننى قد فتنتك بصفة خاصة بشخصيتى ، بل لاننى استطعت ان احس كيف يسىء الاخرون فهمك وتقديرك .. وكان يخيل الى ـ بل ويخيل الى الآن ـ ان فى وسعى أن البى رغبة فى نفسك لم يحاول احد قط غيرى ، بل لم يشأ قط ، ان يلبيها ! كان الآخرون ، فيما يخيل الى ، ينظرون اليك على انك لم يعد لك مطمع البتة الا فى تلك الأشياء التافهة التى لايقام لها فى الواقع اى وزن : المال الوفير والترف والحلى والثياب .. وانت تعلمين ما اعنيه ! .. ولكنى شعرت بان رغبتك الحقة ـ حسنا .. لابد لى من ان اقولها فى صراحة ـ هى ان تكونى محبوبة ، لا مشتهاة فحسب .. ان يستوهبك الناس شيئا ، لاان يهبوك اشياء فحسب .. لقد شعرت بذلك ، وخيل الى اننى ادركته .. افلم أكن على حق ؟»

فقالت : « لست أدرى .. الليلة ؟! » .. وكانت أذناها قد امتلأتا بتلك

الموسيقى وذلك الغناء الذى كان ينوح ويختلج فى احضان الليل ٠٠ وعاد يقول: « اليس فى وسعك ان تغفرى لى تلك المرة الواحدة التى تخليت فيها عن نفسى، بعد كل هذه الأيام و ٠٠ والليالى معا ؟ ٠٠ الم اقم الدليل على شيء ماخلالها ؟» ٠٠ فقالت : « لقد كنت تلوح كذلك،ولكن الرجال غالبا مايبدون هكذا،دون ان يكونوا حقا ٠٠ وقد ظننتك تعرف لماذا تزوجت منك» ٠٠ فقال : «خبرينى لماذا تزوجت منى ؟ » ٠ فقالت : «ليس الليلة ! » ٠ فشرع يقول ، وقد تباطا فى كلامه واكتسبت لهجته جدا واهتماما عميقين ، وسرعان مااستحوذت لهجته على انتباهها كله :

ـ لقد كنت باوربى منذ عهد بعيد احب فتاة صغيرة ٠٠ كانت فى مستهل شبابها الباكر ، لا تعرف الا النزر الضئيل عن الدنيا ، ولا تعلم شيئا البتة عن مفاسدها وشرورها ٠٠ واحسبنى احببتها لأنها كانت ، من ناحية ، على هذا النحو من قلة المعرفة ، والى هذا الحد من الطهر والنقاء ، وان المرء ليستطيع ان يرى ٠٠ يرى فى عينيها انهما مانظرتا قط ـ ولو عن بعد ـ الى الوحل والاقذار أو اى شيء دنس أغبر ! ٠٠ كانت تحبنى الحب كله ٠ ثم ماتت ٠٠ وبعد ذلك اصبحت مثلى الأعلى !

ونظر اليها وهو يرفع راسه قليلا فى بطء ٠٠ وكان فى عينيه ضياء ساطع اخافها وسحرها فى الوقت نفسه ٠٠ ضياء خالص نقى لاتشوبه شائبة ، فكانه لهب ترتفع السنته فى مكان خلو من الريح ٠٠ واردف يتابع القول : « ولقد ظللت احتفظ بها دائما فى ذاكرتى بمعزل عن النســـاء الأخريات ٠٠ دائما ، وعاما بعد عام ٠٠ حتى جاءت ليلة ، وانا فى لندن ، بعد ان عرفتك ! ففى تلك الليلة ـ ولست ادرى كيف حدث ذلك ، او لماذا حدث ـ خيل الى اننى اراهـا واراك ، واقفتين معا ، تنظر كل منكما الى الأخرى ٠٠ وخيل الى اننى تبينت فى كل منكما ٠٠لست ادرى كيف أعبر عن ذلك تماما٠٠»

وتوقف عن الكلام وهو ينكس بصره كشخص استغرق فى تفكير عميق ، او شخص استبدت به الأفكار ٠ وما لبث ان استطرد قائلا : «لقد كان فى كل منكما ـ مع الكثير من الأشياء الأخرى المتباينة ـ شيء واحد ٠٠ شيء جميل ، اجتمع فيكما معا ٠٠وخيل الى انها كانت تقول فى تلك الليلة انك تنطوين على شيء طالما احببته فيها ٠٠ شيء مستتر لاتراه العيون ٠٠ وانك تخافين اظهاره ، لان احدا لايصدق انك تنطوين على هذا الشيء فى اعماق جوانبك ! خيل الى انها تطلب منى ، فى تلك الليلة ، ان اجعلك تثقين بى ، فتطلعينى على هـذا الشيء ٠٠ وفى تلك الليلة كانت بداية حبى لك ! وما خطر لى البتة اننى سوف اطلع احدا ـ حتى انت ـ على ذلك ٠ افتحسبين اذن اننى كنت خليقا بان اطلعك عليه ، اذا كنت لا اثق بك كما يبدو انك تظنين ؟ »

ـ هل لك ان تناولنى كوبا من الأبوليناريس(١) يانيجل ؟ انه هناك بجوار السرير !

وهتف وهو شارد البال : «أبوليناريس ؟!» .. وكان يحملق فيها وهو سارح البال ، كأنما أصيب بالارتباك لهذا التحول الفجائى .. فقالت : «انه هناك».. واشارت بيدها ، وعندئذ انحسر كمها الطويل ، الشبيه بالجناح ، حتى كشف عن ذراعها البضة الناصعة .. وغمغم نيجل : « آه .. حسنا ! » . ثم مضى ليحضر ماطلبت ، بينما جلست هى فى مكانها بلا حراك ، تنظر خلال النافذة المفتوحة الى ضوء القمر المترامى على بلاط الشرفة الأبيض .. وسمعت صليل الزجاج ، وقرقرة السائل وهو يصب فى الكوب .. ثم عاد نيجل ثانية ووقف بجانبها وهو يقول : «هاهو ذا ياروبى !»

وكان الحماس قد تلاشى من صوته ، والضياء الغريب قد خبا من عينيه .. وقالت : «شكرا» ، ثم تناولت الكوب ، فادنته من شفتيها ، وراحت ترشف منه. وما لبثت أن وضعته على المكتب الصغير ، وقالت : « اننا مازلنا فى بداية الأمور يانيجل .. هذه هى الحقيقة .. فليس فى وسعنا ان نقفز فى وثبة واحدة الى الكمال المتبادل فى علاقتنا معا ! وان لدى القليل من الأوهام ، كما أجرؤ على القول باننى شديدة الحساسية حيال بعض الأشياء الى حد السخف .. أكثر حساسية مما تتصور ! والحقيقة هى اننى وطئت بالاقدام ردحا طويلا ، وما من رجل يستطيع ان يدرك ماتشعر به المراة ـ السيدة ـ التى تكون فى ذروة نجاحها ، ثم تجد نفسها منبوذة ، مقصية عن المجتمع ، واخيرا تداس بالاقدام!.. ان ذلك يجعلها تهرع الى الشيطان فتطوق عنقه بذراعيها ! ربما كان ذلك امرا شائنا ، فظيعا ، ولكنه الحقيقة الواقعة .. وعندما تحاول أن تهجر الشيطان ، فانها تكون كتلة من الاعصاب المتوترة ، تجفل وتفزع لأى شبح .. ولقد رايت اليوم شبحا فى الحديقة ! » . فتمتم : « أعرف ذلك .. اعرف ذلك ! »

ـ هل تذكر تلك الليلة التى تناولنا فيها العشاء فوق بوابة معبد الكرنك ؟ لقد اردت بعد العشاء ان تريني الخرائب فى ضوء القمر ، فكنا اينما ذهبنا ، يتبعنا رقيب ذو ثوب اسود .. او يفاجئنا ذلك الرقيب ذو الثوب الأسود متسللا من خلف عمود ، او مسلة ، أو جدار منهار ، فيواجهنا ، ويتفرس فى وجوهنا ، حتى اضطررنا الى ان نلجأ الى الفرار !.. حسنا ، هذه هى الحياة بالنسبة لبعض النساء .. وهذا ما كانت عليه الحياة بالنسبة لى زمنا طويلا . كلما حاولت أن أتطلع فى هدوء وسكينة نحو شىء جميل ، الفيت نفسى وقد

---

(١) الأبوليناريس ماء معدنى قلوى مهضم ، يستخرج من نبع «أبوليناريس» بمقاطعة الراين

تبعنى رقيب يرتدى السواد ، أو واجهنى وراح يتفرس فى وجهى فى شك وارتياب ! واليوم كنت انت واحدا من هؤلاء الرقباء السود ، عندما سألتنى ما سألتنيه بشأن هارويتش !

وتناولت الكوب فرشفت منه بضع جرعات أخرى ٠ وما أن أعادته الى مكانه حتى كان نيجل راكعا بجانبها ، يطوقها بذراعيه ، هامسا : « لن أكون كذلك ثانية ! » ٠٠ وتسلل اليه عطر رقيق أخذ ينبعث من شعرها بعد أن أصبح قريبا منها الى هذا الحد ، فاستطرد يهمس من جديد : « ولست أريد أن أكون كذلك يوما ما ! » ٠ وشدها اليه ثم احتواها بين ذراعيه ٠٠ وفيما كان يفعل ، كان ينصت الى الملاحين النوبيين ، والى الكلمة الواحدة التى كانت دائمة الترداد على شفاههم التى لم يكن ينالها التعب البتة : الله ٠٠ الله ٠٠ الله !

كان الله هناك فى غمرة الليل ، بجوار النيل العظيم الغامض الذى يفيض من منابع ممعنة فى البعد ، وسط القفار الموحشة فى الأرض ٠٠ كان الله هناك يرعاهما : هو ، وروبى ! ٠٠ وكان لديه ذلك الايمان الساذج ـ الذى يكاد يشبه ايمان طفل صغير ! ـ بأن هنـــاك ربا يعرف كل خاطـــرة تهجس فى نفسه ، وكل حركة يأتيها ! ٠٠ وهناك آلاف من الناس يؤمنون هذا الايمان ، ولكن آلافا من الناس يكنونه فى أعماق نفوسهم كما يمكن أن يخفوا خطيئة ارتكبوها ٠٠ فهم يخشون اظهار سذاجتهم وبساطتهم !

والغرض المنشود من الله ٠٠ الم يكن واضحا امامه كل الوضوح ؟ انه يراه كذلك الآن ٠٠ فان ما ينبغى عليه أن يعمله ، هو ان يعيد الى تلك المرأة ثقتها فى وجود الخير ، بأن يؤمن ايمانا ثابتا بوجود الخير فى نفسـها ، وألا يدع هذا الايمان يتزعزع كما تركه يتزعزع فى ذلك اليوم ! ٠٠ وكان حانقا على نفسه لأنه آذاها وجرح شعورها ، وكلما اشتد حنقه على نفسه اشتد ضغط ذراعيه حولها ، كأنما كان يحاول ان ينقل من جسده الى جسدها ذلك العزم الذى استقر عليه !

ومضى الملاحون النوبيون فى غنائهم الجميل : كانوا بالنسبة اليه فى تلك الليلة يتغنـون بالله ٠٠ وكانوا بالنســبة اليها يتغنون بـ ٠٠ محمـــود بارودى !

الفصل الخامس عشر

ـ ما معنى هذه الكتابة بالعربية يا محمود بارودى ؟

ألقت مسز ارماين هذا السؤال عصر اليوم التالى ، بينمـا كانت تقف مع بارودى ومع زوجها فوق السطح الأسفل من

« اللولية » ، عند قمة الدرجتين اللتين كانتا تؤديان الى الباب الكبير الذى يفصل بين صفى حجرات الجلوس ، وجناح البحارة النوبيين .. وكان ذلك الباب ناصع البياض ، تزينه نقوش بارزة مموهة بالذهب ، كما كانت الكتابة المنقوشة فوقه بحروف بارزة مذهبة . واستطردت تقول : « يبدو انها ذات مغزى ، ولا بد أن أعرف ما تعنيه » .. فأجاب : « انها آية مقتبسة من القرآن يا سيدتى » .. فسألته : « وتعنى ؟ » .واذ ذاك ثبت نظرات عينيه الواسعتين عليها ، وهو يجيب : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، فأخذت تردد معنى الآية فى بطء : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، ثم أردفت : « اذن فهذا هو شعار اللولية ؟ »

وكانت تقف فى مكانها جامدة ، وهى تحدق فى تلك الكتابة السحرية التى كانت تهم بالمرور تحتها .. فقال بارودى : « أو لم تعجبك هذه العبارة يا سيدتى ؟ » .. فأجابت : « لا ، فانها بالغة القوة .. ولكن ، حسنا .. انها لا تدع منفذا للفرار أو النجاة ، كما انها تكاد توحى بمعنى السجن » .. فقال فى خشوع : « اننا فى الواقع فى سجن من حياتنا .. واننا لفى

سجن من نفوسنا » .. فأرخت نظراتها عن الكلمات المنقوشة، وغمغمت وهى تتطلع اليه كشخص يرغب فى المزيد : «أحقا ؟» .. وعندئذ انبرى نيجل من خلفها قائلا : « **سجن ؟ اننى أمقت هذه الكلمة ، وانك لمخطىء يا بارودى..فالحياة حرية رفيعة ، اذا اخترنا لها أن تكون كذلك ، وفى وسعنا ان نعمل فيها بمحض ارادتنا الحرة .. ان القدر ليس مغلولا الى أعناقنا ، وانما نحن وحدنا الذين نستطيع أن نضعه هناك !** »

فقال بارودى فى اصرار : « هذا لا يتفق مع عقيدتى فى شىء » . وتحول عن الموضوع قائلا : « ها هى ذى قمرات الخدم» .. وكان قد قادهما الى ممر طويل وهو يشير الى الأبواب الصغيرة على اليمين وعلى اليسار ، ثم استطرد قائلا : « وها هى ذى الحجرة التى أخصصها للعمل وتدبير كل ما يجب على عمله .. وأحسبكم معشر الانجليز تسمونها .. الوكر ! »

وفتح « بارودى » بابا كان فى مواجهتهم فى نهاية الممر ، ثم سبقهم الى دخول « وكره » .. وكان الأثر الذى يقع فى النفس من هذه الحجرة ـ لأول وهلة ـ انها « حجرة مزدوجة » ، اذ كان يقسمها الى غرفتين حاجز نفيس من « المشربية » (١) ، فى وسطه باب على شكل قبو صغير ، اقيم الى جانبيه ـ فى مواجهة باب الدخول ـ عدد من الأرائك غطيت بالوشى المطرز، وتكدست عليها وسائد كبيرة .. وكانت الأرض مكسوة بعدد من سجاجيد الصلاة .. سجاجيد صغيرة تحمل مختلف الرسوم والألوان ، وقد تمازجت عليها الألوان الصفراء والخضراء والبنفسجية والقرمزية والحمراء والأرجوانية والسمراء ، فى اتساق وانسجام كاملين ، وتزاملت فوقها أوانى الزهور مع الأشجار ، والمصابيح مع الأزهار ، والمبانى الغريبة مع السفن

---

(١) يطلق هذا الاسم على التحف المصنوعة من الخشب المفرغ ، التى يفخر بها الفن العربى

ومع السلاسل ، ومع قواعد التماثيل ، ومع سلال الفاكهة ، فكانت تبدو وقد اختلطت جميعا حسبما اتفق ، ولكنها فى الواقع كانت تؤلف مزيجا ترتاح اليه النفس ٠٠ وكانت على النوافذ مصاريع من « المشربية » يمكن فتحها وغلقها وفقا لما يشاء المرء ، وقد كانت اذ ذاك مفتوحة ٠٠ وقامت تحتها خزانات للكتب ، كانت تضم صفوفا منها ـ بالانجليزية والفرنسية ـ يتناول معظمها الزراعة ، والبناء ، والتعدين ، وصناعة القطن وصناعة السكر ، فى مختلف أنحاء العالم ٠٠ كذلك كان بالحجرة مكتب كبير من « اللاكيه » عليه مصباح كهربائى متحرك خلو من حاجب الضوء (أباجورة) ، وسط خليط من أكداس الأوراق والنشرات ٠٠ وعلى مقربة من المكتب ، قامت منضدة صغيرة ومقعدان منخفضان من المقاعد ذات المسندين ٠٠ وكان يتدلى من السقف ـ الذى قسم الى أشكال عديدة طليت باللونين الأحمر الغامق والأزرق ـ مصباح ضخم معلق فى سلسلة من الفضة المذهبة ٠٠ بينما أخذ عود من البخور يحترق فى حامل مموه بالذهب !

وكانت حجرة المائدة ، فى الجانب الآخر من الحاجز ، مؤثثة بعدد من الارائك تمتد حول جدرانها ، وتضم مائدة كبيرة وعددا من المقاعد ذات الظهور المقوسة ٠٠ وغطيت المائدة بفرش هندى طويل رائع الوشى ، كان اللون السائد فيه هو الأحمر البرتقالى اللامع ، الذى كان يتألق تحت الضوء فيبعث بريقا كأنه ألسنة النيران ٠ وقامت فى وسط المائدة زهرية يابانية ازدانت بألوان صارخة غير متناسقة ، لعلها لم تكن تساوى أكثر من خمسة أو ستة شلنات ! ٠٠ وكان مثبتا بأحد الجدران حامل جميل من الخشب المنحوت ، عليه ساعة رخيصة من سويسرا تمثل عش طائر

وراحت مسز ارماين تجيل أنظارها حواليها فى صمت ،

دون أن تفـــوت عينيها صغيرة أو كبيرة مما كانت الحجـــرة تحتويه . وعلى حين غرة ، انبعث من الساعة السويسرية ازيز خافت ، ثم انفتح فيها باب صغير خرج منه طائر خشبى جميل الصنع ، أطلق صيحتين رقيقتين كانتا كل ما بعث به «الزمبلك» الانجليزى ــ الذى جهزت به الساعة ــ الى النيل ! . ثم اختفى الطائر ثانية ، وأغلق الباب الصغير خلفه دفعة واحـــدة .. فابتسمت مسز ارماين وقالت : « أأنت الذى اشتريت هذه ؟ » .. فأجاب بارودى : « أجل يا سيدتى .. كل شىء هنـــا اشتريته بنفسى ورتبته وفقا لذوقى المتواضع» .. ثم فتح بابا وقاد ضيفيه الى ممر طويل ، رصفت أرضيته بالباركيه اللامع ، وقال : « وهذه هى حجرات النوم يا سيدتى »

ثم دفع بابين أو ثلاثة ، كاشفا عن قمرات صغيرة جميلة ، بدا واضحا انها كلها باريسية الأثاث . وكانت تحوى أسرة أنيقة ، وكللا رقيقة (ناموسيات) ، ومرايا طويلة ، ومقاعد صـــغيرة .. كل ذلك فى لون أبيض وأخضر ووردى . أما الجدران فكانت فى لون العاج الأبيض . وكانت تملأ الحجرات ســـتائر مختلفة الأحجام ، بعضها للكوات المســـتديرة التى تؤلف نوافذ الحجرات ، وكلها رقيقة جميلة زاهية الألوان ، ملأى برســوم أزهار ربطت باقاتها بالأشرطة ، الى جانب رسوم الطيور الجاثمة والطائرة .. وكانت جميع وسائل الزينة كاملة ، كما كان لكل حجرة حمام خاص به مغسل مطلى بالميناء (بانيو)

وأشار بارودى الى أحد الأبواب دون ان يفتحـــه ، وهو يقول : « وهذه هى حجرة نومى الخاصة ، يا سيدتى .. انهـــا أكبر حجرة فى العائمة ، أما هذه فهى الحجرة المخصصة لخلواتى .. فكلما أردت أن أخلو الى نفسى دون ان يزعجنى أحـــد ، وكلما رغبت فى أن أدخن « الكيف » أو آكل « الحشيش » .. أو كلما

أحببت أن أجلس منفردا لأنسى مشاغلى وأستغرق فى التفكير برهة ، فاننى أعتكف بداخلها ! »
وكانت تواجههم فى نهاية الدهليز ستارة مطرزة ، برتقالية اللون ، تغطيها وشائج من الحـــرير من مختلف الألوان ٠٠ فجذب بارودى الستارة جانبا ، ثم دفع بابا منزلقا من الخشب يكاد يكون أسـود اللـــون ، وقال : « هل لك أن تتقـدمى يا سـيدتى ؟ » ٠ فخطت مســز ارماين الى الداخل فى بطء وحذر ، واذا بها فى قاعة فسيحة تشغل كل مؤخرة «الدهبية» ٠٠ وكان الجانب الأقصى لهذه القاعة متسعا ، هلالى الشكل ، به مصطبة منخفضـة ذات أرائك مقوسة ، يشــطرها بابان منزلقان ـ كانا اذ ذاك مدفوعين فى الفجوات الخاصـة بهما ـ يؤديان الى شرفة كبيرة تطل على النيل وتغطيها مظلة واسعة من وهج الشمس ، وكان السقف الخشبى لهذه القاعة مقسما الى مربعات سوداء وذهبية ، وقد زخرفت اطاراتهــا بنقوش دقيقة ـ تمثل آيات من القرآن ـ بحروف من الذهب فوق رقاع سوداء ، وكانت جميع النوافذ من الخشب المفرغ (المشربية)، وقد كانت اذ ذاك مغلقة كلها ٠ وكان يتخلل الجدران ـ وهى ذات لون « جوزى » داكن كلون المشربيات ـ عدد من الفجوات المنحوتة ، وقد صفت عليها أشياء متنوعة تافهة القيمة : من زهريات زاهية الألوان رخيصة الثمن من نابولى وباريس ، الى ساعتين صداحتين أخريين ، ثم ساعة ثالثة ذات ميناء من الخزف الأزرق والأبيض ، وظهر يبدو أنه صنع من النحاس الأصفر، ثم صندوق موسيقى ، ثم تمثال وحش فظيع ـ يشبه التنين ولكن له رأس كلب ـ من الخزف الأزرق والأصفر٠٠ولم تكن بالغرفة أية مقاعد ، ولو أن الشرفة كانت تحوى بعض المقاعد المصنوعة من القش والخيزران ، كما كانت المصطبة المنخفضة مزدحمة بالارائك العريضـة ٠٠ وكان فى منتصف أرضية

الحجرة حوض غائر من الرخام ، غرست فيه بعض أشجار النخيل من نوع القزم ، وانبثقت من وسطه نافورة تقذف رشاشا دقيقا من الماء ، تتراقص فوقه ، صاعدة هابطة ، كرة مذهبة صغيرة فى حجم حبة البازلاء ! ٠٠ وكانت أرضية الحجرة مغطاة بأكداس من الطنافس الثمينة ، بينما كان يسرى فى جوها أريج خفيف لرائحة عطرية ثقيلة ، يترك فى الحواس أثرا يشبه أثر المخدر !

وغمغمت مسز ارماين قائلة : « يا لها من حجرة غريبة ! » ٠٠ وكانت قد لبثت واقفة مكانها بالقرب من الباب بغير حراك ٠ وما عتمت أن تقدمت ـ والرجلان فى أثرها ـ حتى جاوزت « الفسقية » ، وبلغت حافة « المصطبة » ، فدارت على عقبيها ، وأولت ظهرها للضوء الذى كان يتسلل خلال الباب الضيق المؤدى الى الشرفة ٠٠ وكان بارودى قد أغلق الباب الذى دخلوا منه ، ثم جذب فوقه ستارا ثقيلا برتقالى اللون ، رأته مسز ارماين وقتئذ ، للمرة الأولى ، فاذا هو بالرغم من انه كان جميلا فى حد ذاته ، سواء فى لونه أو فى قماشه ٠٠ بل بالرغم من انه كان ضاريا فى جماله كجلود بعض الحيوانات الوحشية ، الا أنه لم يكن منسجما مع سائر رياش الحجرة ، ولا متناسقا مع الألوان الغامقة للوشى الفاخر الذى كان يملأ المكان ويزين سجاجيد الصلاة الثمينة ، ولا مع الخشب الداكن لمشربيات النوافذ ! ٠٠ **كان هذا الستار ـ مثله مثل تلك الساعات الصداحة الرخيصة فوق الحوامل الفاخرة ، او ذلك الخزف السوقى المجلوب من نابولى وباريس ـ يكشف عن ناحية صبيانية فى هذا الرجل ، وعن ذوق فاسد ساذج فى فجاجته ، وان كان لجوجا جريئا فى حرصه على ان ينال الاعجاب ! ٠٠ كان هذا الستار ، وهذه الساعات والزهريات ، تكشف فى غرابة صارخة عنيفة ، عن شطر من الرجل يختلف**

كل الاختلاف عن شطره الآخـــر الذى انتقى تلك الطنافس الجميلة الى درجة الاعجاز ، وذلك الوشى النفيس المسجى فوق الأرائك ٠٠ كان الـــذوق الرفيـــع مقترنا بذوق عامى باد للعيان !

وتمنت مسز ارماين لو استطاعت أن ترى حجرة نومه ٠٠ فبدأت تقول : « شد ما أود ٠٠ » ، ثم أمسكت فجأة ، فقال بارودى : « نعم يا سيدتى ؟! » ٠٠ وتســـاءل نيجل : « ماذا تودين يا روبى ؟ » ٠٠ فقالت : « ستضحكان منى ، ولكنى أود لو خرجتما الى الشرفة ، وأغلقتما الأبواب ، وتركتمانى وحدى فى هذه الحجرة الموصدة برهة ٠٠ اذ أحسبنى سأشعر كما لو كنت فى صميم دار شرقية » ٠٠ فقال نيجل : « تعنين فى ٠٠ حريم ؟ » ٠ فأجابت : « لعله كذلك ٠٠ هيا اخرجا ؟ » ٠٠ فابتسم بارودى ، كاشفا عن صفين من الأسنان الدقيقة الجميلة ، وقال : « تعال يا مستر ارماين ! » ٠٠ وانتقل الى الشرفة وهو ينطق الاسم بطريقته المخطئة ، فتبعه نيجل ٠ ثم جذب بارودى أحد البابين المنزلقين ، والتفت الى مسز ارماين متسائلا : « أتودين حقا أن أغلق الآخر أيضـــا ؟ انك بذلك تصبحين فى ظلام دامس ! » ٠٠ فأجابت فى صـــوت خافت : « اغلقه ! » ٠٠ وعندئذ جذب الباب الثانى ، فانزلق فى رفق حاجبا ذلك المستطيل من ضـــوء الشمس وشبح الرجلين عن ناظريها !

لقد قال لها بارودى انها سوف تصبح فى ظلمة حالكة ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا كل الصحة ٠٠ فقد كان هنـــاك بصيص خافت من الضوء ـ لم يكن فى الواقع أكثر من ذلك ـ يختلس الخطى من حيث لا تدرى ولا ترى ، ليجلو لها ظلمـــة المكان ٠٠ ومضت الى الأريكة ، فى الجانب الأيمن من السفينة ، وتحسست باحثـــة عن بعض الوسائد ، فكومتها معـــا ، ثم

اضطجعت فى حذر ، خشية ان تفسد من وضـــع قبعتها ٠٠ وكانت الأريكة رخوة لينة ، تستجيب لأية حركة ، فضمت جسدها وعانقته ، كأنها كائن حى عاشق يدرك الرغبة التى كانت تختلج فى نفسها اذ ذاك ! ٠٠ وكانت الوسائد تسـند ذراعها ، وهى مضطجعة على جنبها ، مرهفة السمع ، ساكنة بغير حراك ٠٠ وكانت مسز ارماين على قدر من الخيال ، ولو انها لم تكن من النساء ذوات الخيال المتدافق الشديد الحساسية ٠٠ ومن ثم تركت العنان لهذا القدر من الخيال ، فحملها معه الى دار شرقية يقتنيها سـيد من الشرق ٠٠ أين كانت تلك الدار ؟ وفى أية بلاد غريبة تحت الشمس المشرقة ؟ لم تكن تدرى ولم تبال بأن تدرى ، فقـــد كان ذلك ـ فى الواقع ـ لا يعنيها الا قليلا ، كأية امرأة شرقية اعتادت ان تعيش وقد ارتبطت حياتها بأسوار من الحديد !

ذلك انها خالت نفسها امرأة شرقية خاضعة لما لهذا الشرق ـ الذى لا يتغير ـ من قوانين وعادات جامدة ، وانها فى حريم رجل من الشرقيين الأثرياء ، يمتلكها جسدا وروحا ، ويحبها الى درجة العبادة ، ولكن كما يعبد رجل من الشرق المرأة التى يعدها عشيقته وجاريته معا ! ٠٠ لقد لبثت سنين طويلة تحكم

الرجال ، وتسيطر عليهم ، وتدوسهم تحت قدميها ٠٠ كانت تعيش لهذا الغرض : السيطرة على الرجال بجمالها وبراعة تدبيرها ! ٠٠ أما الآن فقد أصبحت ترى انها لم تعد مالكة ، وانما مملوكة بكليتها ٠٠ لم تعد آمرة متحكمة ، وانما مطيعة طاعة عمياء ٠٠ تالله ما أروعها من تجربة جديدة ! ٠٠ وأحست بأن كل ما فيها من تقلب أهواء الأنوثة ، ومن حب التغيير ، قد نهض متحفزا ، وتدفقت فيه الدماء الحارة لمجرد التفكير فى تلك التجربة ٠٠ فى ان تكون هى نفسها جارية مملوكة ، بدلا من اقتنائها للعبيد !

وتحركت قليلا فوق الأريكة ٠٠ وكان العطر الثقيل الذى ساد الحجرة يبدو كما لو كان يزحف حولها عن عمد واصرار ، ليخضعها لتأثيره ونفوذه ! ٠٠ وسمعت الغمغمة الخافتة ٠٠ الوسوسة المنبعثة من الفسقية ، حيث كانت الكرة المذهبة الصغيرة تعلو وتستقر وتهبط وفقا لما يفعله بها الماء الذى كان يندفع ثم يتراجع متناثرا ٠٠ كانت هى الأخرى أمة ٠٠ جارية فى دار بارودى الشرقية ! ٠٠ وأغمضت عينيها فى بطء ٠٠ فى دار بارودى الشرقية ! ٠٠ هنا اعتاد بارودى أن يضطجع كما تضطجع هى الآن ، فيدخن «الكيف» ويأكل «الحشيش» ، ويسبح فى بحار من الأفكار المتلاطمة ! ٠٠ وهو لن يكون عبدا لامرأة أبدا ٠٠ كانت موقنة من ذلك كل اليقين ٠٠ ولكنه يستطيع ان يجعل من المرأة جارية له ! ٠٠ كانت عيناه تبدوان – عندما كان ينظر اليها فى بعض الأحيان – كعينى مالك الرقيق ، ولكنه ، فى قسوته ، قد يستطيع أن يعبد احدى الجوارى ، ويعشقها ! ٠٠ **لقد شعرت بما فيه من قسوة ، وكانت هذه القسوة تروق لها وتجتذبها وتغريها ، وتطابق شيئا فى طبيعتها يقدر القسوة ويحترمها ، وفى الوقت ذاته يحتقر اللطف والكياسة ! ٠٠ ان بارودى سوف يكون قاسيا**

فى غرامه ، ولن يضع نفسه قط عند قدمى امرأة •• لقد قالت لها عيناه ذلك •• قالتاه لها فى قحة وتبجح وغطرسة !

كانت الكرة المذهبة فى الفسقية ، والجارية المغطاة بالحلى والجواهر فى الحريم ، سواء بسواء فى نظره !

ومدت ذراعها على الوسائد••وبسطت أطرافها على الأريكة •• أطرافها الطويلة التى ما زالت رخصة لينة فاتنة •• واستحضرت بارودى فى خيالها !

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى فى منتصف مايو القادم

تابع على صفحاته أحداث هذه القصة العالمية التحليلية الشائقة ، لترى كيف تطورت الأمور بين هذا الثالوث من أبطال القصة ، ومن هو الشخص غير المتوقع الذى ظهر فجأة على مسرح الحوادث ليمسك بخيوط الموقف المعقد الذى اكتنفته عناصر الخديعة والغدر ، بل الموقف الذى قاد احدى شخصيات القصة الى حد الاقدام على الجريمة !

هذه الأسماء الضخمة من روائع القصص والكتب العالمية ، هى بعض ما صدر من أعداد سلسلة

مطبوعات كتابى

التى تؤدى رسالة مكملة لرسالة كتابى

فرسالة « كتابى » الذى يصدر فى أول كل شهر ، هى نشر ملخصات ٨ أو أكثر من الكتب العالمية ـ الحديثة والقديمة ـ فى كل عدد ، لاعطاء فكرة كافية عنها لمن لا يتسع وقته لقراءة نصها الكامل .

أما رسالة « مطبوعات كتابى » ، التى تصدر فى منتصف كل شهر ، فهى نشر الترجمة الكاملة الأمينة لكتاب واحد ، فى كل عدد ، من شوامخ الكتب العالمية التى لا غنى لأى مثقف عن قراءتها واقتنائها .

فاستكمل مجموعتك منها من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) وترقب اعدادها الجديدة فى منتصف كل شهر

يصدرها : حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

هذه القصة..
إنها أشهر قصة كتبت عن مصر..
ومع ذلك، قرأها العالم كله.. ماعدا مصر
.. فمنذ أن ظهرت بالانجليزية - عام ١٩٠٩ - ترجمت إلى جميع اللغات الحية ماعدا العربية! .. فحرم من قراءتها أبناء البلد الذى تدور فيه حوادثها الشائقة .. حتى آن لـ "مطبوعات كتابى" أن تزيح عنها اليوم ستار النسيان فتقدمها لقراء مصر والبلاد العربية جمعاء..
إنها القصة التى جلبت على مصر عقب صدورها "طوفانا" من السائحين، جذبهم ماتضمنته من وصف خلاب للبلاد الساحرة التى عشقت فيها البطلة الشقراء ابنة "التيمز" فتاها الأسمر، ابن القاهرة والأقصر وأسوان!
يصدرها
حلمى مراد
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية